يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

مذيل بمرافعات الاتهام والدفاع في محاكمة المؤلف

الجزء الثاني والأخير

MADAME BOVARY

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب العاشر

مدام بوفارى

الجزء الثانى

تأليف : جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى • قلب عذراء • الهاربة من الجنة • حواء الجديدة • أحدب نوتردام • جريمة حب • عشيقة نابليون • مذكرات كيوبيد • صنم تحطم • حديقة الله • عندما تحقد المرأة • لعبة الحب والموت • توبة خاطئة • أيها الربيع ترفق • الشيطان على الأرض • ليدى هاملتون • الأرملة المرحة • حياة جورج صاند • حياة سارة برنار • رباعيات عمر الخيام • حياة بيتهوفن • حياة موسولينى • كوخ العم توم • الزوج والعشيق • البوهيمية • فتاة لها ماض • ترويض النمرة • فن الحب • الجريمة والعقاب • المنافق • أميرة مصر • الأمطار • أفروديت • أقنعة الحب السبعة • سالومى • الأعداد : ٣٦ _ ٣٧ _ ٣٨ _ ٣٩ _ ٤٠ _ ٤١ _ ٤٢ _ ٤٣ _ ٤٤ _ ٤٥ _ ٤٦ _ ٤٧

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ما عدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والأعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن : ما يوازى ١٣٠ قرشا مصريا وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد **Money Order**

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزء أول) . وثمن كل من الأول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص البريد المسجل)

أيهما تنصر .. فى معركة الساعة :

الأدب الواقعى .. أم الأدب الهادف ؟

عزيزى القارىء ..

◆ فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » تقرأ الجزء الثانى والأخير من هذه القصة الخالدة « مدام بوفارى » ، التى استغرقت كتابتها خمسة أعوام كاملة من عمر مؤلفها ! .. واذا كنت قد حرصت على نشر النص الحرفى الكامل للقصة بأكملها ، كلمة بكلمة ، فانى أبحت لنفسى ـ فيما يتصل بالمرافعات التى تبادلها ممثلو الاتهام والدفاع فى جلسات محاكمة مؤلفها ـ ان ألجا الى شىء من الاختصار، كى أستبعد منها ما يتصل « بالتطبيق القانونى » ، للتهمة ـ وهى مواضع وفقرات لا تهم القارىء العربى المعاصر فى شىء ، حتى لو كان من رجال القانون ، بحكم اختلاف النصوص القانونية فى بلاد العالم العربى اليوم ، عنها فى فرنسا منذ مائة عام ! ـ وأبقيت لك صلب هذه المرافعات وزبدتها التى سوف تستمتع بقراءتها فى القسم الأخير من هذا العدد ..

ولما كان قد كثر الجدل ـ فى الصحف العربية والمحافل الأدبية ـ خلال الأشهر الأخيرة ، بين أنصار الأدب الواقعى الذى يصور الحياة كما هى ، وكما يحياها البشر بالفعل ، وبين الحياة كما ينبغى ان تكون ، فى المجتمع المثالى المنشود !.. وما هذا الجدل الحامى فى الحقيقة الا مظهر واحد من مظاهر الصراع الأكبر بين أنصار مذهب « الفن للفن » ، وانصار مذهب « تسخير الفن لخدمة المجتمع » !

ولما كان قد انقضى قرن كامل بالضبط منذ نشرت القصة وحوكم مؤلفها : قرن تطورت فيه مقاييس الأخلاق والدين ، وتقاليد المجتمع .. كما تطورت فيه مذاهب الأدب ، ومدارسه ، واتجاهاته .. فقد رأيت ان انتهز هذه الفرصة فاطرح عليك هذا الاستفتاء الأدبى .. والقى عليك هذا السؤال الصريح :

هل كان « فلوبير » يستحق المحاكمة .. من أجل تاليفه هذه القصة ؟ .. ام كان يستحق التمجيد ؟ ولماذا ؟

ارسل الى بحكمك الخاص ، وحيثياته ، بعد قراءة الجزء الباقى من القصة ، وبعد الاستئناس بحجج كل من فريقى الاتهام والدفاع .. تساهم فى تحديد اتجاه القارىء العربى من هذه المعركة الأدبية الطريفة ..

وسوف يمنح صاحب الرد المفضل جائزة مالية قدرها خمسة جنيهات

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

« .. ان هذا ليس ذنبي ، وانما ذنب « فانكار » .. ! »
(الفصل السادس من القسم الثالث)

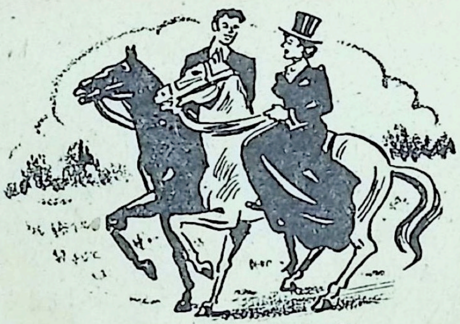

الفصل التاسع

◆ انقضت ستة أسابيع ، دون ان يأتى «رودولف» ثانية ٠٠ ثم ظهر اخيرا، فى احدى الأمسيات ٠ كان قد قال لنفسه غداة المعرض : « ما ينبغى ان اعود سريعا ، فهذا خطأ » ! ٠٠ وفى نهاية الاسبوع خرج للصيد ، وخطر له بعد الصيد ان الوقت قد تأخر ، بحيث لا يليق ان يذهب ٠٠ ثم عاد فراود نفسه قائلا : « لكنها اذا كانت قد أحبتنى منذ اليوم الأول ، فلسوف يزيدها وجدا تلهفها الى رؤيتى ٠ فلنمض اذن ! »

وأدرك ان ما توقعه كان صحيحا ، حين لمح وجه « ايما » يشحب لدى دخوله الحجرة ! ٠٠ كانت وحيدة ، والنهار يحتضر ٠٠ وقد ضاعفت الستائر الحريرية الصغيرة — المحاذية لطول زجاج النافذة — من لون الشفق ٠ وكان بريق « البارومتر » ، الذى سقط عليه شعاع من الشمس ، ينعكس على المرآة بين حزمتين من المرجان ٠ وظل « رودولف » واقفا ، بينما ردت « ايما » فى عناء عبارات التحية الأولى ٠٠ قال : « كانت لدى أعمال ٠٠ وكنت مريضا » ، فهتفت : « بدرجة خطيرة ؟ » ٠٠ فقال وهو يجلس على مقعد منخفض الى جوارها : « حسنا ! ٠٠ لا ! ٠٠ انما كان غيابى لأننى لم أشأ ان آتى » ٠٠ وتساءلت : « لماذا ؟ » ، فسألها بدوره : « ألا تحدسين ؟ »

ورمقها مرة أخرى ، لكن نظرته كانت حاده ، فنكست رأسها ، وتضرج وجهها ، بينما عاد يقول : « ايما ! » ٠٠ فتراجعت قليلا ، قائلة : «سيدى٠٠» ٠٠ فقال فى صوت حزين : « آه ! ٠٠ ها انتذى ترين اننى كنت محقا فى عزوفى عن المجىء ٠٠ فانت تحرمين على هذا الاسم ٠٠ الاسم الذى يملاء نفسى ،

والذى أفلت من لسانى ! .. مدام بوفارى ! .. آه ! .. كل الدنيا تدعوك هكذا ! .. ثم انه ليس اسمك ، وانما هو اسمشخص آخر ! » .. وعاد يردد : « شخص آخر ! » .. ثم أخفى وجهه فى راحتيه ، وهو يستطرد : « أجل ، اننى افكر فيك باستمرار ! .. ذكراك تدفعنى للقنوط ! آه ، معذرة ! .. لسوف أتركك .. وداعا ! .. سأبتعد .. سأذهب الى حيث لا تسمعين عنى ! .. على اننى اليوم لا أدرى – بعد – أية قوة دفعتنى اليك ! .. فان المرء لا يستطيع ان يناضل السماء ، أو يقوى على مقاومة ابتسامة الملائكة ! .. انما ينساق الانسان لما هو جميل ، فاتن ، حبيب ! »

كانت هذه أول مرة تسمع فيها « ايما » مثل هذه الأقوال ، فتمطى زهوها الى أقصاه ، فى رفق ، كشخص يستمرىء حماما دافئا .. بينما استأنف الشاب حديثه : « .. بيد انى اذا كنت لم آت .. اذا لم أملك ان أراك ، فانى .. آه ! .. كنت على الأقل أتأمل ما يحيط بك مليا .. كنت أنهض فى الليل – كل ليلة – وآتى الى هنا ، فأتامل دارك ، والسقف المتألق تحت القمر ، وأشجار الحديقة التى كانت تتمايل أمام نافذتك .. ومصباحا صغيرا ، وميضا كان يلمع خلال زجاج النافذة ، فى الظلام .. آه ! انك ما عرفت قط ان ثمة تعسا مسكينا كان قريبا منك ، بقدر ما كان بعيدا ! »

فالتفتت اليه دامعة ، وهتفت : « أواه ! .. انك طيب ! »

– لا ، بل انا أحبك ، وهذا غاية ما فى الأمر ! .. انك لا ترتابين فى هذا ! .. انبئينى .. بكلمة .. كلمة واحدة !

وانزلق « رودولف » – دون ان يعى – عن المقعد الى الأرض ، لولا ان سمع وقع نعلين خشبيين فى المطبخ ، ولاحظ ان باب القاعة لم يكن مغلقا ، فاستطرد وهو ينهض : « كم تكونين كريمة اذا أنت حققت نزوة لدى ! » .. تلك هى ان يجوس خلال دارها ، اذ ود ان يتعرف عليها ، واذ لم تر مدام « بوفارى » حرجا فى ذلك ، نهضا معا .. بينما دخل « شارل » ، فقال له رودولف : « عم صباحا يا دكتور » .. واغتر الطبيب بهذا اللقب الذى لم يكن يرتقبه من ضيفه، فانطلق يرد التحية فى عبارات تنم عن الارتياح .. واستغل الآخر الفرصة ليتمالك نفسه بعض الشىء ، ثم قال : « لقد طمأنتنى السيدة عن صحتها .. »

فقطع عليه «شارل» الحديث .. بالعكس ، ان لديه ألف هاجس وهاجس فى الواقع ، فلقد عاد اليها ضيق التنفس ، و .. واذ ذاك سأله « رودولف » عما اذا كانت النزهة على الجواد تنفعها ، فهتف : « بالتأكيد ! .. رائعة ! .. عين ما ينبغى ! .. يالها من فكرة ! .. خليق بك ان تأخذى بها » .. واذ تعللت « ايما » بأن ليس لديها جواد ، عرض السيد رودولف ان يقدم لها جوادا ، فرفضت عرضه .. ولم يصر .. ثم قال تبريرا لزيارته ، ان حوذيه – الرجل

الذى أجريت له الحجامة - لا يزال يعانى من الدوار .. فقال «بوفارى» : «ساعوده !»
- لا ، لا .. ساوفده اليك .. سنأتى ، فهذا أدعى لراحتك .
- آه .. حسن جدا .. أشكرك

* * *

◆ وما ان أصبحا على انفراد ، حتى سأل شارل زوجته : «لم لا تقبلين العرض الذى تكرم به السيد بولانجيه ؟ » .. فابدت اعراضا ، وانتحلت ألف عذر ، ثم أعلنت فى النهاية ان الأمر قد يبدو غريبا .. فقال وهو يدور حول نفسه : « آه ! .. لست أحفل ! .. الصحة قبل كل شيء ! .. انك مخطئة ! » .. فقالت : « آه ! .. وكيف تريدنى على ان أركب جوادا ، وليس لدى زى الركوب ! » .. فاجاب : « يجب ان تطلبى زيا ! »

وكان ذى فصل الخطاب .. فلما أعد ، كتب « شارل » الى السيد « بولانجيه » ان زوجته رهن اشارته ، وانه يكلها الى رعايته . ووصل « رودولف » أمام باب « شارل » فى ظهر اليوم التالى ، مع جوادين مسرجين ، حمل أحدهما حول أذنيه ورودا من الصوف الوردى اللون ، وكان سرجه نسويا من جلد الوعل .

وكان « رودولف » قد ارتدى حذاءين طويلين من الجلد الطرى ، محدثا نفسه بأن « ايما » ولا شك لم تر شيئا مثلهما قط . وفعلا ، فتنت بمظهره حين ظهر فى أسفل السلم فى حلته المخملية الواسعة ، وسرواله المصنوع من الصوف الأبيض المنسوج باليد . وكانت متاهبة ، فى انتظاره ، وتسلل « جوستان » من الصيدلية ليراها ، كما قطع الصيدلى عمله وجاء يوصى السيد بولانجيه : « ان الحوادث تقع فجأة ، فخذ حذرك .. ربما كان جوادك شديدى الاندفاع ! »

وسمعت « ايما » ضجة منبعثة من أعلى ، فاذا « فيليسيتيه » تنقر زجاج النافذة لتلهى « بيرت » الصغيرة . وأرسلت لها الطفلة قبلة على البعد ، فردت عليها الأم ملوحة بمقبض سوطها .. وصاح السيد « هوميه » : « نزهة طيبة ! .. الزما الحكمة والروية ، قبل كل شيء ! .. الحكمة والروية ! » .. واخذ يلوح بصحيفته وهو يرقبهما يبتعدان . وما ان دق حصان « ايما » الأرض بحوافره ، حتى انطلق راكضا بها ، فركض « رودولف » الى جوارها .. وصارا يتبادلان حديثا بين لحظة وأخرى ، ثم استغرقت ايما فى الصمت ، منساقة لايقاع الحركة التى كانت تؤرجحها فى سرجها ، وقد مالت قامتها الى الامام قليلا ، وارتفعت يداها ، وانبسطت ذراعها اليمنى .. وعند أسفل السفح ، ارخى « رودولف » العنان لجواده . فانطلق الجوادان فى وثبة واحدة ، وما لبثا اذ بلغا القمة ، أن وقفا فجأة ، فسقط القناع الازرق عن وجه « ايما » .. وكان شهر أكتوبر فى أيامه الأولى ، وثمة ضباب يربض فوق الارض ، والسحب تنتشر عند الأفق ، حول التلال ، بينما تفككت سحب أخرى ، وأخذت تطفو متباعدة ثم تختفى .. وكان المرء يلمح فى

بعض الاحيان خلال ثغرة فى السحب ، تحت شعاع من ضوء الشمس ، سقوف بلدة (ايونفيل) والحدائق الممتدة على حافه الماء ، والساحات ، والجدران ، وبرج الكنيسة • وزمت « ايما » عينيها لتستبين دارها ، ولم تكن هذه القرية البائسة ـ التى عاشت فيها ـ قد تراءت لها قط من قبل صغيرة الى هذا الحد • ومن الارتفاع الذى كانا عليه ، بدا الوادى بأسره كبحيرة هائلة باهتة اللون ، تتصاعد بخارا فى الهواء •• وكانت مجموعات الشجر المتناثرة هنا وهناك تظهر كصخور سوداء ، وصفوف الاشجار السامقة ـ التى كانت تبرز خلال الضباب ـ تلوح كساحل رملى تذروه الرياح

وكان ثمة ضوء بنى يتذبذب فى الجو الدافىء ، وعلى الاعشاب ، بين أشجار الصنوبر القائمة جانبا •• وكانت التربة تكتم وقع الخطى ، وقد بدت فى صفرة متوردة كمسحوق التبغ •• وأخذ الجوادان ـ فى سيرهما ـ يضربان بحواف سنابكهما اقماع الصنوبر المتساقطة أمامهما •• وهكذا مضى « رودولف » و « ايما » يتبعان حافة الغابة ، وهى تشيح بوجهها من آن لآخر لتتفادى نظراته ، بحيث لم تكن ترى اذ ذاك سوى جذوع أشجار الصنوبر المتراصة فى صفوف كان تتابعها الرتيب يسبب لها شيئا من الدوار •• وراح الجوادان يلهثان ، وجلد السرجين يحدث صريفا •• وفى اللحظة التى ولجا فيها الغابة ، بزغت الشمس ، فقال « رودولف » : « ان الله يرعانا ! » •• فسألته : « أتظن ذلك ؟ » ، فواصل الحديث قائلا : « لنتقدم ! لنتقدم ! » •• وشقشق بلسانه فاندفع الجوادان يجريان ، وعيدان نبات السرخس النامية على جانب الطرق تعلق بركاب « ايما » فينحنى « رودولف » ويزيلها وهما ماضيان •• وكان فى فترات أخرى يمر جد قريب منها ليزيح الاغصان ، فتحس « ايما » بركبته تحتك بساقها •• وكانت السماء قد غدت زرقاء ، ولم تعد أوراق الشجر تهتز •• ومرا بمساحات مليئة بزهور نبات « الخلنج » ، وبقاع حفلت بزهور البنفسج ، تتخلل رقاعا ازدحمت بالاشجار المتشابكة التى كانت ذات لون رمادى مصفر ، أو لون ذهبى ، تبعا لتباين أوراقها • وكثيرا ما كان يسمع فى الادغال حفيف خفيف صادر عن جناحين ، أو صيحة أجشة خافتة منبعثة عن غراب يحلق بين شجر البلوط ••

★ ★ ★

◆ وترجلا ، فربط «رودولف » الجوادين ، بينما تقدمت « ايما » سائرة على العشب بين دربين •• بيد أن ثوبها المفرط الطول راح يعرقل خطاها ، رغم أنها كانت ترفع ذيله ، و « رودولف » يسير خلفها فيلمح بين هذا القماش الأسود والحذاءين الاسودين ، رقة جوربيها الابيضين اللذين لاحا له كنوع من العرى ! •• ثم توقفت قائلة : « اننى متعبة » ، فقال : « لنمض •• حاولى من جديد •• تجلدى ! » •• وبعد مائة خطوة ، توقفت من جديد ، وخلال نقابها الذى انساب

من قبعة الرجال ـ التى كانت ترتديها ـ الى خاصرتيها ، فى انحراف ، كان وجهها يلوح فى شفافية مشوبة بزرقة ، وكأنه يسبح تحت موجات لاذوردية٠٠وتساءلت: « الى أين ترانا ذاهبين ؟ » ٠٠ فلم يجب ٠ وتهدجت أنفاسها ، فأجال رودولف بصره فيما حوله ، وعض على شاربيه

وبلغا بقعة فسيحة ، اجتثت منها الاعشاب والاشجار ، فجلسا على جذع شجرة مجتثة ، وشرع « رودولف » يحدثها عن غرامه ٠٠ لم يزعجها فى البداية بالمجاملات والملق ، وانما كان هادئا ، جادا ، حزينا ٠٠ وانصتت « ايما » منكسة الراس ، وهى تحرك بمقدمة قدمها بعض شظايا الخشب المختلطة بالتراب ٠٠ حتى قال : « ألم يعد مصيرانا الآن مشتركين ؟ » ، واذ ذاك أجابته : « آه ، لا ! ٠٠ انك لتعرف هذا تماما ٠٠ انه مستحيل ! » ٠٠ ونهضت للانصراف ، فامسك بمعصمها ٠٠ وتوقفت ، ثم قالت متعجلة بعد أن رمقته بضع لحظات بعين عاشقة ، مغرورقة: « آه ! ٠٠ لنكف عن الكلام ٠٠ أين الجوادان ؟ ٠٠ هيا نعد » ٠٠ فلوح بيده فى غضب وحنق ، بينما كررت هى : « أين الجوادان ؟ ٠٠ أين الجوادان ؟ » ٠٠ وما لبث أن تقدم باسطا ذراعيه ، وعلى أساريره ابتسامة غريبة ، وقد جمدت حدقتاه ، وضغط اسنانه٠٠فتراجعت مرتجفة ، وقالت متلعثمة : « أواه ! ٠٠ انك تخيفنى ! ٠٠ انك تؤذينى ! ٠٠ لنرحل » ٠٠ فقال وقد تغيرت أساريره : « اذا لم يكن من الرحيل بد » ! ٠٠ وارتد وقورا ، لطيفا ، حييا ، فأسلمته ذراعها ، وعادا ، وهو يقول : « ترى ما الذى دهاك ؟ لماذا ؟ ٠٠ اننى لا أفهم ٠٠ انك أسأت فهمى ولاريب ٠٠ انك فى فؤادى كعذراء على منصة ، فى مكان رفيع ، منيع ، طاهر ٠ ولكنى لا اطيق أن أعيش بدونك ! اننى فى حاجة الى عينيك ، الى صوتك ، الى فكرك ٠٠ الا كونى لى صديقة ، أختا ، ملاكا ! » ٠٠ وبسط ذراعه ، فأحاط بها خصرها ٠ وحاولت التملص فى وهن ، لكنه ظل يسندها وهما سائران ٠٠ غير أنهما ما لبثا أن سمعا الجوادين يلتهمان أوراق الشجر ، فقال « رودولف » : « آه ! ٠٠ لحظة واحدة ! ٠٠ ما ينبغى أن نرحل ٠ ألا ابقى ! »

واجتذبها بعيدا ، حول بركة ماء صغيرة ، بسطت أعشاب الماء على أمواجها خضرة ٠٠ وكانت زنابق الماء الباهتة تستلقى ساكنة بين أعواد الغاب (البوص) ٠ وقفزت الضفادع لتختفى عند وقع أقدامهما ٠٠ فقالت ايما : « اننى مخطئة ! اننى مخطئة ! اننى حمقاء اذ أنصت اليك ! »

ـ لماذا يا ايما ؟ ٠٠ يا ايما !

فقالت فى بطء وهى تميل على كتفه : « أواه ، يا رودولف ! » ٠٠ واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته ، فمالت الى الخلف بعنقها الأبيض ، الذى انتفخ بزفرة٠٠وفى اضطراب،ودموع، ورعشة طويلة، حجبت وجهها ٠٠وأسلمت نفسها !

وهبطت ظلال المساء ، ومرت الشمس الغاربة بين الافنان فأعشت عينى « ايما »

٠٠ وهنا وهناك ـ فيما حولها ـ كانت لمم من الضوء ترتجف بين أوراق الشجر أو على الارض ، وكأنها طيور صداحة نفشت ريشها وهى تحلق ٠٠ كان السكون شاملا ، كأنما كان ينبعث من الأشجار شيء عذب ٠ وتحسست المرأة قلبها الذى عاد وجيبه يشتد ، وجرى الدم فى لحمها كجدول من لبن ٠٠ وما لبثت أن سمعت من مكان بعيد على التلال الأخرى ، خلف الغابة ، صيحة مبهمة ، طويلة ٠٠ صوتا تردد ، فأصغت اليه فى صمت وهو يختلط ـ كالموسيقى ـ بآخر نبضات أعصابها المختلجة ٠٠ وكان «رودولف» يصلح بسكينه أحد العنانين المكسورين ، وسيجاره بين شفتيه

☆ ☆ ☆

◆ وعادا الى (ايونفيل) من نفس الطريق التى جاءا فيها ، فرأيا على الوحل آثار أقدام جواديهما ، جنبا الى جنب ٠٠ ومرا بعين الادغال ، وعين الحصى بين العشب ٠٠ لم يتغير شيء حولهما ، وان كان قد حدث ـ بالنسبة لها ـ أمر اشد جسامة مما لو كانت الجبال قد تقلقلت من مواضعها !٠٠ وكان « رودولف » يميل نحوها ، بين آن وآخر ، فيتناول يدها ليقبلها ٠ كانت فاتنة ، على الجواد ! ٠٠ معتدلة ، هيفاء القوام ، وقد انثنت ركبتها على عرف دابتها ، وتورد وجهها قليلا ـ بتاثير الهواء الطلق ـ فى حمرة الشفق ٠ حتى اذا وجا (ايونفيل) ، حولت مدام بوفارى عنان جوادها الى الطريق المرصوفة ، وتأملها الناس خلال النوافذ٠٠

وعندما حانت ساعة العشاء ، ألفاها زوجها وقد بدت افضل حالا ، وان لاح عليها أنها لم تكن تسمعه وهو يسألها عن نزهتها ٠٠ بل ظلت جالسة ومرفقاها الى جانبى طبقها ، بين شمعتين مشتعلتين٠٠ وقال الزوج : « ايما ! » ٠٠ فتساءلت : « ماذا ؟ » ٠٠ فأردف : « خيرا ٠٠ لقد قضيت الأصيل فى دار السيد الكسندر ٠ ان لديه فرسا عجوزا ، لا تزال بديعة جدا ٠ كل ما بها ان ركبتيها مضعضعتان ٠٠ وانى لواثق من أن فى الوسع شراءها بمائة دينار » ٠٠ ثم أضاف : « واذ خطر لى انها ستروقك ، حجزتها٠٠ابتعتها٠٠فهل أحسنت صنعا ؟٠٠الا نبئينى! »

فهزت رأسها علامة الرضى ، وما لبثت أن تساءلت بعد ربع ساعة : « أخارج أنت الليلة ؟ » ، فأجاب : « أجل ٠٠ لماذا ؟ » ٠٠ قالت : « آه ٠٠ لا شيء ٠٠ لا شيء يا صديقى » ٠٠ وما أن تخلصت من « شارل » حتى صعدت فأغلقت باب مخدعها خلفها ٠٠ وأحست ـ فى البداية ـ كأنها فى غيبوبة !٠٠ رأت الأشجار ، والدروب ، والاخاديد ، ورودولف ٠٠ وشعرت من جديد بضغط ذراعيه ، بينما كانت أوراق الشجر وأعواد الغاب تبعث حفيفا ٠٠ ولكنها اذ لمحت شكلها فى المرآة ، دهشت لمرأى وجهها ، فما كانت عيناها يوما بهذا الاتساع ، وفى هذا السواد ، وعلى هذا العمق ٠٠ ان شيئا ما ، رقيقا لطيفا ، قد غيرها ٠٠ وراحت تردد لنفسها : « أصبح لى عشيق ! ٠٠ عشيق ! » ٠ وبعثت فيها هذه الفكرة

نشوة ، فكأنها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة أخرى ! ٠٠ اذن فقد قدر لها أخيرا ان تعرف مباهج الحب هذه ، وحمى الهناءة تلك التى كانت فى قنوط منها ؟! ٠٠ لقد ارتادت شيئا من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة ، والنشوة ، والألم ٠٠ ولفتها هيلولة لازوردية ، وأخذت ذرى الأحاسيس تومض تحت افكارها ، وبدا لها كيانها العادى بعيدا ، منخفضا فى الظلمات التى كانت تتخلل تلك الذرى !٠٠ اذ ذاك أخذت تتذكر بطلات الكتب التى قرأتها ، وراح الموكب الموسيقى لتلك الفاسقات يردد فى ذاكرتها الاغانى بأصوات الراهبات التى كانت تفتنها ٠٠ وما لبثت ان تبينت أنها قد غدت جزءا من تلك الرؤى فعلا ، اذ حققت حلم صباها ، وخالت نفسها من ذلك الطراز من العاشقات اللاتى كانت تغبطهن من قبل ٠٠ وأحست ، بجانب ذلك ، براحة الانتقام ! ٠٠ أو لم تعانى الكفاية من العذاب ؟٠٠ انها الآن قد فازت ، وانبثق الحب ـ الذى طالما احتبسته ـ فى طفرات فرحة ٠٠ فاستمرأته فى غير ندم ، ولا قلق ، ولا اضطراب !

وانقضى اليوم التالى فى عذوبة جديدة ، اذ تبادلا العهود ٠٠ وحدثته عن أحزانها ، فمضى يقطع عليها الحديث بقبلاته ٠٠ وراحت تساله ، وهى تتامله بعينين نصف مغمضتين ، ان يناديها باسمها ، وأن يكرر لها انه يهواها ٠٠ وكانا ساعتئذ فى كوخ بالغابة كان يوما ملكا لأحد الاسكافيين ، جدرانه من القش ، وسقفه جد منخفض ، حتى لقد اضطرا الى ان يحنيا جذعيهما ، وقد جلسا متقابلين على فراش من أوراق الشجر الجافة ٠٠

* * *

◆ ومنذ ذلك اليوم أخذا يتكاتبان بانتظام كل ليلة ٠ وكانت « ايما » تضع رسالتها فى نهاية الحديقة ، على مقربة من النهر ، داخل فجوة فى السياج ، فيأتى

« رودلف » ليأخذها ويدس رسالة منه فى موضعها ، كانت تشكو دائما من اقتضابها ! ٠٠ وذات صباح ، خرج « شارل » قبيل بزوغ ضوء النهار ، فتولت « ايما » نزوة طاغية زينت لها أن ترى « رودولف » لتوها ! ٠٠ وخطر لها أن بوسعها أن تذهب الى (لاهوشيت) عاجلا ، فتمكث هناك ساعة ، ثم تعود الى (ايونفيل) قبل أن يستيقظ أحد من نومه ! ٠٠ وجعلتها هذه الفكرة تلهث لفرط الشهوة ، وسرعان ما ألفت نفسها وسط المراعى ، وهى تغذ السير ، لاتلوى على شىء ! ٠٠ وكان النهار قد شرع يسفر عن ضيائه ، حين تعرفت عن بعد على بيت حبيبها ، وقد استقام بالقرب منه جهازا معرفة اتجاه الريح ـ اللذان كانا ينتهيان بما يشبه ذيل الحمامة ـ أسودين بالنسبة لضوء الفجر الباهت ٠٠ وكان ثمة مبنى وراء ساحة المزرعة ، حدست أنه القصر ولا بد ، فدخلته ، وكأنما تفتح باباه من تلقاء نفسيهما بمجرد اقترابها ٠٠ وكان ثمة سلم عريض مستقيم يصعد الى الردهة ، فأدارت « ايما » مقبض أحد الابواب ، واذا بها ترى فى أقصى الحجرة رجلا نائما ٠٠ كان « رودولف » ٠٠ فندت منها صرخة !

واخذ هو يردد : « أأنت هنا ؟ ٠٠ أأنت هنا ؟ ٠٠ كيف استطعت المجىء ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ ان ثوبك مبتل » ٠٠ فاجابت وهى تطوق عنقــه بذراعيها : « اننى أهواك ! » ٠٠ واذ نجحت هذه المغامرة الجريئة الأولى ، أصبحت « ايما » تسارع ـ كلما بكر « شارل » فى الخروج ـ الى ارتداء ثيابها ، ثم تتسلل على أطراف أصابع قدميها ، هابطة السلم المفضى الى ناحية النهر ٠٠ أما اذا كانت قنطرة الابقار مرفوعة ، فكانت تضطر الى الانطلاق بمحاذاة الأسوار القائمة على طول النهر ٠ وكانت الضفة زلقة ، ومن ثم كانت تتشبث بيديها بفروع الازهار المتسلقة ، لتتفادى السقوط ، ثم تنطلق بعد ذلك عبر الحقول المحروثة ، حيث كانت قدماها تغوصان فى الارض ، فتتعثران وتفلتان من نعليهما الرقيقين ٠٠

وكانت الريح فى المروج تعبث بالوشاح الذى يلف رأسها ٠٠ وكانت تخاف الثيران فتاخذ فى الجرى ، حتى تصل متقطعة الانفاس ، موردة الخدين ، تنشق بكل كيانها عبير ماء الحقول ، والخضرة ، والهواء الطلق ٠٠ وفى تلك الاثناء يكون « رودولف » سادرا فى نومه ، فتلج مخدعه كصــــباح الربيع ! ٠٠ وكانت الستائر الصفراء ـ على النوافذ ـ تسمح لضوء غزير ، مصفر ، بالتسلل فى رفق ، فتتحسس « ايما » طريقها ، وهى تفتح عينيها وتغمضهما ، بينما تؤلف قطرات الندى العالقة بوشاحها اكليلا من الزبرجد حول وجهها ٠٠ فيشــدها « رودولف » اليه ضاحكا ، ويضمها الى قلبه ! ٠٠ ثم تاخذ بعد ذلك فى تفقد المسكن ، فتفتح أدراج المناضد ، وترجل شعرها بمشطه ، وتتأمل نفسها فى مرآة الحلاقة ٠٠ بل انها كثيرا ما كانت تضع بين أسنانها طرف الغليون الكبير الملقى على المنضدة المجاورة للفراش ، بين الليمون وقطع السكر ، على مقربة من

ابريق للماء ٠٠ وكان الوداع يستغرق منهما ربع ساعة بأكمله ، فقد كانت «ايما» تبكى آنئذ ، وهى تود لو أتيح لها الا تفارق « رودولف » أبدا ! ٠٠ كان يدفعها نحوه شىء أقوى منها ،حتى انه حين رآها يوما تفد على غير ارتقاب ، قطب جبينه فى عبوس الشخص المكره على أمر ،فقالت له : « ماذا بك ؟ ٠٠ هل تالم من مرض ؟ ٠٠ صارحنى ! »

وصارحها أخيرا ، فى لهجة جادة ، بأن زياراتها أصبحت تجانب الحكمة ، وانها تعرض نفسها للخطر !

الفصل العاشر

◆ لم تلبث مخاوف « رودولف » هذه ان تملكتها هى الاخرى ٠٠ اذ اسكرها الحب فى البداية ، فلم تفكر فى شىء عداه ، اما وقد اصبح ضرورة لا غنى عنها فى حياتها ، فقد غدت تخشى ان تفقد شيئا من هـــذا الحب ، بل تخشى اى عناء يحيق به ٠ وكانت حين تعود من عند « رودولف » تتلفت حولها بنظرات موجسة، وترقب كل ما يمر عند الافق ، وكل كوة فى القرية يمكن ان يلمحها منها احد ٠ وكانت تتسمع على الخطى ، والصيحات ، وجلبة المحاريث ٠٠ وتبدو أكثر شحوبا وأشد ارتجافا من أوراق أشجار الحور المهتزة فوق راسها ٠ وفيما كانت عائدة ذات صباح ـ بهذه الحال ـ خيل اليها فجاة انها لمحت قصبة بندقية مسددة اليها، وقد برزت بانحراف من قمة برميل صغير دفن الى نصفه بين الاعشاب عند حافة خندق صغير ٠٠ وكاد يغمى على « ايما » خوفا ، ومع ذلك فانها واصلت السير ، واذا برجل يخرج من البرميل ـ كعفريت العلبة ـ مرتديا طماقين (طزلك) يقيان ساقيه حتى الركبتين ، وقد أرخى قلنسوته على عينيه ، وارتجفت شفتاه،

واحمر أنفه ٠٠ ذلك كان السيد « بينيه » ـ محصل الضرائب ـ وكان قد كمن يتربص للبط البرى ٠٠ وهتف بها : « كان ينبغى ان تصيحى من بعد ، فالمرء اذا رأى بندقية وجب عليه ان ينبه الى وجوده ! » ٠٠ وكان المحصل يحاول بهذا ان يخفى الجزع الذى تولاه ، اذ كان ثمة أمر ادارى يحرم صيد البط الا من مركب فى النهر ، وقد وجد السيد « بينيه » نفسه يخرق القانون رغم احترامه اياه ، وكان يخشى ان يفاجأ بين دقيقة وأخرى بوصول الحارس الريفى ٠٠ غير ان هذا القلق أذكى متعته ، فراح يهنىء نفسه ـ وهو وحيد فى البرميل ـ بما اوتى من حظ ودهاء ٠٠ وما ان رأى « ايما » حتى بدا وكأنما انزاح عنه عبء ثقيل ، فبادر الى مجاذبتها الحديث ، قائلا : « ان الجو ليس حارا ، بل ان برودته لاذعة» ٠٠ ولم تجبه « ايما » ، فاستطرد قائلا : « ومع ذلك تخرجين مبكرة من دارك ؟ » ٠٠ فقالت متلعثمة : « أجل ٠٠ اننى عائدة من لدن المربية التى تكفل طفلتى »

ـ آه ، حسن جدا ! حسن جدا ! ٠٠ أما أنا ، فكما ترين ، جئت منذ تنفس النهار ، ولكن الجو شديد الرطوبة ، حتى ان المرء اذا لم يصبر حتى يقف الطائر عند فوهة البندقية ٠٠

فقطعت عليه الحديث قائلة وهى تنكص على عقبيها : « عم مساء يا سيدى ! » ٠٠ فقال فى لهجة جافة : « فى خدمتك يا سيدتى » ٠٠ وعاد الى برميله ٠ وندمت « ايما » اذ تركت محصل الضرائب بمثل هذه الجفوة ، فلا بد انه سيسىء التأويل والحدس ! ٠٠ والواقع ان قصة المرضعة كانت أسوأ حجة ، اذ ان الكل يعرفون فى (ايونفيل) ان ابنة « بوفارى » قد عادت الى أبويها منذ عام ٠٠ ثم ان أحدا لم يكن يسكن فى هذه الجهة، ولم تكن الطريق تفضى الى غير مزرعة (لاهوشيت) ! ومن ثم فلن يلبث « بينيه » ان يحدس من أين كانت آتية ، ولن يخلد الى الصمت ، بل ان من المؤكد انه سيثرثر بالموضوع ! ٠٠ وظلت « ايما » حتى المساء تعصر ذهنها بحثا فى كل أنواع الأكاذيب الممكن تصورها ، وشبح ذلك الصياد الغبى ماثل أمام عينيها باستمرار !

⋆ ⋆ ⋆

◆ واذ رأى « شارل » اكتئابها ، أراد ـ بعد العشاء ـ ان يصطحبها الى دار الصيدلى ليروح عنها ، فاذا أول شخص تراه فى الصيدلية ، هو محصل الضرائب عينه ! كان واقفا أمام منضدة البيع ، التى أنارها قنديل أحمر ، وهو يقول : « أرجو ان تعطينى نصف أوقية من الزاج » ، فصاح الصيدلى : « احضر حامض الكبريتيك يا جستان » ٠٠ ثم قال لايما التى همت بان تصعد الى حجرة زوجته مدام « هوميه » : « لا ، استريحى ، فلا داعى لان تتعبى نفسك ، اذ انها لن تلبث ان تهبط ٠٠ فاستدفئى بجوار المدفأة فى انتظارها ٠٠ معذرة ، طاب يومك يا دكتور (كان الصيدلى يستطيب ترديد كلمة « دكتور » ، وكأنه يخلع على

نفسه ـ اذ ينادى سواه بها ـ بعض الرواء الذى يجده فيها) ٠٠ ولكن ،حذار ان تقلب الهاونات ٠٠ يحسن ان تحضر بعض المقاعد من القاعة الصغيرة ٠٠انك تعرف ولا ريب ان ليس من المسموح نقل المقاعد الوثيرة من غرفة الجلوس ٠٠ »

ولكى يعيد « هوميه » مقعده الى مكانه ، هم بالانطلاق من خلف منضدةالبيع ، لولا ان سأله « بينيه » ان يبيعه نصف اوقية من حامض السكر ، فقال الصيدلى فى ازدراء : « حامض السكر ؟ ٠٠ لست أعرفه ، بل اننى أجهله ! ٠٠ لعلك تريد حمض الاوكساليك (الحميض) ؟٠٠ انه الأوكساليك، أليس هذا صحيحا ؟» ٠٠ فأوضح له « بينيه » انه يريد مادة تفتت المعدن ، ليعد لنفسه بعض ماء النحاس يزيل به الصدأ عن أدوات الصيد ٠ فارتجفت « ايما » ، وشرع الصيدلى يقول : « ان الجو غير مناسب فعلا ، بسبب الرطوبة » ٠ فأجاب محصل الضرائب، فى تخابث : « ومع ذلك ، فهناك أشخاص يميلون اليه ! » ٠٠ وتهدجت أنفاس « ايما » ، بينما تحول هو يقول : « واعطنى أيضا ٠٠ » ٠٠ فقالت لنفسها : « أو لن ينصرف أبدا ؟ » ٠٠ وكان مستطردا فى كلامه : « نصف اوقية من زيت الخروع والتربنتينة ، وأربع اوقيات من الشمع الأصفر ، وثلاثة أنصاف أوقية من الفحم الحيوانى ، من فضلك ٠٠ لأنظف جلد طماقى المصقول »

وكان الصيدلى قد شرع فى قطع الشمع عندما وصلت مدام «هوميه» حاملة « ايرما » بين ذراعيها ، و « نابوليون » الى جوارها ، و «اتالى» خلفها ٠٠وجلست فى المقعد المخملى المجاور للنافذة ، بينما جلس الصبى القرفصاء على مقعد صغير، واخذت اخته التى تكبره تحوم حول صندوق العناب القريب من ابيها ٠ وكان الأخير يملأ اقماعا ، ويسد قنينات ، ويلصق بطاقات ، ويحزم الأشياء ٠٠وقد ساد الصمت ما حوله ، فلم تكن تسمع سوى شنشنة الموازين بين آن وآخر ، وبضع كلمات خافتة من الصيدلى لتوجيه مساعده ٠ وفجاة ، تساءلتمدامهوميه: « وكيف حال فتاتنا الصغيرة ؟ » ، فهتف زوجها وهو يكتب أرقاما فى مسودة : « صمتا ! » ٠٠ لكنها استطردت فى صوت خفيض : « لم لم تحضريها معك ؟ » ٠٠ وأجابت ايما وهى تشير الى الصيدلى بأصبعها : « صه ! ٠٠ صه ! » ٠٠ ومن المحتمل ان يكون « بينيه » لم يسمع شيئا ، اذ كان منهمكا فى مراجعة حسابه ٠ وما لبث ان خرج فى النهاية ، واذ ذاك احست « ايما » بالارتياح ، فارسلت زفرة عميقة ٠ وقالت مدام « هوميه » معلقة : « ما أشد أنفاسك ؟ » ، فأجابت : « آه ٠٠ ان الجو حار !»

★ ★ ★

◆ وهكذا اضطر العاشقان الى ان يتشاورا فى اليوم التالى فى تدبير امر خلواتهما ٠ ورأت « ايما » ان ترشو خادمتها بهدية ، ومع ذلك فقد استحسنت البحث عن منزل أمين فى (ايونفيل) ، فوعد « رودولف » بأن يبحث ٠٠ وظل طيلة الشتاء ، يتسلل الى حديقة دارها فى بهيم الليل ثلاث مرات او اربعا فى

الاسبوع ، وكانت « ايما » قد تعمدت ان تأخذ مفتاح الباب ، فظن « شارل » انه ضاع ٠٠ واعتاد « رودولف » ان يرمى مصاريع النافذة بحفنة من الرمل كلما جاء ، لينبهها ، فتقفز مجفلة ٠٠ بيد انها كانت تضطر أحيانا الى التريث فى اللحاق به ، اذ كان « شارل » يهوى الحديث الى جوار المدفأة ، ولا يكاد يكف ٠٠ وكان التعجل فى انتظار نهوضه يفرى فؤادها ، ولو اوتيت نظراتها قوة لرفعته من مكانه وطوحت به من النافذة ! ولكنها كانت لا تلبث أخيرا ان تشرع فى التأهب للنوم ، ثم تتناول كتابا وتأخذ فى مطالعته فى هدوء ، وكأنما هى تستمرىء القراءة ٠٠ فلا يلبث « شارل » ان يصعد الى السرير ، ويناديها لتنام، قائلا : « هيا يا ايما ، تعالى ٠٠ لقد آن لك ان تنامى » ، فتجيبه : « أجل ، ها أنذى قادمة ! » ٠٠ لكنه لا يلبث ان يضيق بضوء الشموع ، فيولى الحائط وجهه ، وينام ٠٠ فتتسلل مبتسمة ، متهدجة الأنفاس ، وليس عليها سوى قميص النوم ٠ وكان لرودولف معطف كبير ، يسارع فيلفها به تماما ، ثم يحيط

خصرها بذراعه ، ويقودها ــ دون ما كلمة ــ الى الطرف الأقصى للحديقة ، تحت الخميلة ، على عين المقعد المصنوع من العصى الخشبية الذى كان « ليون » يجلس عليه فيما مضى ، يتطلع اليها فى وجد ، فى ليالى الصيف ــ على انها لم تكن تفكر فى « ليون » قط اذ ذاك !

وكانت النجوم تومض خلال فروع الياسمين المجردة من الورق ٠٠ وخرير النهر فى انسيابه يصافح سمعهما من خلف الحديقة ٠٠ ومن وقت لآخر ،كان ينبعث على الضفة حفيف أعواد الغاب الجافة ٠ وهنا وهناك ، كانت تبين خلال الظلام كتل من الظلال ، تهتز احيانا فى حركة موحدة ، فتنهض وتترنح كأنها امواج سوداء هائلة ، تتدافع لتجتاحهما ٠٠ وكان برد الليل يضطرهما الى ان يزدادا تلاصقا ، فتبدو التنهدات المنبعثة من شفاههما أحر من عادتها ، وتتراءى

لهما عيونهما ـ التى كانا لا يكادان يستبيناها ـ أكثر اتساعا ٠٠ وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافتة ، تقع على نفسيهما فى رنين بلورى ، ثم تتذبذب فيها ، فى دوائر تطرد اتساعا ٠٠ وكانا ـ فى الليلة الممطرة ـ يلوذان بغرفة العيادة القائمة بين مأوى العربة وحظيرة الجواد ، فتوقد « ايما » شمعة من شموع المطبخ كانت تخفيها وراء الكتب ، ويرتاح « رودولف » كما لو كان فى بيته ! ٠٠ بل ان منظر المكتبة ، والمكتب ، والغرفة بأسرها ، كانت لا تلبث ان تستثير روح الفكاهة لديه ، فلا يتمالك ان يلقى بضع نكات عن « شارل » تحار ازاءها « ايما » ، اذ كانت تؤثر ان تراه أكثر جدا ، بل وأكثر انفعالا ـ فى بعض المناسبات ـ كما يفعل أبطال المسرحيات ٠٠ من ذلك تلك المرة التى خيل اليهما فيها انهما يسمعان صوت خطى تقترب فى الردهة ، اذ قالت : « هناك شخص مقبل ! » ٠٠ فأطفأ الشمعة !

ـ هل تحمل غدارتيك ؟ ـ لماذا ؟

أجابت : « عجبا ٠٠ لتدافع عن نفسك ! » ٠٠ قال : « أأدافع ضد زوجك ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ يا للصبى المسكين ! » ٠٠ واتبع عبارته بحركة ، أوضحها بقوله : « اننى أستطيع ان احطمه بطرف اصبعى ! » ٠٠ وبهتت لجراته ، وان احست فيها بشىء من القحة والغرور الممجوج ، اثار استنكارها ! ٠٠ وفكر «رودولف» كثيرا فيما قالت عن الغدارتين : فلو انها كانت جادة فى القـــول ، لكان هذا سخفا بالغا ، بل ممقوتا ، اذ لم يكن ثمة ما يبرر ان يكره « شارل » الطيب ، الذى لم يكن من النوع الذى يقال ان « الغيرة تاكله » ! ٠٠ وفى هذا الصدد ، اقسمت « ايما » يمينا ، لم ير « رودولف » انها تنم عن ذوق مستحب ٠٠ ثم انها كانت ـ الى جانب ذلك ـ تزداد اندفاعا فى الهوى ، فحملته على ان يتبادل معها الصور الصغيرة ، وخصل الشعر ، ثم تحولت تسأله ان يهديها خاتما ٠٠ خاتم زواج حقيقيا ، كرمز للرباط الابدى بينهما ! وكثيرا ما كانت تحدثه عن الأجراس التى يسرى رنينها فى الليل ، وعن « أصوات الطبيعة » ٠٠ ثم راحت تحدثه عن مكانة أمها ، بالنسبة لها ، ومكانة امه بالنسبة له ! ٠٠ وكان « رودولف » قد فقد أمه منذ عشرين سنة ، ومع ذلك راحت « ايما » تعزيه فى كلمات مواسية ، حنون ، كتلك التى تقال لطفل ضائع ، وحيد ٠٠ بل لقد كانت أحيانا تقول له ، وهى تحملق فى القمر : « اننى واثقة من انهما فى حياتهما العليا تقران غرامنا » !

★ ★ ★

◆ لكنها كانت فائقة الجمال ! ٠٠ قليلات ممن عشق « رودولف » من قبل أوتين مثل سذاجتها وطيبة قلبها ٠٠ وكان هذا الغرام الخالى من الفجور والخلاعة تجربة جديدة بالنسبة له ، وقد اخذ يخرجه من تساهله وتحلله المألوفين ،ويذكى فى الوقت ذاته زهوه وشهوته ٠٠ وكانت عواطف « ايما » المرهفة ، المشبوبة ،

تبدو لادراكه البورجوازى مستهجنة ، ولكنها كانت تلوح له - فى قرارة فؤاده - ممتعة ، اذ كانت تنصب عليه فى سخاء ٠ واذ اطمأن الى انه غدا محبوبا ، لم يعد يحفل بالتظاهر ، وتغيرت أطواره فى غير حكمة ٠٠ فلم تعد لديه - كما كان من قبل - كلمات يبلغ من رقتها أن تبكيها ، ولا عناقات حارة تعبث برشدها ٠٠ حتى لقد لاح ان حبهما الكبير ، الذى عاشت فى غمرته ، قد أخذ يضمحل ، كما يغيض ماء الجدول فى مجراه ، حتى خيل اليها انها ترى قاعه ! ٠٠ ولم تشأ ان تصدق ذلك ، بل ضاعفت من الحنان الذى تريقه على « رودولف » ، بينما كان هو يزداد اهمالا فى اخفاء عدم اكتراثه !

ولم تكن تدرى أهى نادمة على ان استسلمت له ، أم انها - على العكس - لم تعد راغبة فى امتاعه وارضاء لذته ٠٠ وأخذت ذلة شعورها بالضعف تتحول الى ضغينة يهدىء من حدتها عبثهما الفاجر ٠٠ وما كان هذا غراما ، وانما كان أشبه الأشياء بضلال مستمر ٠٠ كان « رودولف » يسيطر على « ايما » ٠٠ وكانت ترهبه تقريبا ٠٠ على ان المظهر ازداد هدوءا عن ذى قبل ، اذ أفلح رودولف فى المضى بعلاقتهما الآثمة الى أبعد مما صور له خياله ٠٠ وما ان أقبل الربيع - بعد ستة شهور - حتى كانا كزوجين ، يبقيان على ومضة من الألفة المشـــتركة فى هدوء ٠٠ وحان الموعد الذى اعتاد الأب « روو » ان يرسل فيه دجاجته الرومية المعهودة ، فى ذكرى كسر ساقه ٠ وكانت تصحب الهدية - كالعادة - رسالة ، فقطعت « ايما » الخيط الذى يشدها الى السلة ، وقرأت فيها السطور التالية :

« ولدى العزيزين : أرجو أن تجدكما الهدية فى صحة طيبة ، وان تكون فى جودة سابقاتها ، اذ تبدو لى - ان جاز ان أقول - أطرى لحما وأثقل وزنا منها ٠ على اننى سأمنحكما فى المرة القادمة ديكا ، من قبيل التغيير ، مالم تفضلا انأبعث اليكما ببعض السمك ٠ وأرجو ان تعيدا السلة ، مع السلتين السابقتين ٠ منيت بخسائر فى حظائرى الخاصة بالعربات ، اذ طار سقفها بين الأشجار ذات ليلة شديدة الريح ٠ كذلك لم يكن المحصول بالغ الجودة وأخيرا ، لا أدرى متى سآتى لزيارتكما ، فمن العسير الآن ان أبرح البيت ، اذ اننى وحيد يا ايماى المسكينة » ٠٠ وهنا بدت ثغرة بين السطور ، وكأنما أفلت الشيخ القلم من يده واستسلم للاحلام فترة ٠٠ قبل ان يواصل الكتابة : « أما أنا فبخير ، فيما عدا برد أصابنى منذ أيام فى مهرجان (ايفيتو) ، حيث ذهبت لأستأجر راعيا بعد ان طردت الراعى الذى كان فى خدمتى ، لشدة ولعه بالطعام الشهى ٠ ما أشقانا بمثل هؤلاء اللصوص ! ٠٠ ثم انه كان - فضلا عن هذا - غير أمين ٠٠ ولقد سمعت من بائع متجول - اضطر الى خلع احدى أسنانه أثناء مروره ببلدكم فى هذا الشتاء - ان « بوفارى » مجد فى عمله ٠ ولم يدهشنى هذا ٠ وقد أرانى السن أثناء تناولنا القهوة معا ٠ وسألته عما اذا كان قد رآك ، فقال انه لم يرك، ولكنه شاهد فى الحظيرة جوادين، فاستنتجتان العمل يسير على ما يرام ٠ فهنيئا

لكما يا ولدى ، وليرسل الله عليكما كل ما يمكن تصوره من هناء ! ٠٠ يؤسفنى ان لم أر حتى الآن حفيدتى الحبيبة « بيرت بوفارى » ٠ لقد غرست من أجلها فى الحديقة ـ تحت غرفتك ـ شجرة خوخ ، ولن أسمح بأن تمس الا اذا كان ذلك لاعداد المربى فيما بعد ، على ان أحتفظ بها فى الصوان من أجلها اذا ما جاءت ٠٠ وداعا يا ولدى العزيزين ، وانى لأقبلك يا ابنتى ، وانت يا زوج ابنتى ، وللصغيرة قبلة على كل خد ٠٠ مع أطيب تمنياتى : أبوكما المحب ، تيودور روو »

★ ★ ★

◇ ظلت « ايما » بضع دقائق ممسكة بالورقة الخشنة بين أصابعها ، وقد تشابكت فيها الاخطاء الهجائية ، وسرحت بالها وراء الفكرة الكريمة التى كانت تنقنق خلالها كما تنقنق دجاجة نصف مختفية فى دغل من النبات الشوكى ٠ لقد جفف أبوها المداد برماد من المدفأة ، اذ انساب من الرسالة على ثوبها بعض غبار رمادى ، فخيل اليها انها ترى الأب منحنيا على المدفأة ليتناول الملقط ٠٠ ما أطول الزمن الذى انقضى منذ كانت معه ، تجلس على مقعد منخفض فى الركن الذى تقوم فيه المدخنة ، حيث اعتادت ان تحرق طرف عصا من الخشب ، فى اللهب المتأجج المنبعث عن وقود من الخيزران البحرى !٠٠ وتذكرت أصائل الصيف حين كان ضياء الشمس يظل ساطعا ٠٠ وصغار الخيل تصهل اذا مر أحد عن قرب ، وتركض ركضا ٠٠ وكانت تحت نافذتها خلية للنحل يصطدم نحلها أحيانا بالنافذة وهو يلف فى النور ككرات ذهبية وثابة ٠٠ أية سعادة كانت تحظى بها اذ ذاك ٠٠ وأية حرية ، وأى أمل ! ٠٠ ما كان أوفر الأوهام العذبة اذ ذاك ! ٠٠ لم يبق منها الآن شىء ٠٠ لقد انفقتها جميعا فى مغامرات روحها ٠٠ فى كافة الظروف المتتابعة فى حياتها : فى بكورتها ، وزواجها ، وغرامها ٠٠ وهكذا ظلت تفقدها تباعا فى حياتها ، كمسافر يخلف وراءه جزءا من ثروته فى كل فندق على طول الطريق ٠٠ ولكن ، ما الذى أشقاها هكذا ، اذن ؟ ٠٠ ما هى الكارثة الخارقة التى غيرتها ؟٠٠ ورفعت رأسها ، متلفتة حولها ، وكأنها تبحث عن سبب هذا الشىء الذى جعلها تتألم !

وكان ثمة شعاع من شمس ابريل يتراقص على الرف القيشانى ، والنار تستعر ٠٠ وأحست بنعومة البساط تحت نعليها ٠٠ كان اليوم مشرقا ، والجو دافئا ٠٠ وسمعت طفلتها تضج بالضحك ٠٠ والواقع ان البنت كانت تتقلب اذ ذاك على العشب ، وسط الحشائش المجتثة ، ثم استلقت على بطنها فوق سطح حجر طاحون ، والخادم تمسكها متشبثة بذيل ثوبها ٠٠ وكان «ليستيبودوا » يشذب العشب بجوارهما ، وكلما اقترب من الصغيرة ، مالت نحوه ضاربة الهواء بذراعيها ٠٠ وقالت الأم : « احضريها الى » ، ثم اندفعت تقبلها مغمغمة : « كم أحبك يا طفلتى الصغيرة ! ٠٠ كم أحبك ! » ٠٠ ثم لاحظت ان طرف اذنيها متسخين ، فبادرت

تدق الجرس طالبة ماء دافئا ، ونظفت البنت ، وبدلت لها ثيابها ، وجوربيها ، وحذاءيها ، وسألت ألف مرة عن صحتها ، وكأنها عائدة من رحلة طويلة ، ثم أسلمتها أخيرا للخادم وهى تقبلها مرة أخرى ، باكية قليلا ، بينما كانت الخادم تقف مبهوتة لهذا الفيض من الحنان ٠٠

وفى ذلك المساء ، ألفاها «رودولف» أكثر جدا من المألوف ، فقال معلقا : « لن يلبث هذا أن ينقضى ٠٠ انها نزوة ! » ٠٠ ولم يوافها فى ثلاثة مواعيد متتابعة ، فلما جاءها ، أبدت فتورا وشبه اشمئزاز ، فقال : « آه ! ٠٠ انك تضيعين وقتك يا صغيرتى ! » ٠٠ وتظاهر بأنه لم ينتبه الى زفراتها الحزينة ، ولا الى المنديل الذى أخرجته ٠٠

اذ ذاك ثابت « ايما » ٠٠ بل انها ساءلت نفسها عما ينفرها من «شارل» ! ٠٠ أو لم يكن من الأحسن ان تستطيع ان تحبه ؟ ٠٠ بيد انه لم يتح لها الفرص لمثل هذه العودة العاطفية ٠٠ حتى لقد اشتدت حيرتها ازاء رغبتها فى التضحية ٠٠ وعند ذاك أقبل الصيدلى يزودها بفرصة ٠٠ فى الوقت الملائم !

الفصل الحادى عشر

◆ كان قد قرأ منذ عهد قريب رسالة عن طريقة حديثة لعلاج تشوه القدم ، واذ كان من دعاة التقدم، فقد راودته فكرة وطنية توحى بأنه لكى تصبح (ايونفيل) فى المقدمة ، ينبغى أن تجرى فيها بعض جراحات لتجميل الأقدام ٠٠ وقال لايما : « وفيم تجشم كل ذلك ؟ ٠٠ احكمى بنفسك (وأخذ يعد على أصابعه فوائد التجربة) النجاح شبه مؤكد : انقاذ المريض وتجميله ، شهرة سريعة يحرزها الجراح ٠ لم ــ مثلا ــ لا يعمل زوجك على انقاذ « هيبوليت » المسكين ، سائس

حظيرة « الأسد الذهبى » ، من عرجه ؟ .. لاحظى انه لن يتوانى عن انباء كل المسافرين بشفائه .. ثم (وخفض « هوميه » من صوته وتلفت حوله) من يمنعنى من ان ارسل نبذة قصيرة عن الموضوع الى الصحيفة ؟.. اه !.. يا الهى !.. ان الأمر لن يلبثان يناقش .. ويغدو محور الحديث.. سينتهىهذا الى ضجة تنتشر .. ومن يدرى ؟ .. من يدرى ؟ »

وفى الواقع ، كان فى وسع «بوفارى» أن ينجح ، فليس ثمة ما كان يؤكد لايما انه غير بارع .. ولكم يكون من بواعثرضاها وارتياحها ان تحثه علىاتخاذ خطوة تزيد من شهرته وثروته ؟ .. لم تكن تبغى أكثر من ان تستند الى شيء اقوى من الحب واصلب .. وما لبث « شارل » – تحت الحاحها والحاح الصيدلى – ان انساق ، فأرسل الى (روان) فى طلب كتاب الدكتور « ديفال » ، وأخذ ينكب على قراءته كل ليلة، معتمدا رأسهبينيديه . وفيما كانيدرس «الكاتاستريفوبودى» و « الاندوستريفوبودى » و « الاكسوستريفوبودى » – أو بالأحرى، أنواعانحناء القدم الى أسفل ، أو الى الداخل ، أو الى الخارج – مع « الهيبوستريفوبودى » و « الاناستريفوبودى » – أو بمعنى آخر الالتواء الى أسفل والى أعلى – كانالسيد «هوميه» يعمل بكل وسائل الجدل على اقناع الفتى الذى يعمل فى الفندق على قبول أن تجرى له جراحة التجميل .. « انك لن تكاد تحس بشىء .. وان أحسست فبالم بسيط.. انها مجرد شكة، كالفصد البسيط..أخفمنازالة بعضالبثور ! »

وكان « هيبوليت » يجيل عينيه المليئتين بالغباء ، مفكرا ، فيمضى الصيدلى قائلا : « على ان الأمر لا يهمنى .. انه من أجلك ، بدافع انسانى محض ! .. اننى أحب ان اراك يا صديقى وقد تخلصت من عرجك البشع ، مع ذلكالانحراف فى منطقتى العجز ، الذى يعرقلك ولا بد – مهما يقال – فى أداء مهنتك » .. ثم يصف له «هوميه» مدى ما سيشعر به فيما بعد من خفة فى الحركة ومن نشاط . بل ذهب الى ان افهمه انه سيصبح أبهى منظرا فيروق فى أعين النساء ! فشرع سائس الخيل فى الابتسام بتثاقل ، واذ ذاك راح الصيدلىيقنعه ، باستثارةغروره، قائلا : « أو لست رجلا ؟.. عجبا !.. ماذا كنت تراك فاعلا لو انك كنت ذاهبا الى الجيش .. ذاهبا الى الحرب تحت لواء الوطن ؟ .. آه ، يا هيبوليت ! » .. وانصرف « هوميه » معلنا انه لا يفهم هذا العناد والعمى اللذين يتجليان فى رفض نعمة من نعم العلم !

* * *

◆ وما لبث الفتى المسكين أن انصاع ، اذ كان الامر أشبه بالمؤامرة .. فان المحصل «بينيه» – الذى لم يكن قط يتدخل فى شئون الغير – ومدام «لوفرانسوا»، و «آرتيميز» ، والجيران ، بل والعمدة السيد «توفاش» .. كل انسان كان يغريه، ويلقى عليه المحاضرات ، ويعيب تردده .. على أن الذى أغراه أخيرا على البت ،

هو أن المحاولة لم تكن لتكلفه شيئا • بل ان «بوفارى» تعهد بأن يحضر الجهاز اللازم للجراحة •• وكان هذا السخاء من وحى « ايما » ، وقد انصاع له «شارل» وهو يرى فى قرارة نفسه أن زوجته ملاك ! •• ومن ثم ما لبث بارشاد الصيدلى ، وبعد ثلاث محاولات ، أن حصل على صندوق خاص صنعه النجار بمساعدة صانع الاقفال ، وكان يزن حوالى ثمانية أرطال ، ولم يبد أى تقتير فى تزويده بالحديد والخشب والحديد المسطح والجلد والمسامير البرغية و «الصواميل» ! •• على أنه لمعرفة أى العضلات ينبغى قطعها لدى « هيبوليت » ، كان من الضرورى التعرف أولا على نوع التواء قدمه •• كانت قدمه تكاد تمتد فى خط مستقيم مع ساقه ، وان لم يحل هذا دون ثنيها الى الداخل ، فكان نوعها بذلك يجمع بين الالتواء الى أسفل وقليل من الالتواء الى الداخل ، أو ـ من ناحية أخرى ـ التواء الى الداخل، مع ميل شديد للالتواء الى أسفل • ورغم هذا الالتواء الى أسفل ، الذى كان يحدث فراغا بين الساق والقدم يتسع لحافر جواد ، ورغم الجلد الخشن الغليظ ، والاعصاب الجافة المتيبسة ، وأصابع القدم الضخمة التى تحمل أظافر سوداء تبدو كما لو صنعت من حديد •• فان الاعرج كان يجرى فى خفة الغزال من الصباح حتى المساء • كان يشاهد باستمرار فى الميدان يقفز حول العربات ، وهو يطوح بقدمه العرجاء الى الامام •• بل كان يلوح أن هذه الساق ذات القدم الملتوية اقوى من أختها ، فقد أكسبها العمل الشاق صفات معنوية كالصبر والنشاط ، بحيث كان صاحبها اذا أقدم على عمل يثقل عليه ، وقف عليها دون أختها !

ولما كان الالتواء الى أسفل ، فقد بات من الضرورى قطع عصب «أشيل» ، على أن يترك أمر العصب الشظوى ـ أو المزمارى ـ الداخلى حتى يتبين فيما بعد ما اذا كانت الضرورة تدعو الى علاجه للتخلص من الالتواء الذى يثنى القدم الى الداخل ، أم لا (اذ لم يجرؤ الطبيب على الاقدام على جراحتين دفعة واحدة •• بل انه كان يرتجف فرقا من أن يؤذى بقعة هامة دون أن يدرى) • ولم يحدث لأمبروز باريه ، وهو يحاول لأول مرة منذ عصر « الكلت » ـ أى منذ حوالى خمسة عشر قرنا ـ أن يربط أحد الاوردة ، ولا لديبيتران ، حين هم بأن يشق خراجا فى المخ ، ولا لجنسول حين انتزع عظم الفك العلوى للمرة الأولى •• لم يحدث لأحد من هؤلاء أن ارتجف قلبه ، أو ارتعشت يداه ، أو اضطرب ذهنه ، كما كانت الحال مع السيد « بوفارى » حين شرع يعالج « هيبوليت » ، ممسكا بأعصاب قدمه بين أصابعه ••

وكما يشاهد فى المستشفيات ، وضعت على منضدة كبيرة كومة من «الشاش» ، والخيط المشمع ، وكثير من الضمادات ـ بل «هرم» من كل ما يوجد عند الصيدلى من أنواع الضمادات ! ـ وكان السيد « هوميه » هو الذى عنى منذ الصباح بتدبير كل هذه المعدات ، رغبة منه فى أن يبهر أنظار الشهود أكثر منه فى أن يهدىء

هواجسه ! •• وشق «شارل» الجلد ، فسمع له أزيز •• وقطع العصب ، وانتهت الجراحة ، ولم يقو «هيبوليت» على مغالبة دهشته ، ولكنه انحنى على يدى الطبيب يغمر يديه بقبلاته ، فقال الصيدلى : « كفى ، واهدأ ! •• سيتاح لك فيما بعد أن تظهر عرفانك بفضل الطبيب الذى أحسن اليك » •• ثم هبط ليزجى بالنتيجة الى خمسة أو ستة من المتسائلين الذين كانوا ينتظرون فى الفناء ، والذين كانوا يخالون أن « هيبوليت » لن يلبث أن يطلع عليهم وهو يسير فى خطى سليمة ! •• وما لبث « شارل » أن شد مريضه الى الجهاز المحرك الآلى ، ثم عاد الى داره ، حيث كانت « ايما » فى انتظاره لدى الباب ملهوفة ، فطوقت عنقه ، ثم جلس الى المائدة ، فأكل فى نهم •• وعند تناول الحلوى طلب قدحا من القهوة ـ وهو نوع من الترف لم يكن يتيحه لنفسه الا فى أيام الآحاد ، حين يكون لديهما ضيوف !

* * *

◆ وكان ذلك المساء بديعا،أفعمه الزوجان بالكلام والاحلام••تحدثا عن حظهما المقبل ، وعن التحسينات التى يدخلانها على دارهما •• واستعرض « شارل » فى مخيلته ما يرتقبه من تقدير ، ومن ازدياد الرخاء ، الى جانب حب زوجته المقيم •• وكانت هذه من ناحيتها هانئة اذ تنعم بعاطفة جديدة ، أسلم وأحسن مما كانت تنعم به من قبل ، واذ تحس ـ أخيرا ـ ببعض الحنان والعطف نحو هذا المسكين الذى كان يعبدها • ومرت ذكرى «رودولف» بذهنها للحظة واحدة ، ولكن عينيها تطلعتا الى «شارل» •• بل انها لاحظت ـ وهى مدهوشة ـ أنه لم يؤت أسنانا تالفة ، كما كانت تعتقد ! •• وكانا قد أويا الى فراشهما حين ولج السيد هوميه الغرفة مندفعا ، رغم أنف الخادم ، وقد أمسك فى يده ورقة تتضمن صورة من النبأ الذى كتبه لصحيفة « فانال دوروان » ، وقد حمله اليهما ليقرآه •• فقال « بوفارى » : « اقرأه بنفسك » •• فشرع يقرأ : « على الرغم من الأباطيل التى لا تزال ترين على شطر من وجه أوربا ، كالشبكة ، فان الضوء قد بدأ ينفذ من ريفنا •• فقد ألفت بلدتنا الصغيرة (ايونفيل) نفسها ـ يوم الثلاثاء ـ مسرحا لتجربة جراحية كانت فى الوقت ذاته من أسمى أمثلة الخير ، اذ قام السيد « بوفارى » ، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين ••• »

فقاطعه « شارل » بصوت مختنق من فرط تدافع المشاعر : « لا ! •• هذا أكثر مما أستحق ! •• هذا كثير جدا ! » •• بينما أجاب الصيدلى : « لا ، لا ! •• العفو ! •• اسمع » ـ مستطردا : « •• باجراء عملية جراحية لرجل أعرج » •• اننى لم أستخدم التعبير العلمى ، ففى الصحف ـ كما تعلمان ـ لا يفترض أن كل قارىء يفهم التعبيرات العلمية •• يجب أن يتاح للعامة •• » ، فقال « بوفارى » : « طبعا •• امض ! » ، فقال الصيدلى : « سأستأنف : قام السيد « بوفارى » ، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين ، باجراء عملية جراحية لرجل أعرج يدعى «هيبوليت

توتان» ، قضى معظم السنوات الخمس والعشرين الاخيرة سائسا فى فندق « الاسد الذهبى » ، الذى تديره الارملة « لوفرانسوا » فى ميدان الجيش ٠ ولقد اجتذبت طرافة التجربة ، وما أثاره الموضوع من اهتمام ، كثيرا من الناس ٠٠ حتى لقد كان الزحام شديدا عند مدخل الفندق ٠ وفضلا عن هذا فقد أجريت العملية فى براعة أشبه بالسحر ، فلم يكد يبدو على الجلد أكثر من قطرات قليلة من الدم ، وكأنما استسلم العصب المتمرد لجهود الفن أخيرا ٠ وكان من الغريب أن المريض لم يشك أى ألم ، وهو ما نؤكده اذ شهدناه بأعيننا ٠ ولاتدع حاله ـ حتى الآن ـ مجالا للرغبة فى مزيد ٠ ويدعو كل شىء الى الاعتقاد بأن فترة نقاهته ستكون قصيرة ٠ ومن يدرى ، فقد نرى فى عيدنا القروى القادم ، صديقنا « هيبوليت » منهمكا فى رقصة « الباشيك » بين فريق من الراقصين المرحين ، وبذلك يثبت للابصار جميعا ـ بتحمسه وقفزاته ـ شفاءه التام ! ٠٠ فلنمجـــد اذن العلماء الكرام ! ٠٠ لنكرم تلك النفوس التى لا تهن ، والتى كرست مواهبها لتحسين ، أو بالأحرى ، لترقية الجنس البشرى ! ٠٠ المجد لهم ٠٠ لنهتف ثلاثا لتمجيدهم ! ٠٠ أولا يدعو هذا لأن نصيح بأنه قد آن للاعمى أن يرى ، والأصم أن يسمع ، والاعرج أن يسير ؟ ٠٠ انما يحقق العلم الآن لكل الناس ما كان المتهوسون يعدونهم به من قبل،ولسوف نوافى قراءنا بالتطورات المتتابعة لهذا الاعرج الفذ !»

* * *

◆ لكن ذلك لم يمنع الأم «لوفرانسوا» من أن تأتى بعد خمسة أيام وهى تصيح فى فزع : « النجدة ! ٠٠ انه يموت ! ٠٠ لقد جن ! » ٠٠ واندفع « شارل » الى « الاسد الذهبى » ، وترك الصيدلى بدوره حانوته حين لمح الطبيب ينطلق فى الميدان بدون قبعة ، وهرع الى الفندق ، فوصل اليه لاهثا ، محمر الوجه ، شديد القلق ، فراح يسأل كل من كان يصعد السلم : « ماذا ؟٠٠ ماالذى جرى لأعرجنا الهمام ؟ » ٠٠ وكان الاعرج يتلوى فى تشنجات فظيعة ، حتى أن الآلة التى وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار فى عنف يوشك أن يحطمها ! وازيل الصندوق فى كثير من الحذر حتى لا تقلقل الساق عن وضعها ٠٠ فاذا بمنظـــر مؤلم يتجلى : كان شكل القدم قد تلاشى فى تورم جعل الجلد يلوح وشيك الانفجار، وقد كستها كدمات نشأت عن الجهاز الذى ذاع صيته ٠ وكان « هيبوليت » قد شكا من أنه يعانى منه آلاما ، غير أن أحدا لم يأبه له ٠٠ ولكن لم يعد بد من الاعتراف بأنه لم يكن على خطأ البتة ، ومن ثم حررت ساقه من الجهاز لبضع ساعات٠ولكن ما ان هبط التورمهونا ما ، حتى رأى العالمان ـالطبيب والصيدلىـ ان من الاصوب أن تعاد الساق الى الجهاز،وزادا من احكام الوثاق ليعجلا بالشفاء!

ولكن لم تنقض ثلاثة أيام ، حتى كان «هيبوليت» عاجزا عن المضى فى الاحتمال ، فرفعت الآلة ٠٠ ولكن ، شد ما كانت دهشة العالمين للنتيجة التى شاهداها :

كان التورم الازرق قد انتشر فى الساق ، تصحبه بقع متناثرة هنا وهناك ، تنضح بسائل أسود ! ٠٠ كانت الأمور قد تطورت تطورا خطيرا ، وبدأ « هيبوليت » ينزعج ، فاضطرت الأم « لوفرانسوا » الى نقله الى الغرفة الصغيرة القريبة من المطبخ ، ليتاح له بعض التسلية على الاقل ! ٠٠ غير أن محصل الضرائب ـ الذى كان يتناول عشاءه فى تلك الغرفة يوميا ـ شكا مر الشكوى من هذه الصحبة ! ومن ثم نقل « هيبوليت » الى قاعة « البلياردو » ، فظل راقدا هناك وهو يئن تحت أغطيته الثقيلة ، وقد شحب وجهه ، ونمت لحيته ، وغارت عيناه ، وراح من آن لآخر يدير رأسه المجلل بالعرق على الوسادة القذرة ، التى كان الذباب يتهافت عليها ! ٠٠ و زارته مدام « بوفارى » هناك ، حاملة له بعض «الشاش» لقروحه ، فواسته ، وشجعته ٠ ثم انه لم يكن الى جانب ذلك يفتقد الانيس ، لا سيما فى أيام السوق ، حين كان الفلاحون يقرعون كرات « البلياردو » حوله ، ممسكين بعصيها ، وهم يدخنون ، ويغنون ، ويصخبون ٠٠ وكانوا يسألونه وهم يدقون كتفه : « كيف حالك ؟ ٠٠ آه ! ٠٠ انك لم تتحسن كثيرا ، ولكنها غلطتك ! ٠٠ يجب أن تفعل هذا ! ٠٠ أو تفعل ذاك ! » ٠٠ ثم يروون له قصص أناس برئوا بعلاجات غير التى يعالج بها ٠ ويعقبون ، على سبيل النصح : « انك تستسلم للكسل أكثر مما ينبغى ! ٠٠ ألا قم ! ٠٠ انك تتدلل كما لو كنت ملكا ! ٠٠ آه ! ٠٠ ان رائحتك ليست بالطيبة على كل حال ، أيها المهرج ! »

★ ★ ★

◆ على أن العفن المتقيح ـ « الغنغرينة » ـ كان يزداد استشراء ، حتى بات « بوفارى » نفسه يشمئز منه ! ٠٠ وأخذ يذهب اليه فى كل ساعة ، وفى كل لحظة ، فيتطلع اليه « هيبوليت » بعينين زاخرتين بالذعر ، ويقول باكيا : « متى أشفى ؟ ٠٠ آه ، انقذنى ! ٠٠ ما أتعسنى ! ٠٠ ما أتعسنى ! » ٠٠ وكان الطبيب يفارقه فى كل مرة وهو يوصيه بأن يتبع نظام التغذية الذى عينه له ٠ ولكن الام « لوفرانسوا » كانت تقول له : « لا تستمع اليه يا ولدى ٠٠ ألم يشبعك تعذيبا ؟ لسوف تزداد ضعفا ، فهاك ٠٠ ابتلع هذه » ٠٠ ثم تقدم اليه حساء دسما ، وقطعة من لحم الفخذ ، وشقة من شحم الخنزير ، و ـ أحيانا ـ أقداحا صغيرة من « البراندى » ، لم يكن ليقوى على رفعها الى شفتيه !

واذ سمع الاب « بورنيسيان » بأن حاله تزداد سوءا ، طلب أن يراه ، وشرع يرثى لآلامه ، وينبئه ـ فى الوقت ذاته ـ بأنه خليق بأن يبتهج بها ، ما دامت هذه مشيئة الرب ، وأن ينتهز الفرصة ليحسن صلاته بالسماء ٠٠ ثم أضاف رجل الدين فى لهجة أبوية :« ذلك لأنك اهملت واجباتك بعض الشىء ، فقلما كنت ترى فى صلاة أو عبادة ٠كم من السنين انقضت دون أن تسعى الى المائدة المقدسة ! ٠٠ اننى أدرك أن أعمالك ، ودوامة الدنيا ، شغلتك عن أن تعنى بخلاص روحك ٠

أما الآن فقد حان وقت التأمل . ومع ذلك فلا تيأس ، فلقد عرفت أنا أناسا آثمين موغلين فى الذنب ، عمدوا حين أوشكوا أن يمثلوا أمام الله - وأنت لم تبلغ هذه الدرجة بعد كما أعرف - الى الابتهال فى طلب رحمته ، وماتوا وهم بالتأكيد فى خير حالات راحة البال ! .. فلنأمل أن تضرب لنا - كما فعلوا - المثل الطيبة. فما الذى يمنعك - من باب الاحتياط - أن تردد فى الصباح والمساء فصلا من « السلام عليك يا مريم يا كاملة الحسن » ، و « أبانا الذى فى السماء » ؟ .. أجل ، افعل ذلك من أجلى ، لترضينى .. لن يكلفك هذا شيئا ، فهل تعدنى ؟ »

ووعد الشيطان البائس . وأخذ القس يتردد عليه يوما بعد يوم ، فيجاذب ربة الفندق الحديث ، بل ويروى النوادر التى تتخللها الفكاهات والتوريات التى لم يكن « هيبوليت » يفقهها ! ثم كان لا يلبث أن يرتد الى أمور الدين بأسرع ما يستطيع ، مسبغا على وجهه المظهر الملائم .. وبدت هذه الهمة موفقة ، اذ مالبث الاعرج أن أظهر شوقا الى أن يحج الى (بون سيكور) اذا قدر له شفاء ، فأجاب السيد « بورنيسيان » بأنه لا يرى سبيلا للاعتراض على ذلك ، وان احتياطين - (يقصد الصلاة والحج) - خير من واحد ، ولا ضرر هناك من ذلك !

☆ ☆ ☆

◆ وكان الصيدلى يستنكر ما أسماه « مناورات » القس ! وزعم أنها تضر بنقاهة « هيبوليت » .. وأخذ يردد لمدام « لوفرانسوا » : « دعوه .. دعوه ! .. انكم تبلبلون معنوياته بروحانيتكم هذه ! » .. بيد أن المرأة الطيبة لم تعد راغبة فى الانصات له ، اذ اعتبرته « سبب كل شىء ! » . وبدافع من معارضتها له ، علقت الى جوار فراش المريض حوضا مليئا بالماء المقدس ، وغصنا من العوسج .. على أن الدين لم يبد أقدر من الجراحة على انقاذه ، وظلت « الغنغرينة » التى لا سبيل الى قهرها ، ماضية فى امتدادها من الاطراف حتى البطن . وكان تنويع الأدوية وتغيير الضمادات أمرا لا بأس به ، ولكن الاعصاب كانت تزداد تلفا فى كل يوم .. حتى لقد أجاب « شارل » أخيرا بهزة من رأسه تعنى القبول ، حين سألته الام لوفرانسوا عما اذا كان يرى - فى حالة القنوط - أن تستدعى لعيادة المريض السيد « كانيفيه » ، الذائع الصيت ، من (نيوشاتل)

ولم يتورع زميل « شارل » هذا الاخير - وكان طبيبا فى الخمسين من عمره ، يتمتع بمركز طيب ، وثقة بنفسه - عن أن يضحك فى ازدراء حين كشف عن الساق التى دب فيها التعفن المتقيح حتى الركبة ! .. ولم يكد يعلن فى صراحة ان لابد من بترها ، حتى انطلق الى حانوت الصيدلى ليعنف « الحمير » الذين هووا برجل تعس الى مثل هذه الحال ! .. وهناك أمسك بزر «الردنجوت» الذى كان السيد هوميه يرتديه ، وراح يهزه وهو يصيح فى الحانوت : « أهذه مخترعات باريس ! .. أهذه أفكار هؤلاء السادة المقيمين فى العاصمة ! .. انها كعلاج

« الحول » فى العين ، وكالكلوروفورم ، وكعملية تفتيت حصى المثانة ٠٠ طائفة من الفظاعات التى يجب على الحكومة أن تحرمها ! ولكنهم يريدون أن يظهروا براعتهم، فيحشون رؤوسكم بطرق العلاج دون أن يزعجوا أنفسهم بالتفكير فى عواقبها ٠ اننا لسنا فى براعتهم ٠٠ نحن بالذات ٠٠ لسنا متحذلقين ، ولا مزهوين ، وانما نحن أطباء معالجــون ، ولا يخطر بخيالنا أن نجرى جـراحة لأى امرىء مكتمل الصحة ٠ تقويم الأقدام المشوهة ؟! أفى الوسع اصلاح الاقدام الملتوية ؟ ٠٠ ان هذا اشبه بتقويم الظهر المحدودب مثلا ! » ٠٠ وكان « هوميه » يتالم وهو ينصت الى هذا الحديث، ويخفى استياءه تحت ابتسامة متملقة، اذ كان مضطرا الى مداهنة السيد «كانيفيه» الذى كانت وصفاته العلاجية تحمل أحيانا الى حيث تصرف من صيدليته فى (ايونفيل) ٠ ومن ثم لم يعمد الى الدفاع عن «بوفارى» ، بل انه لم ينطق بعبارة واحدة ، وانما نبذ مبادئه وضحى بكرامته فى سبيل مصلحة عمله ، التى تفوق المبادىء والكرامة فى أهميتها !

☆ ☆ ☆

◆ وكان حدثا هاما فى البلدة ، ان بترت فخذ « هيبوليت » على يدى الدكتور « كانيفيه » ٠ ففى ذلك اليوم استيقظ الاهالى جميعا مبكرين ، ومع أن الشارع الرئيسى ازدحم بالناس ، الا أن كآبة رانت عليه ، وكأن ثمة حكما بالاعدام يوشك أن ينفذ ! ٠٠ وكان القوم يتناقشون فى مرض « هيبوليت » لدى البدال ٠ ولم تبع المتاجر فى ذلك اليوم شيئا ، ولا تزحزحت مدام « توفاش » ـ زوجة العمدة ـ عن نافذتها ، فقد كانت ترقب وصول الجراح بصبر نافد ٠٠ حتى وصل فى عربته الخفيفة التى كان يقودها بنفسه ٠ غير أن لولب الجانب الايمن للعربة تداعى أخيرا تحت ثقل جسمه البدين ، فكانت العربة تميل قليلا وهى تدرج فى طريقها ٠ وكان يشاهد على الوسادة المجاورة له صندوق كبير مكسو بجلد أحمر ، وقد لمعت مقابضه النحاسية الثلاثة فى بهاء ٠ وما أن دخل الطبيب فناء « الاسد الذهبى » كالاعصار الجائح ، حتى صاح بصوت عال ، آمرا بتسريح جواده من العربة ، ثم ذهب الى الحظيرة ليرى ما اذا كان الجواد مقبلا على التهام الشوفان ! ـ اذ كان من عادته اذا بلغ دور مرضاه أن يشغل أولا بدابته وعربته ! ـ ومع ذلك فقد قال الناس : « آه ! يا للسيد « كانيفيه » من فذ ! » ٠٠ وزاده هــذا الهدوء الرصين اكبارا فى أعين القوم ، فما كان ليتخلى عن آنفه عاداته ، ولو فنى العالم من أعله الى آخر نسمة !

وتقدم « هوميه » ، فقال له الطبيب : « اننى أعول عليك ، فهل نحن عـلى استعداد ؟ ٠٠ هيا بنا ! » ٠٠ بيد ان وجه الصيدلى احتقن ، واعترف بأنه مرهف الحس لا يقوى على المساعدة فى عملية كهذه ، وقال : « ان رؤية المنظر تكون اشد تأثيرا على المرء اذا كان مجرد متفرج ٠ ثم اننى أوتيت جهازا عصبيا ٠٠٠ » فقطع

عليه « كانيفيه » الحديث قائلا : « آه ، مهلا ! ٠٠ انك ، على العكس ، تبدو لى عرضة للسكتة القلبية ! ثم ان هذا لا يدهشنى ، فأنتم – معشر الصيادلة – تترددون باستمرار على مطابخكم ، مما يؤدى ولا بد فى النهاية الى افساد بنيان اجسامكم ٠ ألا أنظر الى ! ٠٠ اننى استيقظ فى الرابعة من كل صباح ، فأحلق لحيتى بالماء البارد (ولم اصب قط ببرد !) ٠٠ ولست أرتدى قميصا داخليا (فانيلا) ، ومع ذلك لم أتعرض قط لنزلة من نزلات البرد ٠٠ وان هيكلى لقوى ! ٠٠ واعيش آنا على حال ، وآنا آخر على حال أخرى ، كالفيلسوف ، تبعا للظروف والمصادفات ٠ وهذا هو السر فى أننى لست ضعيفا مثلك ، وانى لأشرح أى انسان كما أشرح أول بطة برية تاتينى ٠ ستقول بعد هذا أن الامر يرجع الى التعود ! »

وبغير أن يحفلا بهيبوليت الذى كان يتصبب عرقا بين أغطية فراشه لفرط الالم ، اندمج الرجلان فى حديث راح الصيدلى يقارن فيه بين هدوء جاش الجراح ، وهدوء جاش القائد العسكرى ٠٠ وراقت هذه المقارنة لكانيفيه الذى مضى يتحدث عن مطالب فنه ٠ كان يعتبره مهمة قدسية ، وان كان الاطباء العاديون قد حطوا من قدرها ٠ وتحـول أخيرا الى المـريض ، وفحص الضمادات التى احضرها « هـوميه » – وهى عين الضمادات التى كان قد احضرها عند علاج التـواء القدم ! – ثم طلب شخصا يمسك له الساق ، فارسل فى طلب « ليستيبودوا » ، وما لبث السيد «كانيفيه» أن شمر عن ساعديه ، ثم انتقل الى قاعة «البلياردو» ، بينما بقى الصيدلى مع « آرتيميز » وصاحبة الفندق – اللتين صار وجهاهما أشد بياضا من لون مرولتيهما – وقد ارهف الجميع آذانهم نحو الباب ٠٠

★ ★ ★

◆ لم يجرؤ « بوفارى » فى تلك الفترة على مبارحة داره ، بل ظل فى قاعة الجلوس – بالطابق الأرضى – الى جوار المدفأة الخالية من اللهب ، وقد أسند ذقنه الى صدره ، وعقد ذراعيه ، وجمدت حدقتاه ٠٠ يا للكارثة ! ٠٠ وحاول أن يتذكر أى خطأ ربما بدر منه ٠٠ لقد اتخذ كل الاحتياطات الممكن تصورها ! ٠٠ غير ان القدر تدخل فى الامر ! ٠٠ ولكن ، ما قيمة هذا ؟ ٠٠ لو ان «هيبوليت» مات بعد ذلك ، لكان هو قاتله ! ٠٠ ثم ، اية حجة يستطيع ان يدلى بها اذا هو سئل عن الأمر فى جولاته ؟ ٠٠ وعاد يفكر فى انه ربما اخطأ فى شىء ما ! وراح ينقب دون أن يعثر على أى خطأ ٠ ومع ذلك ، فان أشهر الجراحين يخطئـون ٠ ولكن احدا لن يصدق هذا أبدا ، بل انه على العكس سيغدو أضحوكة ومضغة فى الافواه ! وستنتشر القصة الى (فورج) ٠٠ بل الى (نيوشاتل) ٠٠ ثم الى (روان) ٠٠ وكل مكان ! ٠٠ ومن يدرى ، ربما كتب بعض زملائه ضده ! فيثير ذلك جدالا يتطلب الرد فى الصحف ٠٠ بل ان فى وسع « هيبوليت » نفسه أن يقاضيه !٠٠ وتصور الطبيب نفسهوقد جرد من سمعته ،وحاق به الدمار ، وقضى

عليه ! وراح خياله يتخبط بين الافتراضات والاحتمالات التى تدفقت عليه ، كما لو كان برميلا فارغا القى فى البحر فأخذت الامواج تتقاذفه !

وكانت « ايما » تجلس أمامه ، ترقبه ٠٠ لم تشاطره ذلته ، فقد كانت تعانى ذلة أخرى ٠٠ ذلة انها تصورت ان مثل هذا الرجل جدير باى شىء ! ٠٠ وكانها لم تتبين تماما مدى قصور عقله عشرين مرة من قبل ! ٠٠ واخذ « شارل » يذرع الحجرة ، وحذاءاه يحدثان صريفا على الارض الخشبية المصقولة ، فقالت له : « الا اجلس ، فانك تثير أعصابى ! » ٠٠ وجلس ٠٠ وراحت تسائل نفسها : كيف سمحت لنفسها - وهى الشديدة الذكاء - بان تخدع مرة أخرى ؟ ٠٠ بل أى جنون محزن جعلها تدمر حياتها الى هذا الحد ، بالتضحيات المستمرة ؟ ٠٠ وتذكرت كل رغباتها الغريزية فى الترف ، وكل ألوان الحرمان الذى عانته نفسها ، وزواجها المزرى ، وحياتها المنزلية المتواضعة ، وتردى احلامها فى الوحل كما تتردى العصافير الجريحة ٠٠ وكل ما كانت تصبو اليه ، وكل ما حرمت نفسها منه ، وكل ما كان فى وسعها أن تناله ٠٠ لماذا ؟ ٠٠ لماذا ؟

وفى غمرة السكون الذى ران على القرية ، انبعثت فى الهواء صرخة تفتت الأكباد ، فشحب « بوفارى » وكاد يهوى مغشيا عليه ٠٠ بينما قطبت « ايما » فى حركة عصبية ، ثم عادت تستأنف أفكارها : كان ذلك كله من أجله ٠٠ من أجل هذا المخلوق ٠٠ من أجل هذا الرجل الذى لم يفهم شيئا ، ولم يشعر بشىء !٠٠ فها هوذا يجلس ساكنا ، دون أن يدور بخلده أن الزراية التى ستلحق باسمه ، ستلحق باسمها هى الاخرى من الآن فصاعدا ٠٠ لقد بذلت جهدا لتحمل نفسها على أن تحبه ، ولقد ذرفت الدموع ندما وتكفيرا عن استسلامها لسواه !

٭ ٭ ٭

◆ وهتف « بوفارى » فجاة ، وهو مستغرق فى افكاره : « ولكن ، لعله كان التواء الى الخارج ! » ٠٠ وارتجفت « ايما » للصدمة غير المرتقبة التى أحدثها سقوط هذه العبارة على فكرها وكانها رصاصة سقطت على صفحة فضية ! ٠٠ ورفعت رأسها لتستبين ما كان يعنيه بقوله ٠٠ ورمق كل منهما الآخر فى صمت ، وكأنه فى دهشة لوجوده ، اذ كانت أفكارهما قد نات بكل منهما عن الآخر ٠٠ وحملق فيها « شارل » - بتلك النظرة الزائغة التى تبدو فى عينى السكير - بينما كان يصغى دون حراك الى آخر صيحات المريض ، الذى كانت ساقه تبتر ، وقد تتابعت فى نغمات مستطيلة ، تتخللها صرخات تشنجية حادة ، وكأنها عواء ينبعث عن بعد من وحش يقتل ! ٠٠ وعضت « ايما » شفتها المتقعة ، وأخذت تقلب بين أصابعها قطعة من المرجان كانت قد كسرتها ، وهى تسلط على « شارل » مقلتيها الحادتين وكان سهمين من نار يوشكان أن ينطلقا منهما ! ٠٠

لقد أصبح كل ما فيه يثير أعصابها : وجهه ، ثوبه ، الكلام الذى لم ينطق به ٠٠ كل شخصه ، وكيانه ٠٠ وندمت على عفتها فى الماضى كما تندم على جريمة ، وتبدد ما كان قد تبقى من هذه العفة تحت ضربات كرامتها المهتاجة ٠٠ وابتهجت لكافة ما كان لفجورها المنتصر من سخريات شريرة ، خبيثة ٠٠ وعاودتها ذكرى عشيقها ، مع غوايات فيه بهرتها فارتمت فيها بكل روحها ، وتركتها تحملها الى ذلك الطيف فى تحمس متجدد ٠٠ وبدا لها « شارل » مقصيا عن حياتها ، وكأنه غائب الى الأبد ٠٠ وكأنه قد فنى ٠٠ أو كأنه موشك على الموت ، يحتضر تحت بصرها !

وتردد وقع خطى فى الطريق ، فأطل « شارل » ٠٠ ومن خصاص مصراعى النافذة رأى عند ناصية السوق ـ فى وضح ضياء الشمس ـ الدكتور «كانيفيه» يمسح جبينه بمنديله ، و « هوميه » خلفه يحمل صندوقا أحمر كبيرا ، وهما يسعيان الى دار الصيدلى ٠٠ واذ ذاك ، تحول « شارل » فى حنان واستخذاء طارئين ، قائلا لزوجته : « اواه ! ٠٠ قبلينى يا حبيبتى ! » ٠٠ فقالت وقد احتقن وجهها غضبا : «دعنى !» ٠٠ فتساءل مذهولا : «ماذا جرى ؟٠٠اسكتى !٠٠ تمالكى نفسك ! ٠٠ انك لتعرفين تماما اننى أحبك ، فهيا ! » ٠٠ وصاحت بلهجة قاسية : « كفى ! » ٠٠ واندفعت خارجة من الغرفة ، مغلقة الباب وراءها فى عنف جعل « البارومتر » يهوى من الجدار فيتهشم ! ٠٠ وعاد « شارل » يتهالك فى مقعده حائرا ، يحاول أن يستبين ما أصابها ٠ وخيل اليه انها اصيبت بمرض عصبى ، فأخذ يبكى ، وداخله شعور غامض بأن شيئا مشئوما ، لا سبيل الى ادراكه ، يجرى حوله ٠٠

وعندما جاء « رودولف » الى الحديقة فى ذلك المساء ، وجد عشيقته فى انتظاره عند أدنى درجات السلم السفلى ٠٠ فاحتضن كل منهما الآخر ، وانصهرت كل ضغينة ـ كأنها الجليد ـ تحت حرارة تلك القبلة !

الفصل الثانى عشر

◊ وعادا يتحابان من جديد ٠٠ وكثيرا ما كانت «ايما» تكتب اليه بغتة ـ ولو فى منتصف النهار ـ ثم تشير الى « جوستان » من وراء زجاج نافذتها فيخلع مرولته ، ويسرع راكضا بالرسالة الى (لاهوشيت) ٠٠ فلا يلبث « رودولف » أن يحضر ، ليجد انها ما أرسلت اليه الا لتنبئه بأنها ضجرة، وان زوجها بغيض، وان حياتها لا تطاق ! ٠٠ وصاح بها ذات يوم ، نافد الصبر :

«هل بوسعى أن أفعل شيئا ؟» ، فأجابته : « آه ، لو شئت ! » ٠ وكانت تجلس على الارض بين ركبتيه ، وقد تهدل شعرها ، وزاغ بصرها ٠٠ وسألها « رودولف » : « ماذا ، اذن ؟ » ، فتنهدت قائلة : « لنذهب فنعش بعيدا ٠٠ فى مكان ما » ٠٠ فقال ضاحكا : « انك لمجنونة حقا ! ٠٠ أوهذا ممكن ؟ » ٠ فعادت تردد قولها ٠٠ واذ ذاك تظاهر بأنه لا يفهم قصدها ، ثم غير مجرى الحديث ٠ كان الذى لم يفهمه هو هذا القلق بشأن مسألة بسيطة كالحب ! ٠٠ لقد كان لدى ايما باعث ، ومبرر ، و ـ فوق هذا ـ قوة دافعة وراء عاطفتها ٠ **والواقع ان هواها أخذ ينمو يوما بعد يوم ، بنمو نفورها من زوجها ٠٠ فكلما أسرفت فى منح نفسها للواحد ، اشتد مقتها للآخر ! ابدا لم يكن يبدو لها «شارل» فى مثل البشاعة ، ولا بمثل تلك الاصابع الغليظة الضخمة ، ولا فى هذه البلادة والمسلك السوقى ، كما كان يتراءى لها اذا ما اجتمعا بعد لقائها لرودولف !** ٠٠ كانت عندئذ تمثل دور الزوجة ودور العشيقة ، وتكتوى بنار اللوعة اذ تفكر فى ذلك الرأس الذى يتهدل شعره الأسود فى خصلة على جبين لفحته الشمس بالسمرة ـ رأس رودولف ـ وفى ذلك القوام الذى يجمع بين القوة والرشاقة ٠ ٠فى ذلك الرجل الذى

أوتى – فى ايجاز – كل تلك الحنكة فى تفكيره ، وكل تلك الوقدة فى شهواته ! ٠٠ من أجله شذبت أظافرها ودببتها بعناية ٠٠ ومن أجله لم تكن تضن على بشرتهـا بالدهان المرطب الـذى يكسبها نعومة ، ولا على مناديلها بالعطور ! وكانت تثقل نفسها بالأساور ، والخواتم ، والقلادات ٠ وعندما يكون قادما ، كانت تملأ آنيتى الزهر الزرقاوين الكبيرتين بالورود ، وتعد مخدعها ونفسها كما لو كانت محظية ترتقب أميرا !

وكانت تشغل الخادم بغسل الثياب وكيها باستمرار ، فلم تكن « فيليسيتيه » لتتحرك طيلة اليـوم من المطبخ ، حيث كان « جوستان » الصغير يؤنسها فى أكثر الأحيان ، ويراقبهـا فى عملها ٠٠ كان يعتمد بمرفقيه على الطـاولة التى تكوى الثياب عليها ، ويحـدق بنهم فى كل تلك الثياب النسـوية المتناثرة حوله ، من « جونلات » مزركشة ، ومناديل منقوشة ، وياقات ، وسراويل ذات أربطـة ، تتسع عند الردفين وتضيق فيمـا أسفلهما ٠٠ وكان الفتى يمر بيـده على البطانة ، أو عـلى المشابك المثبتة ، ويتساءل : «لم هذا ؟» ٠٠ فتجيبه «فيليستيه» ضاحكة : « عجبا ، أولم تره من قبل ؟ ٠٠ كأنى بعشـيقتك – مدام هوميه – لا ترتدى مثله ؟ » ٠٠ فكان يقول : « آه ! ٠٠ أجل ٠٠ مدام هوميه ! » ، ثم يردف وهو مستغرق فى التفكير : « أفترينها سيدة كسيدتك ؟ » ٠٠ على أن « فيليسيتيه » كانت لا تلبث أن تضيق برؤيته يحوم حولها ٠٠ كانت تكبره بست سنوات ، وكان « تيودور » – خادم السيد « جيومان » – قـد بدأ يغازلها ، فكانت تقول وهى تنقل وعاء النشاء الذى تستخدمه فى الكى : « دعنى وشأنى ! ٠٠ اذهب فاصحن اللوز ٠٠ انك تحوم دائما حول النساء ٠٠ الا انتظر أيهـا الولد الخبيث حتى ينبت الشـعر فى ذقنك قبل أن تقحم نفسك فى مثل هـذه الأمور ! »

ـ على رسلك ، لا تغضبى ! ٠٠ سأذهب وأنظف حذاءى سيدتك بدلا منك

ويبادر فيتناول حذاءى « ايما » من على الرف ، وقد كساهما الوحل ـ من المقابلات الليلية فى الحديقة ! ـ الوحل الذى كان يتفتت تحت أصابعه ، فيرقبه وهو يتطاير فى رفق فى شعاع الشمس ٠٠ وكانت الخادم تقول : « لكم تخشى أن تتلفهما ! » ـ فما كانت هى تعمد الى مثل حرصه اذا نظفتهما بنفسها ، لأن السيدة كانت ما تكاد تجد جلد حذاءيها قد فقد ليونته ، حتى تمنحها اياهما ! وكانت « ايما » تملك عددا من الأحذية فى صوانها ، تهبها منها الواحد بعد الآخر ،دون أن يسمح «شارل» لنفسه بأن يلاحظ شيئا ! بل انه تبرع ـ بايحائها ـ بثلاثمائة فرنك ثمنا لساق خشبية رأت أنها تليق بأن تقدم هدية الى « هيبوليت » ، وكانت قمتها مكسوة بالفلين ، ولها مفاصل لولبية ، وجهاز معقد ، يغطيها سروال أسود ، ينتهى بحذاء لامع ٠ على أن « هيبوليت » لم يجرؤ على أن يستعمل ساقا أنيقة كهذه فى كل يوم ، فالتمس من مدام « بوفارى » أن تحضر له ساقا أخرى أكثر مناسبة لحاله ، فكان على الطبيب أن يتبرع ـ مرة أخرى ، بالطبع ـ بنفقات هذه الساق !

★ ★ ★

◆ وهكذا اخذ السائس يعاود عمله شيئا فشيئا ، فكان يشاهد وهو يهرع فى أرجاء القرية كعهده فيما مضى ٠ وكان « شارل » اذا سمع دقات الساق الخشبية الحادة عن بعد ، بادر الى تغيير الاتجاه الذى يسير فيه ! وكان السيد «لوريه» ـ التاجر ـ هو الذى تكفل باستحضار الساق، فاتاح له هذا حجة لزيارة « ايما » ٠ وصار يثرثر معها عن السلع الجديدة التى تسلمها من باريس ، وعن الف طرفة وطرفة من الطرائف النسوية ، متلطفا كل التلطف ، متحاشيا ابدا طلب نقوده ٠ وانصاعت « ايما » لهذه الطريقة السهلة لاشباع كل اهوائها ، ومن ثم رغبت فى سوط بديع جدا كان معروضا لدى صانع مظلات فى (روان) ، لتقدمه هدية الى « رودولف » ، فحمله السيد « لوريه » الى منضدتها فى الاسبوع التالى ٠ على انه زارها في غداة ذلك اليوم ، ومعه كشف حساب بمائتين وسبعين

فرنكا ، عدا السنتيمات ! وذهلت « ايما » ، فقد كانت كل أدراج المكتب خالية من النقود ، وكانا مدينين لليستيبودوا باجر فترة تزيد على خمسة عشر يوما ، وباجر ستة شهور للخادم ، وبعدة ديون أخرى • وكان « بوفارى » يرتقب بنافد الصبر قبض حساب السيد « ديروزيراى » ، الذى كان من عادته ان يدفع حسابه حوالى عيد « سان بيير » ، اى فى منتصف الصيف •

ونجحت « ايما » - فى البداية - فى استمهال « لوريه » • ولكنه فقد صبره فى النهاية ، اذ كان دائنوه بدورهم يطالبـونه بمالهم ، وكان راس ماله قد تبدد ، فكان مضطرا الى ان يسترد كل ما تلقته منه « ايما » من سلع ، ما لم يتسلم بعض حسابه ! فقالت له : « حسنا ••اذن خذها ! » •• اجاب : « اواه ! •• انما كنت امزح •• ان الشىء الوحيد الذى آسف عليه هو السوط • لعمرى ، ساطلب الى السيد أن يرده لى » •• فهتفت فى جزع : « لا ! •• لا ! » •• وقال « لوريه » لنفسه : « آه ! •• ها قد امسـكت بها ! » •• واذ اطمان الى ما اكتشف ، راح يردد لنفسه فى صوت خفيض ، وهو يرسل صـفيره الخـافت المعهود : « حسنا ! •• لسوف نرى ! •• لسوف نرى ! » •• وفيما كانت تفكر فى مخرج - بعد انصرافه - اقبلت الخادم ، فوضعت على رف المدفاة حزمة صغيرة مغلفة بالورق الازرق ، من لدن السيد « ديروزيراى » • وانقضت عليها « ايما » تفضها ، فاذا بها خمس عشرة قطعة ذهبية من الجنيهات النابوليونية ، هى قيمة حسابه • وسمعت « شارل » يصعد السلم ، فالقت بالقطع الذهبية فى جوف درجها ، واحتفظت بالمفتاح !

وعاد « لوريه » بعد ثلاثة ايام ، يقول : « لدى تدبير اقترحه عليك : فلو انك اخذت ، بدلا من المبلغ المتفق عليه •• » • فبادرت تضع فى يده اربـع عشرة قطعة نابوليونية ذهبية ، وهى تقول : « هاك ! » •• وذهل التاجر ! ولكى يخفى استياءه ، طفق يهيل الاعذار ، ويعرض خدماته ، و « ايما » ترفض على طول الخط •• ثم مكثت بضع دقائق تتحسس باصابعها فى جيب مرولتهـا قطعتى النقود - فئة الفرنكات الخمسة - اللتين اعطاها اياهما التاجر بعد ان استوفى ما كان له • وعاهدت نفسها أن تدخر مااستطاعت ، لتعيد المبلغ فيما بعد الى زوجها ، وهى تقول لنفسها : « آه ! •• انه لن يفكر فى هذا ثانية ! »

★ ★ ★

◆ الى جانب السوط ذى اليد الفضية ، تلقى « رودولف » من « ايما » خاتما نقش عليه : « قلب عاشق » ، فضلا عن ملفحة - « كوفية » - واخيرا ، علبة للسيجار تشبه تماما علبة « الفيكونت » التى كان « شارل » قد عثر عليها فى الطريق فيما مضى فاحتفظت بها « ايما » • على ان هذه الهدايا كانت تشعره بخسة ، فرفض كثيرا منها ، ولكن « ايما » كانت تلح ، فينتهى به الامر الى

الانصياع لها ، وهو يحس بانها جائرة ، شديدة العناد .. ثم اخذت تساورها افكار غريبة ، فكانت تقول له : « اذا دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فعليك ان تفكر فى ! » ، فاذا اعترف بانه لم يفكر فيها ، تدفق العتاب بسخاء، ثم ينتهى دائما بالكلمة الخالدة : « اتحبنى ؟ » ، فيجيب : « عجبا .. بالطبع احبك »

ـ كثيرا ؟ ـ بالتاكيد ! ـ اولم تحب سواى ؟

فكان يهتف ضاحكا : « او تظنين انك اخذتنى بكرا ؟ » .. وكانت « ايما » تبكى ، فيسعى الى تهدئتها ، مرصعا احتجاجاته بالفكاهات ! .. فتقول : « اواه ! .. اننى احبك ! .. احبك حتى اننى لا اقوى على العيش بدونك ، فهل تدرك هذا ؟ .. اننى لأتوق احيانا الى ان اراك ثانية ، فتمزقنى سورة الهوى .. واسائل نفسى : « ترى اين هو ؟ .. لعله يتحدث الى نساء اخريات .. يبتسمن له ، فيقترب منهن .. » اواه ! .. لا ، ما من امراة سواى تروق لك ، اليس كذلك ؟ .. هناك من يفقننى جمالا ، ولكنى اكثرهن حبا .. اننى الأفضل هوى .. انا جاريتك ، محظيتك ! .. انت مليكى ، ومعبودى ! .. انت طيب ! .. انت جميل ! .. انت ذكى ! .. انت قوى ! »

كم من مرات سمع فيها هذه العبارات تقال ، حتى لم يعد يرى فيها طرافة ، فاخذت تفقد رواءها شيئا فشيئا ، كغلالة انزاحت عن الشهوة فاظهرتها عارية فى استرسالها الابدى الرتيب ، فاذا هى هى ، مهما تباين شكل الغلالة ، وبالتالى، مهما تباينت اللغة والعبارات ! .. لم يكن ذلك الرجل الكثير التجارب ليميز ان العاطفة تختلف وان تشابه المظهر . فهو لكثرة ما سمع هذه العبارات تغمغم بها شفاه العاهرات وبائعات الهوى ، لم يؤمن كثيرا باخلاص « ايما » .. كان يرى ان على المرء ان لا يحفل بالعبارات الدافقة التى تنطوى على عواطف معتدلة .. كانما امتلاء النفس لا يفيض احيانا خلال التعبيرات الخالية من الرواء والتنميق ، اذ ليس فى وسع الانسان ان يحدد بالدقة التامة مقدار حاجاته ، او آرائه ، او احزانه .. وما الكلام البشرى الا كالاناء المعدنى المصدوع ، الذى ندق عليه الألحان لترقص الدببة ، بينما نحن نصبو الى ان نهز النجوم !

على ان « رودولف » ، بما اوتى من خبرة ناقدة لا تتاح لغير الشخص الذى لا يحفل بدوام العلاقات ويحجم عن التعلق بالروابط ، لمح فى هذا الغرام مباهج جديدة راق له ان يتعرفها ، فاستهان بكل حياء اعترضه ، وراح يعامل « ايما » وفق هواه ، حتى جعل منها شيئا مبتذلا ، مفسودا ! .. اما هى ، فكان تعلقها به نزقا ، مفعما بالاعجاب به ، وباللذة الفاجرة لها .. كانت السعادة قد بهرتها وخدرت عقلها ، فغاصت روحها فى خمر لذتها ، وانكمشت ، ثم غرقت كما غرق « دوق كلارنس » فى دن نبيذه الحلو ! .. ومن ثم تغيرت اخلاق «مدام بوفارى»

بتاثير العادات التى اكتسبتها من غرامها هذا وحده ، فاذا نظراتها تزداد جرأة ، وحديثها يزداد تحررا ، بل لقد اقدمت على مسلك مستهجن ، اذ تعودت أن تسير مع السيد « رودولف » ، وبين شفتيها سيجارة ، كما لو كانت « تتحدى العالم » ! .. واخيرا ، لم يعد الذين ظلوا فى ريب يرتابون ، اذ رؤيت يوما تهبط من « العصفورة » - عربة البريد - وقد ضم خصرها صديرى كصدارى الرجال !

ولم تكن حماتها - مدام بوفارى الأم - التى لجأت الى بيت ابنها بعد شجار محتدم مع زوجها ، باقل النسوة المحتشمات استنكارا لمسلك زوجة ابنها ! .. وكانت ثمة اشياء كثيرة لم ترقها ، اولها ان ابنها لم ياخذ بنصحها ويحرم على زوجته قراءة الروايات .. كما ان سير الامور فى البيت لم يرضها .. ولقد سمحت لنفسها بابداء بعض ملاحظات قوبلت بغضب ، لا سيما حين مست احدى ملاحظاتها « فيليسيتيه » ! .. فقد حدث فى الليلة السابقة على ذلك ، ان كانت مدام بوفارى الأم تمر فى الردهة ، واذا بها تفاجىء الخادمة مع رجل ! كان رجلا ذا ياقة بنية ، فى حوالى الاربعين من عمره ، ما ان سمع خطواتها حتى فر عن طريق المطبخ . عند ذاك اخذت « ايما » تضحك ، ولكن المرأة الفاضلة ازدادت

حنقا ، وقالت ان على المرء أن يراقب اخلاق خدمه ، فليست الاخلاق باضحوكة .. فتساءلت زوجة الابن : « فى اى دنيا نشأت ؟ » ، وكانت نظراتها من السلاطة والقحة بحيث دفعت مدام بوفارى الى ان تسألها عما اذا كانت بذلك تدافع عن حالتها الخاصة ؟ .. فوثبت الشابة من مكانها صارخة : «اخرجى !» .. وصاح « شارل » محاولا أن يهدىء الموقف : « ايما ! .. ايما ! » .. ولكن كلا من المرأتين كانت قد جمحت فى غضبها ، فراحت « ايما » تدق الارض

بقدميها مرددة : « آه ! •• يا للأخلاق ! •• يا لها من فلاحة ! » •• وهرع الى امه ، فاذا بها قد فقدت زمام عواطفها ، وراحت تقول متلعثمة : « انها وقحة •• طائشة •• بل لعلها اسوأ من هذا ! » •• وعولت على الرحيل فورا ، ما لم تعتذر اليها الأخرى • وعاد « شارل » الى زوجته ، واخذ يتوسل اليها ان تتساهل ، وركع امامها ، فقالت فى النهاية : « حسنا ! ساذهب اليها » • وفعلا بسطت يدها لحماتها ، فى كبرياء المركيزات ، وقالت لها : «سامحينى يا مدام» •• حتى اذا صعدت الى غرفتها ، انكفأت على سريرها ، واخذت تبكى كالطفلة ، وقد دفنت وجهها فى الوسادة !

وكانت قد اتفقت مع « رودولف » على ان تربط الى مصراع النافذة ـ اذا كان ثمة حادث غير عادى ـ قطعة صغيرة من الورق الابيض ، حتى اذا صادف ان كان فى (ايونفيل) ومر امام الدار ، سارع الى موافاتها فى الحارة الواقعة خلف الدار • وقد علقت الاشارة فى هذه المرة ، وانتظرت حوالى ثلاثة ارباع الساعة، ثم راته عند ناصية دار البلدية ، فهمت بان تفتح النافذة وتناديه ، ولكنه اختفى فى التو ، فتهالكت فى قنوط • بيد انها سرعان ما خالت ان ثمة من يسير تحت النافذة •• لابد انه هو •• وهبطت السلم ، وعبرت الفناء ، فاذا به فى الخارج •• والقت بنفسها فى احضانه ، فقال : « حذار ! » ، ولكنها قالت : « آه ، لو علمت ما جرى ! » •• وشرعت تروى له كل شىء فى عجلة ، وعبارات مفككة ، مبالغة فى تصوير الحقائق ، مفترية ومختلقة الكثير مما لم يحدث ، مسرفة فى العبارات الاعتراضية ، حتى انه لم يفقه شيئا ! •• وقال لها فى النهاية :

ـ صبرا يا ملاكى المسكين •• تجلدى ! •• اهدئى ! •• صبرا !

ـ ولكنى صبرت اربع سنوات ، وانا اتعذب •• ان حبا مثل حبنا خليق بان يعلن حتى عنان السماء ! •• لقد عذبونى ! •• لم اعد احتمل ! •• انقذنى !

وتشبثت برودولف ، وعيناها المليئتان بالدموع تلمعان كلهب تحت موج ، وصدرها يتهدج فى حركات سريعة •• واذ ذاك احس انه لم يحبها يوما كما احبها ساعتئذ ، ففقد تعقله ، وقال : « وما الذى ينبغى عمله ؟•• ماذا تريدين؟» فصاحت : « انقلنى بعيدا !•• احملنى بعيدا !•• آه ، اتوسل اليك ! »••وارتمت على فمه ، وكأنها تريد ان تتلقف منه الموافقة غير المرتقبة ، اذا نفثها فى قبلة •• فقال لها : « ولكن •• »

ـ لكن ماذا ؟ ـ وابنتك ؟

وفكرت لحظات ، ثم اجابت : « سناخذها معنا ، لا مفر ! » •• فقال لنفسه وهو يراها تهرع مبتعدة نحو الحديقة، بعد ان سمعت نداء : « يا لها من امراة ! »

★ ★ ★

◆ كادت « الام بوفارى » ان تذهل فى الأيام التالية ، للتغير الذى طرأ على

زوجة ابنها . فالواقع ان « ايما » اخذت تبدى لها مزيدا من اللطف ، بل ومضت فى التقرب اليها الى درجة ان سالتها ان تصف لها طريقة لتمليح الخيار !.. افتراها استحسنت ان تخدع الام وابنها ؟ .. ام انها - فى نوبة فلسفية من وحى فجورها - شاءت ان تدع مرارة الاشياء التى كانت توشك ان تهجرها ، تزداد تغلغلا فى نفسها ؟ .. بيد انها لم تعمد الى الحذر ، وانما راحت - على العكس - تعيش وكانها تائهة فى طلائع بهجة سعادتها المقبلة ! .. ولم تكن تكف عن الحديث فى الموضوع الى « رودولف » ، فكانت تميل على كتفه متمتمة : « آه ! .. متى نكون فى عربة البريد ! .. اتفكر فى هذا ؟ .. اهو ممكن ؟.. اخالنا سنكون - فى اللحظة التى احس فيها بالعربة تتحرك - وكاننا فى منطاد يرقى بنا، كما لو كنا راحلين صوب السحاب.. افتعرف انني اعد الأيام؟..وانت؟»

ابدا لم تكن مدام « بوفارى » فى مثل ما بدت فيه من جمال فى تلك الفترة، اذ اوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم ، الذى ياتى نتيجة الفرح ، والتحمس ، والظفر .. والذى لا ينشا الا عن انسجام المزاج مع الظروف . كانت شهواتها، وشجونها ، وتذوقها للذة، واوهامها الدائمة الصبا ، اشبه بالتربة والمطر والريح والشمس اذ تنمى الزهور .. وهكذا اخذت « ايما » تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تفعم به طبيعتها . كانت اجفانها تلوح وكانها صيغت خصيصا لتتمشى مع نظراتها العاشقة الطويلة ، التى كان انسان العين يغيب خلالها ، بينما تنبعث انفاسها قوية تتفتح لها طاقتا انفها الرقيقتان ، وترتفع حافة شفتها المكتنزة التى يحجبها عن الضوء زغب اسود دقيق .. كان المرء خليقا بان يخال ان فنانا خبيرا بالفساد قد نسق خصلات شعرها على عنقها ، فكانت تتهدل غزيرة ، فى اهمال ، تتباين اشكالها بتباين ظروف الغواية التى كانت لا تنفك تتبدل فى كل يوم .. وازداد صوتها ليونة وتثنيا ، وكذلك قوامها .. كان ثمة شىء من الدهاء - الذى ينفذ الى اعماقك - ينبعث حتى من ثنايا ثوبها ، وانعطافات قدمها !

* * *

◆ والفاها « شارل » شهية ، فتانة ، كما كان العهد بها فى الايام الاولى لزواجهما ! .. لكنه كان لا يجرؤ على ايقاظها اذا عاد فى منتصف الليل .وكان مصباح الليل الخزفى يلقى على السقف دائرة من ضوء مرتعش ، والستائر المسدلة على مهد الطفلة تبدو على هذا الضوء ككوخ ابيض يقوم فى الظلام عند حافة السرير . وكان « شارل » يتامل كل هذا ، فيخيل اليه انه يسمع الانفاس الخفيفة المنبعثة من الطفلة ، ويروح يتصور ابنته وهى تنمو بسرعة ، مع كل فصل ،ثم يتمثلها مقبلة من المدرسة فى نهاية النهار ، ضاحكة ، وبقع المداد على زيها المدرسى ، وقد حملت حقيبتها تحت ابطها . ثم يرى ان الاوان قد آن لتلحق

بالمدرسة الداخلية ، ولسوف يتطلب هذا نفقات كثيرة ، فما العمل ؟ .. خطر له ان يستاجر مزرعة صغيرة فى الريف المجاور ، يستطيع ان يرعاها بنفسه فى كل صباح وهو ينطلق لعيادة مرضاه .. ثم يدخر دخلها ، ويودعه صندوق الادخار ، ثم يشترى اسهما ما ، فى اية مؤسسة ، فضلا عن ان عملاءه سيزدادون .. وكان يعول على هذا ، لانه كان راغبا فى ان تحظى « بيرت » بخير تنشئة ، وان تكتسب مواهب ، وان تتعلم العزف على البيانو . آه ! .. لكم ستكون جميلة فيما بعد ، حين تبلغ الخامسة عشرة ، وتشبه أمها ، وترتدى مثلها قبعة واسعة من الخوص فى الصيف !.. لسوف تبدوان ــ عن بعد ــ كما لو كانتا شقيقتين. وكان يتصورها فى الأمسيات وهى تطرز الى جوار والدتها على ضوء المصباح.. لسوف توشى بشغل الابرة خفيها (الشبشب) .. وستشغل بشئون المنزل ، وستملأ البيت سحرا وطربا .. ثم يفكران ــ فى النهاية ــ فى زواجها ، واذ ذاك سيبحثان لها عن فتى طيب ، عزيز المركز ، يسعدها .. لتظل هكذا دائما !

وبينما كان بوفارى يستسلم للنعاس ، لم تكن « ايما » تنام ، بل كانت تتصنع النوم ، وتصحو لأحلام اخرى .. فاذا اربعة جياد تحملها راكضة بهـا نحو بلاد جديدة ، لا عودة منها !.. وهناك تمضى مع «رودولف» ، وقد اشتبكت ذراعاهما ، وسارا لا ينبسان بكلمة .. ثم يلمحان فجاة من قمة جبل ــ احيانا ــ مدينة رائعة ذات قباب ، وجسور ، وسفن ، وغابات تنبت الموالح ،وكاتدرائيات من الرخام الأبيض ، تحمل أبراجها المدببة اعشاش الطيور .. ويمضى السائر فيها بخطى منتظمة على الأرض المرصوفة ببلاط كبير ، وقد تناثرت باقات الورد التى تقدمها اليك نساء يرتدين صدارى حمراء . ويسمع العاشقان رنين الأجراس، ونهيق البغال ، مع دمدمة «الجيتار» ووسوسة مياه النافورات التى تنعش برذاذها العالى أكواما من الفاكهة نسقت على شكل اهرامات ، تحت تماثيل باهتة تبتسم تحت عيون الماء ! .. ثم يفدان ذات ليلة على قرية من قرى صائدى السمك ، حيث تنتشر الشباك البنية لتجف فى الهواء على السفوح أمام الأكواخ .. وهناك يكفان عن الترحال ليستقرا ، فيقيمان فى بيت منخفض ذى سقف مسطح مستو، تظله نخلة ، فى طرف خليج بجانب البحر .. هناك يخرجان للنزهة فى جندول، ويتارجحان فى مضاجع معلقة بين الأشجار ، ويغدو عيشهما سهلا ، فضفاضا كثيابهما الحريرية ، الدافئة ، المزركشة بالنجوم كتلك الليالى الناعمـــة التى يهنآن بتأملها .. ولكن، فى هذا المستقبل الهائل الذى كانت تتصوره « ايما » ، لم يكن ليحدث شىء ذو بال .. كانت الأيام كلها رائعة ، تتوالى متشابهـــة كالأمواج ، وتترنح عند الافق اللانهائى ، البهيج ، الصافى الزرقة ، الغارق فى ضياء الشمس ..

☆ ☆ ☆

◆ على ان الطفلة كانت لاتلبث ان تسعل فى مهدها ، او يشتد غطيط «بوفارى» ارتفاعا .. اما « ايما » فلا تنام الا فى الصباح، حين يبدو بياض الفجر خلال زجاج النافذة ، وحين يشرع الفتى «جوستان» فى ازاحة مصاريع الصيدلية ..

وذات يوم ، استدعت السيد « لوريه » وقالت له : « اننى بحاجة الى معطف .. معطف واسع ، ذى ياقة عالية ، مزدوجة » .. فسالها : « امسافرة انت فى رحلة ؟ » .. فقالت : « لا ! .. ولكن .. هذا لا يهم .. ساعتمد عليك ، اليس كذلك ؟ .. فعجل ! » .. وانحنى موافقا ، بينما استطردت هى قائلة : « كذلك ساكون بحاجة الى حقيبة .. ليست من النوع الثقيل ، بل سهلة الحمل »

ـ اجل ، اجل .. فهمت .. حوالى اثنين وتسعين سنتيمترا ، فى خمسين .. من ذلك النوع الذى يصنعونه فى هذه الأيام ..

ـ وحقيبة كبيرة للسفر ..

فقال « لوريه » لنفسه : « لا بد ان ثمة شقاقا هنا ، بالتاكيد ! » .. بينما استطردت مدام بوفارى وهى تتناول ساعتها من حزامها : « وخذ هذه . تستطيع ان تتقاضى من ثمنها حسابك » .. ولكن التاجر صاح بانها كانت على خطا ، فان كلا منهما يعرف الآخر جيدا ، فهل تراه ارتاب بصددها فى شىء ؟ .. اذن، فما هذا التصرف الصبيانى ! .. بيد انها اصرت على ان ياخذ ولو السلسلة على الأقل . وكان « لوريه » قد دسها فى جيبه فعلا ، وتاهب للخروج ، حين نادته قائلة وعليها امارات التفكير : « سيكون عليك ان تبقى كل هذه الأشياء عندك .. اما المعطف ، فلا تحضره هو الآخر ، بل تستطيع ان تعطينى عنوان الصانع ، وان تطلب اليه ان يعده ويحتفظ به رهن الطلب .. »

.. وكان الشهر التالى هو موعدهما للفرار ، فكان على « ايما » ان تبرح (ايونفيل) وكانها ذاهبة لبعض الشئون فى (روان) .. ويكون « رودولف » قد حجز لهما مكانين ، واعد جوازى السفر ، بل وكتب الى باريس ليحجز عربة البريد باسرها لهما حتى (مرسيليا) ، حيث يبتاعان عربة ، ويمضيان من هناك دون توقف الى (جنوا) . اما هى فستعنى بارسال متاعها الى « لوريه » ، لينقل من هناك مباشرة الى « العصفورة » ، حتى لا يحدس احد من الامر شيئا . ولم يرد ذكر للطفلة فى كل هذا قط ، اذ كان « رودولف » يتفادى الحديث عنها، ولعله لم يعد يفكر فى امرها .. وما لبث ان رغب فى امهاله اسبوعين ليدبر بعض شئونه ، وفى نهاية الاسبوع الأول طلب خمسة عشر يوما اخرى ، ثم قال انه مريض ، وقام بعد ذلك برحلة .. وانقضى شهر اغسطس .. وبعد كل هذا الارجاء ، قررا ان يحددا اليوم الرابع من سبتمبر ، موعدا لا يعدلان عنه .. وكان يوم اثنين

⋆ ⋆ ⋆

◆ وحان اخيرا يوم السبت السابق على ذلك الاثنين • واقبل « رودولف » فى المساء مبكرا عن العادة ، فسالته ايما : « هل كل شىء معد ؟ » •• فاجابها : « اجل » •• وما لبثا ان سارا حول حوض فى الحديقة ، واتجها ليجلسا على مقربة من رصفة على حافة السور •• وقالت ايما : « اراك حزينا ! » ، فتساءل كالمفكر : « لا •• لماذا ؟ » •• وكان فى تلك الاثناء يرمقهـــا بنظرة غريبة ، وبشكل مفعم بالحنان •• فعادت تساله : « احزين لانك راحل ؟ •• لانك مفارق ما اعتدت ان تحب •• حياتك ؟•• آه ، اننى افهم •• اما انا فلم تمنحنى الدنيا شيئا ! •• انت كل شىء لى ، ومن ثم ساكون كل شىء لك •• ساكون لك اسرة •• وطنا •• ساعنى بك ، وساحبك ! » ، فاحتواها بين ذراعيه قائلا : « لكم انت فاتنة ! » ، فقالت فى ضحكة خليعة : « احقا ؟ •• اوتحبنى ؟ •• اذن ، فاقسم ! »

ـ كم احبك ! •• كم احبك ! •• بل اننى اعبدك يا غرامى !

وشرع القمر يبزغ عند حافة الأرض ـ فى اقصى المروج ـ بدرا ، ارجوانى اللون • ثم ارتفع سريعا بين افنان شجر الحور التى كانت تخفيه من مكان الى آخر ، كانها ستار اسود تتخلله ثغرات ! ثم تالق فى بياض باهر ، فى السماء الخالية التى اشرقت بالنور ، وراح يمخر عبابها فى هوادة ، مرسلا على النهر رقعة كبيرة من ضوئه تكسرت الى نجوم لا حصر لها ، ولاح البريق الفضى يتلوى متغلغلا الى الاعماق ، كثعابين مارقة ، تكسوها قشور مضيئة ! •• بل انه كان يشبه ايضا ثريا هائلة ، تسيل عليها قطرات متلاحقة من ماس ! •• ولفهما الليل البديع •• وانبثت خلال الأغصان كتل من الظلال •• وراحت « ايما » ـ وقد اغمضت عينيها نصف اغماضة ـ تتنسم الهواء العليل الذى كان يهب ، فى جرعات عميقة • ولم ينبسا بكلمة ، اذ استغرقا فى احلامهما المتدافعة •• وقد عادت الى قلبيهما عواطف الأيام السالفة ، عارمة ، صامتة ، كالنهر المنساب ، فى تلك النعومة التى يحسها المرء فى عبير الورود الهادئة ، فالقت على ذاكرتيهما ظلالا اعظم واحلك من ظلال اشجار الصفصاف الساكنة التى كانت تمتد على العشب • وكثيرا ما كان يزعج العاشقين حيوان من حيوانات الليل ـ قنفذ او عرسة تبحث عن صيد ـ او كانا يسمعان فى بعض الأحيان صوت ثمرة ناضجة من الكمثرى وهى تهوى من تلقاء نفسها ••

وقال « رودولف » : « آه ! •• يالها من ليلة بديعة ! » ، فاجابت « ايما » : « سننعم بليال غيرها ! » ، ثم استطردت وكانها تحدث نفسها : « اجل ، ان الرحيل خير ، ومع ذلك ، فلم يثقل الحزن قلبى ؟ •• اهذا هو الخوف من المجهول؟ •• اثر التخلى عن الأشياء المالوفة •• او ، تراه ••؟ لا ، بل هو فيض الهناءة •

يا لى من ضعيفة . ألست كذلك ؟ .. ألا اغفر لى ! » .. فصاح : « لا يزال هناك وقت ، ففكرى .. ربما ندمت ! » ، فهتفت باستنكار : « أبدا ! » .. ثم اقتربت منه ، وقالت : « أى تعاسة تحيق بى ؟ .. ما من صحراء ، ولا وهاد ، ولا محيط أحجم عن اجتيازها معك طالما عشنا معا . ستكون حياتنا كعناق يشتد فى كل يوم ، ويزداد انطباقا ! لن يكون هناك ما يضايقنا ، فلا هموم ، ولا عقبات !.. سنكون وحدنا ، ولنفسينا ، الى الابد .. اواه ، الا تكلم .. رد على ! » .. وكان يجيب فى فترات منتظمة : « أجل .. أجل .. » ، ودست يديها فى شعره ، وراحت تردد فى صوت كصوت الطفل ، رغم الدموع الكبيرة التى كانت تتساقط من عينيها : «رودولف !.. رودولف !.. اواه، يا رودولف، يا صغيرى الحبيب!»

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فقالت : « انتصف الليل ! .. هيا ! .. لقد اصبحنا فى الغد !.. لم يبق سوى يوم واحد ! » . ونهض لينصرف.. وكانما كانت حركته الاشارة المبشرة بفرارهما ، فقالت « ايما » وقد غشيها ابتهاج طارىء : « هل الجوازان معك ؟ » .. قال : « أجل »

– لم تنس شيئا ؟ – لا

– امتاكد أنت ؟ – كل التأكد

– انه فندق « بروفانس » الذى ستنتظرنى فيه .. أليس كذلك ؟ .. عند الظهر ؟

فهز راسه .. وقالت « ايما » وهى تعانقه للمرة الأخيرة : « الى الغد اذن ! » .. واخذت ترقبه وهو يبتعد .. ولم يلتفت وراءه . فهرعت خلفه ، ومالت على حافة الماء ، بين شجيرات العوسج ، وصاحت : « الى غد ! » .. وكان قد اجتاز النهر ، وسار حثيثا فى المراعى .. وبعد بضع دقائق ، وقف « رودولف » ، فلما رآها فى ثوبها الأبيض تغيب شيئا فشيئا فى جوف الظلام كالطيف ، راح قلبه يخفق فى عنف ، حتى لقد اضطر الى ان يستند الى شجرة كى لا يهوى على الأرض . وقال فى حنق : « يا لى من غبى ! .. ولكن ، لا باس .. لقد كانت خليلة جميلة ! » .. وفى الحال عاوده جمال « ايما » ، ومتع حبهما ومسراته .. فرقت عواطفه لحظة ، ثم عاد يتمرد عليها ، قائلا وهو يهز كتفيه : « ما كنت – رغم كل شىء – لأستطيع ان اعيش منفيا ، وان احمل هم طفلة ! » .. قال لنفسه هذه العبارات ليقوى من عزيمته ، ثم اردف : « وهناك – الى جانب الهم – النفقات .. آه ، لا ، لا .. الف مرة لا ! .. كان الأمر سيغدو غباء بالغا ! »

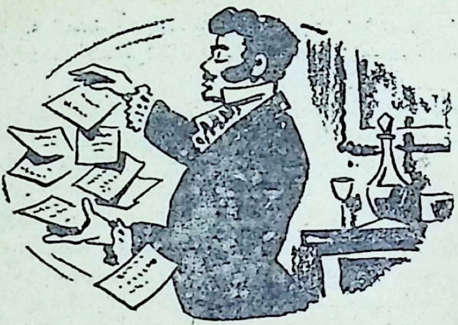

الفصل الثالث عشر

٥ ما كاد « رودولف » يبلغ داره ، حتى بادر بالجلوس الى مكتبه ، تحت راس الوعل المعلق الى الجدار . ولكنه حين امسك بالقلم بين اصابعه ، لم يجد فى راسه ما يسطره ،ومن ثم اعتمد على مرفقيه ، واخذ يفكر . لقد اصبحت « ايما » تلوح له وكانها نات فى ماض سحيق .. كانما اقام القرار الذى اتخذه مسافة شاسعة بينهما ، فجاة ! .. ولكى يسترجع شيئا عنها ، اخـــرج من الصوان المجاور للسرير صندوقا قديما من صناديق بسكويت « ريمس » ، اعتاد أن يحفظ فيه خطابات النساء،فانبعثت منه رائحة الغبار الجاف والورود الذابلة! ولمح اولا منديلا صغيرا من مناديل الجيب ، مليئا ببقع صغيرة باهتة .. كان هذا المنديل لها .. فقد نزفت دما من انفها مرة ، وهما يتنزهان .. وقد نسى كل شيء عنه ! .. والى جواره ، كانت الصورة الصغيرة المهداة من « ايما » ، وقـد تآكلت من كل زواياها .. ولاح له ان فى زينتها بهرجة مسرفة ، وان نظراتها المنكسرة توحى بذوق سقيم . ولطول ما تامل الصورة ، مستذكرا معـــالم الأصل ، اخذت ملامح « ايما » تختلط فى راسه شيئا فشيئا ، وكان الوجـه الحى والوجه المرسوم قد احتكا حتى محا كل منهما الآخـــر ! .. وانتهى الى قراءة بعض رسائلها .. كانت جميعا مليئة باحاديث تتعلق برحلتهما ، وقـد كتبت فى ايجاز ، وبتعبيرات عملية ، وخط سريع ، كخطابات الاعمال . ورغب فى أن يرى الرسائل الطويلة مرة اخرى ـ رسائل الأيام الخالية ! ـ ولكى يبحث عنها فى قاع الصندوق ، عبث بنظام كل الرسائل الاخرى ، واخذ بحركة آلية ينقب وسط هذا الركام من الورق والاشياء ، مصادفا خليطا من الزهـــور ،

ورباط جورب مما تستعمله النساء ، وقناعا اسود ، ودبابيس ، وشعرا ٠٠ شعورا لسمراوات ، ولشقراوات ، اشتبك بعضها بمفصلات الصندوق فتقطعت حين فتحه !

هكذا اخذ يعبث بالتذكارات ، متاملا خطوط واساليب الرسائل المتباينة بتباين كاتباتها : كانت بينهن الرقيقة الحنون ، والبشوش الضاحكة ، والمازحة الماجنة ، والحزينة المكتئبة ٠٠ وكانت هناك من ترجو حبا ، ومن تسأل مالا ٠٠ وبوحي كلمة كان يتذكر وجوها ، وحركات معينة ، ولهجة صوت ٠٠ على انه ، في بعض الحالات ، لم يكن يتذكر شيئا على الاطلاق ! ٠٠ والواقع ان اندفاع هؤلاء النسوة الى ذهنه مرة واحدة ، جعل كلا منهن تعدو على الاخرى ، وتغض من ذكراها ، حتى لاح انهن جميعا كن في مستوى واحد من الحب يسوى بينهن • ومن ثم اخذ « رودولف » يغترف الخطابات المختلط بعضها ببعض ، ويتسلى بان يفلتها لتهوى من يده اليمنى الى يده اليسرى كمياه الشلال ٠٠ واخيرا - اذ مل وتعب - حمل الصندوق فرده الى الصوان ، قائلا لنفسه : « يا لها من نفايات متراكمة ! » ٠٠ وكانت هذه خلاصة رايه • اذ ان الملذات - كالتلاميذ في ساحة المدرسة - لم تبق على شيء اخضر في قلبه لكثرة ما وطاته ٠٠ وكل من اجتاز هذا القلب في طيش وعدم اكتراث ، لم يخلف - على العكس من الاطفال في المدرسة - ادنى اثر ٠٠ ولا اسمه محفورا على الجدار !

★ ★ ★

◆ وقال « رودولف » لنفسه اخيرا : « هيا ! ٠٠ لنبدا ! » ، ثم كتب : « تشجعي يا ايما ! ٠٠ تشجعي ! ٠٠ ما كنت لأحيل حياتك الى شقاء » ٠٠ وحدث « رودولف » نفسه : « هذا حق ، رغم كل شيء ٠٠ انني انما اعمل لصالحها ٠٠ انني امين ! »

وعاد يستانف الكتابة : « هل تدبرت قرارك بعناية ؟ اتعرفين الى اية هوة كنت اجرك ايها الملاك المسكين ؟ لا ، أليس كذلك ؟ كنت مقبلة في ثقة وغير خوف ، مؤمنة بالسعادة في المستقبل ٠٠ آه ! ٠٠ ما اتعسنا من اخرقين ! » ٠٠ وتوقف « رودولف » هنا ، ليفكر في حجة طيبة • هل يكتب : « ان كل ثروتي قد تبددت ! » ؟ ٠٠ اوه ، لا ٠٠ ثم ان هذا لن يمنع من الامر شيئا ٠٠ لسوف يضطر الى ان يعود الى هذا فيما بعد ٠٠ وهل في وسع امرىء ان يحمل هذا الصنف من النساء على الاصغاء لصوت العقل ؟ ٠٠ وتروى ، ثم عاد يكتب : « لن انساك قط ٠٠ ثقي من هذا ٠٠ وساظل ابدا اكن لك وفاء عميقا ، على ان هذا الوجد الجائح لن يلبث يوما - ان عاجلا او آجلا - ان يخف ولا شك (فهذه شيمة العواطف البشرية) ، وعندئذ يعترينا الفتور ٠٠ ومن ادراني بانني قد لا اضطر الى ان اعاني الالم الفظيع ، الم مشاهدة ندمك ، والمسهمة فيه

بنفسى ، ما دمت السبب فيه ؟ ٠٠ ان مجرد التفكير فى الحزن الذى سينتابك ، يعذبنى يا ايما ! ٠٠ فسامحينى ! لماذا قدر لى أن اعرفك ؟ لماذا كنت جميلة بهذا الشكل ؟ أهو ذنبى ؟ اواه يا الهى !٠٠ لا ، لا ، لا تتهمى سوى القدر ! »

وقال لنفسه : « هاهى ذى كلمة تحدث دائما الأثر المنشود ! » ٠٠ واستأنف الكتابة : « آه ! لو انك كنت من اولئك النساء المستهترات اللاتى يصادفهن المرء ، لاقدمت انا بالتأكيد - وبدافع من الانانية - على خوض هذه التجربة ، لأنها لن تكون ذات خطر عليك فى هذه الحال ٠ ولكن هذه النشوة العذبة ، التى تفتنك وتعذبك فى آن واحد ، حالت بينك وبين ان تفهمى ، ايتها المعبودة، زيف مركزنا فى المستقبل ٠٠ كما لم افكر انا من ناحيتى فى هذا ، فى بداية الأمر ، بل استطبت ظلال هذه السعادة المثالية كما يستطيب المرء ظلال شجرة وارفة ، دون تقدير للتبعات والنتائج ! »

وقطع رودولف الكتابة ليسائل نفسه : « ربما ظنت اننى اتخلى عنها بدافع من البخل ٠٠ آه ! ٠٠ لا بأس ! لا ضـير ! لابد من انهاء الامـر ! » ٠٠ ثم استأنف : « ان الدنيا قاسية يا ايما ٠ وكان لابد من ان تضطهدنا اينما ذهبنا، وسيكون عليك ان تتحملى الاسئلة الطائشة المثيرة ، والافتراء ، والازدراء ، وربما الاهانة ٠ ٠الاهانة التى تمسك ! ٠٠ آه ! ٠٠ اما انا ، الذى يود لو رفعك الى عرش ! ٠٠ انا الذى احمل ذكراك معى كتميمة ! فلسوف اعاقب نفسى بالنفى والتغرب ، لقاء كل ما فعلت من شر ! سارحل ٠ الى أين ؟ ٠٠ لست أدرى !٠٠ فلقد فقدت عقلى ! ٠٠ وداعا ! ٠٠ ولتهنأى دائما بالخير ! احتفظى بذكرى التعس الذى فقدك ٠ لقنى طفلتك اسمى ، ودعيها تردده فى صـلواتها » ٠٠ واهتز اذ ذاك لهب الشمعتين ، فنهض « رودولف » ليغلق النافذة ، ثم قال لنفسه وهو يجلس ثانية : « يلوح لى ان هذا غاية ما هناك ٠٠ آه ! ٠٠ لأضف هذه العبارة أيضا ، خشية أن تسعى ورائى وتضايقنى ! » : « سأكون بعيدا عندما تقرئين هذه السطور الحزينة ، اذ وددت ان افر باسرع ما استطيع ، تخلصا من الاغراء الذى يدفعنى لأن أراك مرة أخرى - فلا ينبغى أن نستسلم للضعف ! - لكنى سوف اعود يوما ، ولعلنا نستطيع فيما بعد ان نتحدث معا ، فى منتهى الهدوء، عن حبنا القديم ٠ فوداعا ! » ٠٠ وعاد يضيف كلمات : « فى رعاية الله » ، اذ رآها تنم عن ذوق بديع ، ثم قال لنفسه : « والآن ، بماذا أوقع الخطاب ؟٠٠ بكلمة : « الوفى » ؟ ٠٠ لا ! بل : « صديقك » ؟ ٠٠ أجل ، فليكن ! » ٠٠ وكتب : « صديقك » ٠٠ ثم عاد يقرأ خطابه ، فبدا له مناسبا ٠ وراح يقـول لنفسه فى اشفاق : « يا للمرأة الصغيرة المسكينة ! ستراني اقسى من الصخر ! كان لابد من ذرف بعض الدموع على ذلك ، ولكنى لا استطيع البكاء ، وليس هذا ذنبى » ٠ وما لبث ان صب بعض الماء فى كوب ، ثم غمس اصبعه فيه ،

وترك قطرة كبيرة تسقط منه ، فكونت بقعة باهتة على المداد ـ كأنها دمعة ـ ثم بحث عن خاتم يحكم به اغلاق الرسالة ، فصادفه الخاتم الذى نقش عليه : « قلب عاشق » !

ـ هذا لا يصلح اطلاقا للظرف .. آه ! .. اف ! .. لا باس !

ودخن بعد ذلك ملء غليونه ثلاث مرات ، ثم اوى الى فراشه

* * *

◆ وعندما استيقظ فى اليوم التالى ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ـ اذ كان قد نام متاخرا ـ امر باقتطاف ملء سلة من المشمش ، ووضع الرسالة فى قاعها ، تحت بعض اوراق الكرم ، ثم امر « جيرار » ـ الحوذى ـ بان يحملها فورا الى « مدام بوفارى » ، مترفقا ـ وكان قد الف استخدام هذه الطـريقة للتراسل معها ، بارسال بعض الفواكه او الطيور التى يصطادها اليها ، تبعا للفصل ـ وقال للحوذى : « اذا سالتك عنى فقل اننى سافرت فى رحلة . ويجب ان تقدم السلة اليها بشخصها ، فى يديها .. هيا ، وكن على حذر ! »

وارتدى « جيرار » قميصه الجديد ، وعقد منديله حول سلة المشمش ، ثم سار فى خطى ثقيلة واسعة ، منتعلا حذاءيه الطويلين المعززين بالقطع الحديدية ، ويمم شطر (ايونفيل) . وحين وصل الى دار « بوفارى » ، كانت ربة البيت تنسق مع «فيليسيتيه» حزمة من الملابس الداخلية ، على منضدة المطبخ ، فقال الحوذى: « هاك شيئا ارسله مخدومنا اليك » .. واستولى عليها جزع ، وفيمـا كانت تبحث فى جيبها عن بعض القطع النقدية الصغيرة ، اخذت تتامل الفلاح بعين قلقة ، بينما كان هو نفسه يرمقها فى دهشة ، لا يفقه كيف تؤدى مثل تلك الهدية الى ارتباك امرىء ما ؟! .. وانصرف اخيرا ، بينما بقيت « فيليسيتيه » . ولم تقو « ايما » على الاحتمال ، فهرعت الى قاعة الجلوس ، متظاهرة بانها تنقل المشمش الى هنـاك ، ثم قلبت السلة ، ونبشت اوراق الكرم ، فعثرت عـلى الرسالة ، وفتحتها ، ثم بادرت هاربة الى غرفتها مذعورة ، وكانما كانت خلفها نيران رهيبة تطاردها !

وكان « شارل » موجودا .. رآته ، وتحدث اليها ، ولكنها لم تسمع شيئا ، بل مضت ملهوفة تصعد السلم ، لاهثة ، شاحبة ، مسلوبة الرشد ، متشبثة طيلة الوقت بتلك الورقة الرهيبة ، التى كانت تقرقع بين اصابعها كانها صفحة من حديد !.. واذ بلغت الطابق الثانى ، توقفت لدى باب مخزن الحبوب ، الذى كان موصدا ، ثم حاولت ان تهدىء من انفعالها .. وتذكرت الخطاب ! .. يجب ان تفرغ منه ، ولكنها لا تجرؤ .. واين ؟ .. وكيف ؟ .. قد يراها احد .. وقالت لنفسها : « آه ، لا .. هنا ساكون بخير ! » ، ودفعت الباب ، ودخلت .. وكان السقف ذو الالواح الاردوازية يشع فى الداخل حرارة انصبت عمودية

على صدغيها ، فكادت تختنق ٠٠ وجرت نفسها الى كوة مغلقة ، فرفعت رتاجها، واذا الضوء الباهر يندفع الى الداخل ٠٠ وأمامها ، كان الريف يمتد خلف أسطح المبانى الى اقصى مرامى البصر ٠٠ وتحت ناظريها مباشرة ، كان ميدان القرية خاويا ، وأحجار الطريق تلمع ، واجهزة الارشاد الى الرياح فوق الدور ساكنة ٠٠ وعند ناصية الطريق ، كان ينبعث من مبنى منخفض خرير مسترسل ذو صوت حاد منكر ٠ كان « بينيه » يدير آلاته !

★ ★ ★

◆ واستندت الى حافة النافذة ، وعادت تقرأ الخطاب فى تهكم غاضب ٠٠ وكلما ازداد تركز انتباهها عليه ، ازدادت افكارها ارتباكا٠٠وتمثلت «رودولف» مرة اخرى ، وسمعته ، وطوقته بذراعيها فى الخيال ، واحست بدقات قلبها تتتابع فى عنف خلف صدرها ـ كدقات المطارق ـ وهى تزداد سرعة ، فى فترات غير منتظمة٠٠وتلفتت حولها وهى تتمنى لو ان الارض انهارت وتهدمت !٠٠ لم لا تنهى كل شىء ؟ ٠٠ ما الذى يصدها ؟ ٠٠ انها طليقة ٠ وتقدمت تطل على الشارع المرصوف ، وهى تقول لنفسها : « هيا ! هيا ! » ٠٠ كانت الاشعة المنعكسة عن الارض تجتذب ثقل جسمها الى الهاوية ! ٠٠ ولاح لها ان ارض الميدان المهتزة ـ تحت وهج الشمس ـ ترتفع بطول الجدران ، وان أرض الغرفة تغوص من اقصاها ، كسفينة يتقاذفها الموج ٠٠ وصارت عند الحافة ، تكاد تكون معلقة فى الهواء ، محوطة بفراغ شاسع ٠٠ وبهرتها زرقة السماء ، واخذ الهواء يلف فى راسها الأجوف ، ولم يكن عليها سوى أن تنصاع ٠٠ ان تستسلم ٠٠ وزئير مخرطة «بينيه» لا ينقطع ، وكأنه صوت غاضب يدعوها ٠٠ وكان «شارل» يصيح : « يا زوجتى !٠٠ يا زوجتى !٠٠ » فامسكت متريثة ، بينما استطرد : « اين انت ؟ ٠٠ تعالى ! » ٠٠ وكادت تهوى مغشيا عليها لفرط الذعر ، اذ فطنت الى انها افلتت من الموت ٠٠ فاغمضت عينيها ، ثم ارتجفت اذ احست بيد تمس كمها ٠٠ وكانت يد « فيليسيتيه » التى قالت لها : « ان السيد ينتظرك يا سيدتى ، وقد قدم الحساء على المائدة » ٠٠ فاضطرت الى الهبوط ، والى الجلوس الى المائدة !

وحاولت ان تاكل ، ولكن اللقمات كانت تسد حلقها ٠٠ ثم بسطت منشفتها وكأنها تفحص مواضع البلى فيها ، وودت فعلا ان تنهمك فى هذا العمل ، فاخذت تحصى خيوط النسيج ٠ وما لبثت ذكرى الخطاب ان عاودتها ، أفتراها اضاعته ؟ ٠٠ واين تجده ثانية ؟ ٠٠ ولكنها احست بهبوط وتقعس ، أقعداها حتى عن ان تنتحل عذرا لتغادر المائدة ٠ وعندئذ غشيها جبن ، وداخلها خوف من « شارل » ٠ من المؤكد انه كان يعلم كل شىء ! ٠٠ والواقع انه قال فى لهجة غريبة : « ليس من المحتمل ـ على ما يظهر ـ ان نرى السيد رودولف قبل وقت

طويل » ، فقالت مرتجفة : « من قال لك هذا ؟ » ، فاجاب فى دهشة لردها السريع : « من قال لى ! .. عجبا !.. انه « جيرار » الذى قابلته لتوى عند باب مقهى « فرانسيه » . لقد سافر « رودولف » فى رحلة ، او هو على وشك ! » .. واذ شهقت ، قال : « ما الذى يدهشك فى هذا ؟ .. انه يرحل هكذا من آن الى آخر ، للترويح عن نفسه ، ولعمرى ، انى لأراه على صواب .. عندما يكون لدى المرء ثروة ، ويكون اعزب ! .. فضلا عن ان صاحبنا يمتع نفسه ! .. انه رجل لهو وعبث .. لقد روى لى السيد لانجلوا ... » ، ثم امسك من قبيل الأدب ، لوجود الخادم التى كانت قد اقبلت واخذت تعيد المشمش المتناثر على الرف الى السلة . وطلب « شارل » المشمش - غير منتبه الى احتقان وجه زوجته - وتناول واحدة فانشب فيها اسنانه وقال : « آه ، رائع !.. تذوقى ! » .. وقرب منها السلة ، فدفعتها فى رفق .. وعاد يقول وهو يقرب المشمشة من انفها عدة مرات : « اذن ، شمى .. يا للعبير ! » . فوثبت صائحة : «اننى اختنق ! » .. ثم غالبت النوبة فى جهد وعزيمة ، وقالت : « لا شىء .. لا شىء ! .. انها الأعصاب ! .. الا اجلس ، وكل » .. فقد خشيت ان يشرع فى سؤالها ، وفى العناية بها ، وان لا تخلو الى نفسها ابدا !

★ ★ ★

◆ وجلس شارل ليرضيها ، ولفظ بذور المشمش فى راحتيه ، ليضعها بعد ذلك فى طبقه .. وفجاة ، مرت عبر الميدان عربة زرقاء منطلقة بسرعة ، فندت من « ايما » صرخة ، ثم هوت على الأرض مستلقية على ظهرها ، متيبسة الاطراف .

والواقع ان « رودولف » كان قد قرر - بعد تفكير طويل - ان يرحل الى (روان) ، ولما لم تكن ثمة طريق بين (لاهوشيت) و (بوشى) سوى (ايونفيل) ،

فقد اضطر الى ان يجتاز القرية ، فعرفته « ايما » على اضواء مصابيح العربة التى مرقت خلال الغسق كالبرق . واسرع الصيدلى « هوميه » الى الدار ، حين انبعثت الجلبة فيها ، فاذا المائدة قد انقلبت بكل ما عليها من اطباق ، واذا الصلصة ، واللحم ، والسكاكين ، والملح ، وقنينة الزيت ، قد تناثرت فى ارجاء الغرفة .. و « شارل » يصيح طالبا النجدة ، و « بيرت » تبكى مذعورة ، و « فيليسيتيه » - التى كانت يداها ترتعشان - تفك ازار سيدتها التى كان جسمها كله يختلج فى تشنج .. وقال الصيدلى : « ساجرى الى معملى لاحضر بعض خل الورد »

واذ فتحت « ايما » عينيها ، حين تنسمت الزجاجة ، قال : « كنت واثقا من ان هذا كفيل بان يوقظ الميت ! » . وقال شارل : « كلمينا .. افيقى .. ها انذا ، شارل حبيبك .. الذى يحبك ! .. اعرفتنى ؟ .. انظرى ! .. هاك ابنتك الصغيرة ! .. الا قبليها ! » ، وبسطت الطفلة ذراعيها نحو امها لتتعلق برقبتها ، ولكن « ايما » اشاحت عنها ، وقالت فى صوت متهدج : « لا ، لا .. لا اريد احدا ! » .. واغمى عليها مرة اخرى ، فنقلت الى سريرها ، حيث ظلت ممددة فاغرة الفم ، مطبقة الاجفان ، مفتوحة الراحتين ، بلا حراك ، وقد ابيض لونها كتمثال من الشمع .. وكانت الدموع تجرى من عينيها ، وتسقط فى بطء على الوسادة .. وكان « شارل » واقفا فى اقصى المخدع - والصيدلى على مقربة منه - وقد اخلد الى ذلك الصمت الملىء بالتفكير ، الذى يرتاح اليه المرء فى ظروف الحياة الخطيرة .. وما لبث الصيدلى ان قال وهو يلمس مرفقه : « اطمئن .. اعتقد ان النوبة قد انقضت » . فاجاب « شارل » وهو يراقبها فى نومها : « اجل ، انها الآن ترتاح قليلا .. يا للمسكينة ! .. مسكينة ! .. لقد استغرقت الآن فى النعاس ! »

واذ ذاك تساءل « هوميه » كيف وقع الحادث ، فاجاب « شارل » بان المرض دهمها فجاة وهى تاكل بعض ثمار المشمش . فقال الصيدلى : « عجيب ! .. ربما كان المشمش سبب الاغماء ، فمن الناس من اوتوا طبيعة حساسة تتاثر من بعض الروائح ، وهو موضوع ممتع للدرس ، سواء من ناحية علم طبيعة الامراض ، او من ناحية طبيعة الاجسام . ولقد عرف الكهنة ما لهذا من اهمية ، فاذا هم يطلقون البخور دائما فى طقوسهم ، وذلك لتخدير الحواس ، ولاحداث الانجذابات الروحية . وهو امر سهل جدا ، لا سيما مع افراد الجنس اللطيف ، اذ انهن ارق من غيرهم . بل يقال ان هناك من يصاب بالاغماء لرائحة الذرة اذ تشوى ، او لرائحة الخبز الطازج .. » . فقال « بوفارى » بصوت خفيض : « حذار ، والا ايقظتها ! » .. واستطرد الصيدلى قائلا : « وليس الآدميون وحدهم عرضة لمثل هذا الشذوذ ، بل الحيوانات كذلك . وما اظنك تجهل ما لمادة

« النبيتا كاتاريا » - التى يسميها العامة « حشيش القط » - من مفعول عجيب فى اثارة الحواس الجنسية لدى حيوانات الفصيلة القطية • كما ان هناك مثلا استطيع ان اؤكد صحته ، فان « بريدو » - وهو من اصدقائى القدامى ، وقد استقر الآن فى شارع (مالبالو) - يمتلك كلبا تنتابه التشنجات بمجرد ان تمسك امامه علبة سعوط ! وكثيرا ما يجرى هذه التجربة بمشهد من اصدقائه فى البيت الذى اقامه للاستجمام فى غابة جيوم • فهل يصدق احد ان مادة للعطاس كهذه تحدث مثل هذا الضرر باجهزة جسم حيوان من ذوات الاربع ؟•• انه امر غاية فى الغرابة •• أليس كذلك ؟ »

فقال « شارل » الذى لم يكن ينصت اليه : « اجل » •• فاستأنف الآخر حديثه مبتسما فى شىء من الرضى عن النفس : « هذا يبين لنا الوان الشذوذ التى لا حصر لها ، فى الجهاز العصبى • أما بالنسبة للسيدة ، فأعترف انها تبدو لى دائما مرهفة للغاية • ومن ثم فلست انصحك يا صديقى العزيز بشىء من تلك الأدوية المزعومة التى تؤثر على التركيب الجسمى ، تحت زعم التأثير على الأعراض • لا ، لا داعى لأدوية لا نفع لها ! بل يكفى اللجوء الى تنظيم التغذية، وهذا غاية ما فى الأمر ! •• وهناك بعض المسكنات ، والملينات ، والملطفات •• ثم ، ألا ترى ان من المحتمل ان يكون الوهم مستوليا عليها ؟ » •• فتساءل « بوفارى » : « من اية ناحية ؟ »

- آه ، هذه هى المسألة ! •• هذه هى المشكلة فعلا ! •• كما قرأت اخيرا فى الصحيفة ••

* * *

◆ على ان « ايما » لم تلبث ان أفاقت صائحة : « الخطاب !•• الخطاب ! » • وخيل اليهما انها تهذى •• وكان الليل قد انتصف •• ثم ثبت انها اصيبت بحمى مخية •• وظل « شارل » لا يفارقها ثلاثة واربعين يوما ، وقد اهمل كل مرضاه ، ولم يعد ينام فى فراشه •• كان لا ينفك يتحسس نبضها ، ويضع اللصقات والمكمدات بالماء البارد • وكان يوفد « جوستان » الى (نيوشاتل) بحثا عن الثلج ، فكان الثلج يذوب فى الطريق ، فيوفده من جديد !•• واستدعى السيد « كانيفيه » لاستشارته ، واحضر من (روان) الدكتور « لاريفيير » استاذه القديم •• كان قانطا • وكان اشد ما ازعجه ضعف « ايما » وخورها ، حتى انها كانت لا تتكلم، ولا تسمع شيئا ••بل كان يلوح انها لا تحس بالألم ! •• وكأنما كان جسدها وروحها قد اخلدا معا الى الراحة بعد كل متاعبهما ••

وحوالى منتصف اكتوبر ، اصبح فى وسعها ان تجلس فى سريرها ، تحوطها الوسائد • وبكى « شارل » حين رآها تأكل اول لقمة من الخبز والمربى• واخذت قواها تعود اليها ، فاستطاعت ان تبرح سريرها لبضع ساعات بعد ظهر

كل يوم . وعندما تحسنت ، حاول يوما ان يصحبها لتتمشى فى الحديقة معتمدة على ذراعه . وكانت رمال دروب الحديقة قد اختفت تحت أوراق الشجر الجافة .. وسارت « ايما » فى بطء تجر خفيها ، مستندة الى كتف «شارل» ، وكانت تبتسم طيلة الوقت .. وسارا حتى أقصى الحديقة ، على مقربة من رصفة السور .. وكانت هى تتحامل على نفسها فى تؤدة ، وقد اظلت عينيها بيدها لتستطيع ان تبصر . وارسلت بصرها بعيدا ، الى أبعد ماوسعها ، ولكن ، لم تلمح عندالافق سوى نيران هائلة تبعث دخانها فوق التلال .. النيران التى اوقدت لاجتثاث الاعشاب .

وقال بوفارى : « لسوف تتعبين نفسك يا حبيبتى ! » . ودفعها برفق ليحملها على دخول الخميلة ، قائلا : « اجلسى على هذا المقعد ، لتستريحى » . فقالت فى صوت واهن : « لا ! .. لا ! .. ليس هنا » . وتولاها دوار . وعاودها مرضها منذ تلك الليلة ، بشكل لا تتضح منه حقيقته ، وباعراض غامضة ، غير جلية ! فهى تالم احيانا من قلبها ، واحيانا من صدرها ، ومن راسها ، ومن اطرافها .. وكانت تنتابها نوبات قىء ، خيل لشارل انه راى فيها مبادىء السرطان .. وكان المسكين - علاوة على كل هذا - يعانى الهموم من جراء المسائل المالية !

الفصل الرابع عشر

كان - اولا - لا يدرى كيف يدفع للسيد « هوميه » نفقات كل الأدوية التى امده بها .. ومع انه - كطبيب - لم يكن ملزما بدفع أثمانها ، الا انه كان يخجل من مثل هذا الدين . ثم كانت هناك نفقات بيته ، فان الطاهية حين غدت ربة للبيت صارت « فظيعة » فى اسرافها .. واخذت كشوف الديون تتدفق على

البيت ، وشرع التجار يتذمرون ، بل ان السيد « لوريه » ـ بوجه خاص ، راح يزعجه . والواقع انه ـ فى عنفوان مرض « ايما » ـ استغل الظــروف ليزيد من قيمة دينه ، فاسرع باحضار المعطف ، وحقيبة السفر الصغيرة ، وحقيبتين كبيرتين بدلا من واحدة ، وعدة أشياء اخرى . وكان من السهل على « شارل » ان يقول انه لا يريدها ، ولكن التاجر أجاب فى تحرش بانها طلبت منه ، فلا يستطيع ان يستردها .. فضلا عن ان هذا قد يسوء السيدة فى فترة نقاهتها ، ومن ثم يخلق بالسيد ان يفكر جيدا فى الأمر . ومجمــل القول انه كان مصرا على ان يرفع الأمر الى القضاء ، حتى لا ينزل عن حقوقه ويسترد السلع . وازاء هذا أمر « شارل » من ناحيته برد السلع الى حانوت التاجر .. ولــكن « فيليسيتيه » نسيت ، وشغل هو بامور اخرى ، فلم يعد يفكر فى ذلك . وعاد مسيو « لوريه » الى المطالبة ، مهددا مرة ، ومتباكيا اخرى ، حتى افلح بمناوراته فى حمل « بوفارى » على توقيع سند تعهد فيه بالدفع فى خلال ستة شهور . على انه لم يكد يوقع ، حتى خطرت له فكرة جريئة : تلك هى ان يقترض الف فرنك من « لوريه » . ومن ثم ساله محرجا ان كان من الميسور ان يوافيه بهذا المبلغ على ان يعتبر هذا الدين لمدة عام، وباية فائدة يريد احتسابها ! فهرع « لوريه » الى متجره ، وعاد بالمبلغ ، واملى وثيقة اخرى تعهد فيها « بوفارى » بان يدفع لأمره فى أول سبتمبر التالى الفا وسبعين فرنكا ، اذا اضيفت الى المائة والثمانين التى اتفقا عليها من قبل ، غدا المجموع الفا ومائتين وخمسين . وهكذا ، باحتساب الفائدة بسعر ستة فى المائة ، فضلا عن عمولة بمعدل الربع ، الى جانب ربح فى السلع يصل الى الثلث على الاقل ، فان هذه الصفقة كانت كفيلة بان تدر على التاجر فى اثنى عشر شهرا ربحا قدره مائة وثلاثين فرنكا . وراوده الامل فى ان لا تقف المسالة عند هذا الحد ، وان لا يدفع الدين ، ومن ثم يتجدد، وهكذا يتغذى المبلغ الهزيل لدى الطبيب ـ كما لو كان فى مصحة ! ـ فيعود اليه سمينا ، تتفتق لبدانته حافظته !

وفوق ذلك ، فان كل اموره اخذت تزداد نجاحا ، فقد فاز فى مناقصة توريد شراب التفاح ـ « السيدر » ـ لمستشفى (نيوشاتل) ، ووعده السيد «جيومان» ببعض اسهم فى مناجم (جومسنال) ، فاخذ يحلم بانشاء نظام جديد للمواصلات السريعة بين (اركوى) و (روان) ، لن يلبث ان يقضى ولا شك على العربة المتداعية التابعة لفندق « الاسد الذهبى » . كما ان السفر السريع ، بنفقات زهيدة ، مع امكان اصطحاب مزيد من المتاع، سيضع فى يديه كل تجارة (ايونفيل)

★ ★ ★

◆ وسال « شارل » نفسه مرات عديدة : انى له ان يدفع مثل هذا المبلغ فى العام المقبل ؟ .. وراح يفكر ، ويتصور سبلا للعون ، كان يلجا الى ابيه ،

او يبيع شيئا .. ولكن اباه كان يصم اذنيه ، كما انه لم يكن يمتلك شيئا يباع .. وكان اذ ذاك يتصور المتاعب المقبلة فيبادر الى اقصاء مثل هذا الموضوع غير المستحب عن ذهنه ، ويلوم نفسه لنسيانه « ايما » ، كأنما كانت كل افكاره ملكا لهذه المرأة، بحيث يكون عدم قصر افكاره عليها باستمرار، استلابا لبعض حقوقها !

وكان الشتاء قارسا ، ونقاهة مدام بوفارى بطيئة . وكانت - اذا تحسن الجو - تدفع فى مقعدها الى النافذة المطلة على الميدان ، اذ اصبحت تشعر بنفور نحو الحديقة ، حتى اصبحت المصاريع المطلة عليها مغلقة على الدوام . ورغبت فى ان يباع الجواد .. واصبح كل ما اعتادت ان تحبه فى الماضى ، يسوؤها الآن ! ولاح كأنما اقتصرت كل افكارها على العناية بنفسها ، فكانت تمكث فى الفراش ، مقتصرة على تناول وجبات خفيفة ، وتدق الجرس للخادم لتسألها عن شرابها او لتثرثر معها . وكان الجليد المتراكم على سقف السوق يعكس على الحجرة ضوءا ناصعا ، ساكنا .. ثم بدأ موسم الأمطار ، فكانت « ايما » ترتقب فى غرفتها يوميا - بذهن مفعم بالتلهف - الانباء التى لا بد منها عن بعض الاحداث التافهة التى لا علاقة لها بها ، وكان اهمها وصول «العصفورة» فى المساء ، فكانت ربة الفندق ترفع اذ ذاك عقيرتها بالصياح ، فترد عليها الأصوات الأخرى .. بينما يومض مصباح « هيبوليت » كالنجمة فى الظلام ، وهو يخرج الصناديق من مؤخرة العربة . وكان « شارل » يفد عند الظهيرة ، ثم يعود للخروج . وتتناول هى - عقب ذلك - بعض الحساء .. وحوالى الساعة الخامسة ، يبدأ النهار فى الرحيل ، ويعمد الاطفال العائدون من المدرسة - وهم يجرون نعالهم الخشبية على الرصيف - الى طرق « شناكل » المصاريع بمساطرهم، واحدا بعد الآخر ..

تلك كانت الساعة التى اعتاد الأب « بورنيسيان » ان يفد فيها ليراها ، فيسأل عن صحتها ، ويفضى اليها بالأنباء ، ويرشدها الى امور دينها ، فى صوت خافت ، رخيم ، لا يخلو من سحر . بل ان مجرد التفكير فى مسوحه ، كان يشيع فى نفسها ارتياحا . ولقد حدث ذات يوم - فى عنفوان مرضها - ان ظنت انها تحتضر ، فطلبت ان تتناول القربان المقدس . وبينما كانت الاجراءات تتخذ فى غرفتها لاعدادها للمراسم ، وقد حولت المنضدة الحافلة بانواع الشراب الى مذبح ، واخذ فى نثر زهور « الداليا » على الأرض ، شعرت « ايما » بشىء قوى يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس .. واذ تخفف جسدها من الفكر ، بدات حياة اخرى ، فخيل اليها ان كيانها يرقى صاعدا الى الله ، حيث يتلاشى فى ذلك الحب ، كالبخور المحترق اذا ما انصهر و غدا بخارا . ونثر الماء المقدس على الفراش ، واخرج القس من العلبة المقدسة رقاقة الخبز الربانى الأبيض ، فانتشت « ايما » بهذه الغبطة السماوية ، حتى

انها مدت شفتيها لتتلقى «جسد المخلص» الذى قدم اليها • وكانت ستائر المخدع تتطاير حولها فى رفق كانها السحب ، والشمعتان المشعلتان على المنضدة تتالقان كانهما هالتان باهرتان •• وما لبثت ان طوحت براسها الى الخلف ، متوهمة انها تسمع فى الفضاء انغام الموسيقى الملائكية •• وفى السماء اللازوردية - على عرش ذهبى وسط قديسين ممسكين بالسعف الاخضر - خيل اليها انها تلمح الله ، الأب ، محوطا بالجلال ، وقد أوفد الى الأرض - باشارة منه - ملائكة ذوو اجنحة من لهب ، ليحملوها فى احضانهم صاعدين ••

★ ★ ★

◆ واستقرت هذه الرؤيا الرائعة فى ذاكرتها كاجمل ما يمكن ان يرى فى الأحلام ، ومن ثم راحت تجاهد لتستجمع حواسها ، التى ظلت باقية رغم ذلك ، وان كانت قد فقدت الكثير من طابعها الشخصى ، واكتسبت رقة وعذوبة عميقتين • ووجدت نفسها ، التى عذبها الغرور ، راحة فى التواضع المسيحى ، فلما تذوقت لذة الضعف ، رأت انهيار الارادة فى اعماقها ، مما فتح ولا بد طريقا واسعا الى المسالك المفضية الى النعم الالهية والتسامح الربانى •• وفى مكان السعادة ، قامت مباهج اعظم •• حب يفوق كل حب ، لا ينقطع ولا ينتهى ، وانما يظل فى نمو الى الابد ! •• وابصرت وسط رؤى الامل الخيالية ، حالة من الطهر والنقاء ، تطفو فوق الارض ، وتختلط بالسماء ، فتاقت الى ان ترقى اليها •• تمنت ان تغدو قديسة •• وابتاعت مسابح ، وحملت الاحراز والتمائم ، ورغبت فى ان يوضع فى حجرتها - الى جوار سريرها - صندوق للذخائر القدسية ، مرصع باليواقيت ، لتقبله فى كل ليلة ••

وانتشى القس بهذه الروح ، وان خال ان تدين « ايما » قد ينتهى - لفرط تحمسها - الى التخبط بين البدع والمغالاة •• واذ لم يكن على تفقه كبير بهذه الأمور ، فقد بادر بمجرد تجاوزها حدا معينا ، بالكتابة الى السيد « بولار » - بائع كتب المطران - يساله ان يوافيه بما « يصلح لسيدة جمة الذكاء » • وفى غير اكتراث - كما لو كان يرسل سلعا لزنوج - حزم المكتبى كل الكتب الدينية التى كانت مقروءة اذ ذاك ، دون تمييز •• فاذا هى بعض الكتب الموجزة لتعليم الدين عن طريق الاسئلة والاجابات ، وبعض النشرات التى كتبت باسلوب متهجم على طريقة « مسيو دى ميستر » ، وبعض روايات ذات اغلفة وردية ، واسلوب معسول ، من وضع رجال الاكليروس الشعراء الفرسان ، أو التائبين ذوى الجوارب الزرقاء •• فكان بينها : « فكر فى هذا جيدا » ، و « رجل الدنيا عند قدمى مريم ، بقلم السيد••• ، مزينا ببعض الدرجات الكهنوتية » ، و « اغلاط فولتير ، ليفيد منها الشباب » •• الخ • ولم يكن ذهن مدام بوفارى قد صفا الى الدرجة التى تجعلها تعكف جادة على أى شىء ، فضلا عن انها بدات قراءة هذه

الكتب فى عجلة لا تسمح باستيعابها .. فسرعان ما ضايقها فقه اصول الدين ، وساءتها حدة المؤلفات الجدلية ، لامعانها فى مهاجمة اناس لم تكن تعرف عنهم شيئا .. اما القصص الدنيوية الموضوعة لأغراض دينية ، فقد لاح لها ان تاليفها قام على جهل بالدنيا ، حتى انها جعلتها تنفر من الحقائق التى وضعت لاثباتها ! .. ولكنها ـ مع ذلك ـ واظبت على القراءة .. وكانت ـ اذا انزلق الكتاب من يدها ـ تتوهم نفسها وقد تملكتها ارق الوان الأسى الكاثوليكى التى يمكن ان تصل اليها روح متسامية ..

* * *

◆ اما عن ذكرى « رودولف » فقد طوحت بها الى قاع قلبها ، فظلت هناك اكثر جلالا وجمودا من مومياء ملك فى مقبرة أثرية ! .. كان يتصاعد من هذا الغرام المحنط عبير يتخلل كل شىء ، ويعبق بالحنان ذلك الجو القدسى الذى كانت تصبو الى ان تعيش فيه . وكانت اذا ركعت فى مركعها الذى صنع على الطراز القوطى ، وجهت الى الرب عين الكلمات الوالهة التى كانت تتمتم بها فيما مضى الى حبيبها ، فى فورات مجونها .. كانت تفعل ذلك لتجتذب الايمان ، ولكن شيئا من المباهج لم يكن يهبط عليهـا من السماء ، فكانت تنهض وقد اضنى الركوع اطرافها ، وتولاها شعور غامض بانها مغبونة الى درجة هائلة .. وكانت ترى ان هذا السعى وراء الايمان ليس سوى فضيلة واحدة من الفضائل ، فاخذت فى عنفوان زهوها بولائها وتقواها ، تقارن نفسها باولئك السيدات الجليلات اللائى عشن فى الماضى البعيد ، واللائى كانت تحلم بمجدهن اذا ما رات لوحة من لوحات « لافالير » ، واللائى كن يجررن اذيالهن الموشاة بالدانتيلا ، فى جلال عارم ، وهن ياوين الى خلواتهن ليرقن على قدمى المسـيح دموع قلوبهن التى جرحتها الحياة !

وتحولت بعد ذلك تكرس نفسها لعمل الخير على نطاق واسع . فكانت تخيط الثياب للفقراء ، وترسل الوقود للنسوة اللائى فى المخاض . ووجد « شارل » ـ عند عودته الى البيت ذات يوم ـ ثلاثة من الأفاقين جالسين الى المائدة فى المطبخ يتناولون الحساء . وامرت باستعادة ابنتها ـ التى كان زوجها قد ارسلها ثانية الى المربية ابان مرضها ـ اذ رغبت فى ان تعلمها القراءة . ولم تعد تضيق بكثرة بكاء «بيرت» ، فقد وطنت نفسها على التسامح والرحمة الشاملين . واصبح حديثها عن كل شىء مليئا بالمصطلحات المثالية ، فكانت اذا سالت ابنتها عن حالها، قالت : « هل فارقك المغص .. يا ملاكى ؟ » . ولم تعد مدام بوفارى الأم تجد ما تنتقده اللهم سوى ذلك الانصراف التهوسى الى نسج السترات لليتامى بدلا من ان ترتق بياضات منزلها .. ولكن النزاع العائلى كان قد اضنى العجوز الطيبة ، فراق لها هذا البيت الهادىء ، حتى لقد مكثت الى ما بعد عيد الفصح ، فرارا من

سخريات « بوفارى » المسن ، الذى لم يتخل قط فى يوم الجمعة اليتيمة عن طلب سجق من أمعاء الخنزير !

★ ★ ★

◆ والى جانب صحبة حماتها ، التى قوت من عزيمتها بعض الشىء بصواب آرائها ، ورزانة أساليبها ، اصبحت « ايما » تستقبل كثيرا من الزائرات فى كل يوم تقريبا ، وكانت من هؤلاء : مدام لانجلوا ، ومدام كارون ، ومدام دوبروى ، ومدام توفاش .. وفيما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر - بانتظام - كانت تستقبل مدام « هوميه » الفاضلة ، التى لم تصدق قط - من ناحيتها - شيئا من النميمة التى كانت تقال عن جارتها ! وكان أبناء « هوميه » ياتون ايضا لزيارتها ، يصحبهم « جوستان » ، فكان يصعد معهم حتى مخدعها ، ويظل واقفا بجوار الباب ، لا يحير حراكا ، ولا ينبس ببنت شفة ، حتى لقد كانت مدام بوفارى كثيرا ما تشرع فى زينتهـــا ، غير عابئة به . وكانت تبدا بتناول مشطها ، فتهز شعرها بحركة سريعة .. وعندما راى للمرة الاولى كل ذلك الشعر الغزير الذى انسدل الى ركبتيها فى خصلات سوداء ، خيل للفتى المسكين انه وقف فجاة على شىء جديد ، غريب ، ارهبه بهاؤه !

ولا شك فى ان « ايما » لم تكن تلاحظ اهتمامه الصامت ، ولا تهيبه الخجول ، فما خطر ببالها ان الحب الذى تلاشى من حياتها كان قائما ينبض الى جوارها ، تحت القميص الخشن ، فى ذلك القلب المراهق الذى تفتح على عبير جمالها ! .. ثم انها اصبحت تلف كل شىء بغلالة من عدم الاكتراث ، ففدت لها تعبيرات رقيقة متلطفة ، تصحبها نظرات متكبرة مترفعة ، واساليب متناقضة من هذا القبيل ، تجعل المرء عاجزا عن ان يميز فيها بين الانانية والخير ، وبين الفساد والتقوى . ففى ذات مساء - مثلا - غضبت من الخادم التى طلبت الاذن بالخروج ، وتلعثمت حين همت بان تنتحل عذرا .. وفجاة ، سالتها « ايما » : « اذن فانت تحبينه ؟ » .. واستطردت دون ان تنتظر ردا من « فيليسيتيه » - التى تضرج وجههـــا حياء : « هيا .. اجرى .. متعى نفسك ! »

وامرت - فى مطلع الربيع - بان تقلب ارض الحديقة من اولها لآخرها ، رغم معارضة « بوفارى » .. على انه اغتبط - مع ذلك - اذ رآها اخيرا تبدى رغبة ، ايا كانت هذه الرغبة ! واخذت كلما ازدادت قوة ، تبدى مزيدا من العنـــاد والصلابة .. فبدات بانتهاز فرصة لطرد الأم « روليه » - المربية - التى كانت خلال نقاهتها قد اعتادت الاكثار من التردد على المطبخ مع الرضيعين والصغار الذين فى حضانتها ، والذين اوتوا اسنانا تفوق اسنان أكلة البشر ! .. ثم تخلصت من زيارات اسرة « هوميه » ، وسرحت الزائرات الأخريات تباعا ، بل وغدت اقل مثابرة على التردد على الكنيسة ، مما تحمس الصيدلى لتحبيذه ، فقال

لها فى لهجة ودية : « لقد كنت موشكة ان ترتدى المسوح ! » .. على ان الأب بورنيسيان » ظل يتردد عليها يوميا ـ كعادته من قبل ـ بعد ان يفرغ من تلقين الدين لتلاميذه الصغار . وكان يؤثر البقاء خارج جدران البيت ، ليستنشق الهواء فى « البستان » كما كان يسمى الخميلة .. وكان هذا موعد عودة «شارل» الى البيت . وحين كانا يشعران بالحر ، كان يؤتى بشراب التفاح الخفيف ، ويشربان معا نخب اكتمال شفاء السيدة ..

وكان « بينيه » يحضر هذه الجلسات .. او بالأحرى ، كان يصيد السمك ، على مسافة بسيطة من سياج الحديقة ، فيدعوه « بوفارى » الى كاس .. وكان خبيرا بفض سدادات القنينات المصنوعة من الفخار ، فيقول وهو يلقى نظرة راضية على كل ما حوله ، الى آخر اطراف المنظر : « يجب أن تمسك الزجاجة فى وضع راسى على المنضدة ، وبعد ان تقطع الخيوط ، اضغط السدادة الى أعلى ، فى دفعات بسيطة ، فى رفق ، وشيئا فشيئا ، كما يفعلون فى المطاعم لفض سدادات زجاجات المياه المعدنية »

★ ★ ★

◆ لكن شراب التفاح كثيرا ما كان يندفع ـ خلال هذا الشرح ـ متناثرا على وجوههم ، فلم تكن النكتة تفوت رجل الدين قط ، بل كان يقول وهو يطلق ضحكة غليظة : « ان جودته تقفز الى البصر ! » .. كان رجلا طيبا ، فلم يستنكر ما نصح به الصيدلى شارل ـ ذات يوم ـ من ان يتيح لزوجته شيئا من الترويح يسليها ، بان يصحبها الى المسرح فى (روان) ليسمعا المغنى الشهير «لاجاردى». ودهش « هوميه » لصمت القس ، فاراد أن يعرف رايه ، واذ ذاك صرح القس بانه يرى الموسيقى اقل خطرا على الاخلاق من الأدب .. غير أن الصيدلى انبرى

يدافع عن الادب ، فقال ان المسرح يعمل على محاربة الخرافات والاباطيل ، وانه يدعو الى الفضيلة من تحت ستار اللهو • ومضى يقول : « انه يقوم العادات عن طريق الضحك يا سيد بورنيسيان ! •• الا تأمل الدور الجليل الذى لعبتـه مسرحيات « فولتير » •• لقد رصعت بالافكار الفلسفية ببراعة ، مما جعلها مدرسة يتلقى عنها الشعب الاخلاق والديبلوماسية »

فقال « بينيه » : « لقد شهدت مرة مسرحية كان اسمها « فتى باريس » ، ترى فيها شخصية ضابط كبير مسن ، يضرب ضربا مبرحا ، اذ يتشـاجر مع شاب مدلل اغوى عاملة ، اقدمت فى النهاية •• » ، فقاطعه « هوميه » مواصلا حديثه : « من المؤكد ان ثمة ادبا سيئا ، كما ان هناك صـيدلة سيئة ، ولكنى ارى ان اتهام اهم الفنون الجميلة ـ فى مجموعه ـ بالافساد ، بلاهة •• تعصب اعمى يليق بذلك العصر البغيض الذى قضى فيه على « جاليليو » بالسجن ! » •• فقال القس معارضا : « اننى اعرف تماما ان هناك مؤلفات طيبة ، ومؤلفين طيبين ، ولكن •• لو ان الامر اقتصر على تلك الشخصيات من الجنسين المختلفين ، تجتمع فى غرفة فاتنة ، مزينة باسباب الترف الدنيوية ، وتلك الاصوات الناعمة •• فان كل هذا لا بد ان يؤدى على طول الزمن الى شىء من الفجور الذهنى ، ويثير افكارا بعيدة عن الحشمة ، واغراءات غير طاهرة •• هذه ، على اية حال ، فكرة رجـال الدين جميعا » • ثم اردف وقد اتخذ فجأة لهجة رجل الدين ، وهو ينسق على ابهامه قبضة من السعوط : « واخيرا ، اذا كانت الكنيسة تستنكر المسرح ، فلابد ان لديها ما يبرر ذلك ، وعلينا ان نرضخ لاوامرها » •• فتساءل الصـيدلى : « ولماذا تقضى الكنيسة على الممثلين بالحرمان •• فى حين انهم كانوا فيما مضى يساهمون جهرا فى الطقوس الدينية ؟ •• اجل ، كانوا يمثلون ويقدمون فى قلب المحراب انواعا من التهريج اسموها اسرارا ، وكانت قوانين الحشمة والحياء كثيرا ما تنتهك فيها ! » •• واكتفى رجل الكنيسة بان بعث انينا خافتا ، بينما مضى الصيدلى يقول : « كذلك الحال فى التوراة ، فهناك •• كما تعلم •• اكثر من رواية شائكة ، عن اشياء •• فى الواقع •• خليعة ! » •• واذ صدرت من الاب « بورنيسيان » حركة منفعلة ، قال : « آه ! •• انك ولا بد تقر بانه كتاب ينبغى ان لا يوضع بين يدى فتاة صغيرة •• ولسوف يغضبنى ان «اتالى» •• » • فصاح الآخر وقد نفد صبره : « ولكن البروتستانت ـ لا نحن ـ هم الذين يفرضون التوراة »

فقال « هوميه » : « هذا لا يهم •• اننى لأدهش اذ ارى فى ايامنا هذه ، فى عصر النور ، من لا يزال يصر على ان يلعن ـ دون تبصر ـ وسيلة من وسـائل الترويح الذهنى ، لا ضرر منها ، وانما هى خلقية ، بل وصحية احيانا •• اليس كذلك يا دكتور ؟ » •• فاجاب الطبيب فى غير اكتراث ـ اما لأنه كان يعتنق

الرأى ذاته ولم يشأ ان يغضب احدا ، او لأنه لم يكن على رأى ما البتة : « بلا شك ! » .. ولاح أن النقاش اوشك أن ينتهى ، عندما راق للصيدلى ان يطلق سهما اخيرا من جعبته ، فقال : « اننى لأعرف قساوسة يرتدون الثياب العادية ، ليسعوا الى رؤية الراقصات وهن يحركن سيقانهن ! » .. فقال القس : « كفى ، كفى ! » .. فعاد « هوميه » يكرر : « اجل عرفت بعضهم ! » ، ثم ردد العبارة ، مفرقا كلماتها : « عرفت .. بعضهم ! » .. فقال « بورنيسيان » ، موطنا نفسه على أن يسمع أسوأ ما فى الأمر : « فليكن .. لقد كانوا على خطأ ! » .. وصاح الصيدلى : « لعمرى .. انهم ليأتون ما هو اكثر من هذا ! » ، فاجاب رجل الكنيسة : « سيدى ! » ، وتبدى فى عينيه غضب أرهب الصيدلى ، فقال فى لهجة أقل قسوة : « انما قصدت أن أقول ان التسامح هو اضمن الطرق لاجتذاب الناس الى الدين » .. فاجاب الرجل الصالح : « هذا حق ! .. هذا حق ! » .. وعاد يجلس فى مقعده ، ولكنه لم يمكث سوى لحظات قلائل ..

وما ان انصرف ، حتى قال السيد هوميه للطبيب : « هــذا ما يسمى صراع الديكة ! .. لقد مرغته فى الهزيمة ، كما رأيت ! .. على اية حال ، صدقنى واصطحب السيدة الى المسرح ، ولو لتغيظ مرة فى حياتك واحدا من هؤلاء الغربان المناكيد ! .. لو اننى وجدت من يقوم بعملى ، لصحبتكما بنفسى ! .. ولا تضيعا الوقت ، فان « لاجاردى » لن يقيم سوى عرض واحد ، لأنه متعاقد فى انجلترا لقاء اتعاب ضخمة .. انه ــ على ما يؤكدون ــ يطير الى حيث يكون المال ! .. انه ليتمرغ فى الذهب ! .. ولسوف يصحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! .. ان هؤلاء الفنانين الكبار جميعا يوقدون الشمعة من طرفيها ، فهم يسعون الى حياة داعرة تتمشى بعض الشىء مع خيالهم ، حتى اذا حان اجلهم ، ماتوا فى المستشفيات ، لأنهم لم يؤتوا من التعقل فى شبابهم ما يوحى اليهم بالادخار والاقتصاد ! .. والآن ، طاب عشاؤك ، والى الغد ! »

★ ★ ★

◆ اخذت فكرة المسرح تختمر سريعا فى رأس « بوفارى » ، فبادر بنقلها الى زوجته ، التى رفضت فى البداية ، متعللة بالتعب والخور والنفقات .. ولــكن « شارل » ــ على غير عادته ــ لم يتراجع . فقد قدر ان هذا النوع من الترفيه سيكون عظيم النفع ، ولم ير ما يحول دونه ، اذ كانت امه قد ارســلت لهما ثلاثمائة فرنك لم يكن شديد الحاجة اليها بعد ان قلت ديونه الجارية ، كما ان موعد استحقاق سندى « لوريه » كان بعيدا بحيث لا تدعو الحاجة الى التفــكير فيهما فى الوقت الراهن . هذا فضلا عن انه توهم أن « ايما » كانت ترفض من قبيل المجاملة أو الاشفاق ، فازداد اصرار ، حتى انتهت الى ان لا خلاص من الحاجه الا بالقبول .. ومن ثم رحلا فى الساعة الثامنة من اليوم التالى ، مســتقلين

« المصفورة » • وتنهد الصيدلى اذ رآهما يتحركان ، فما كان ليبقيه فى (ايونفيل) سوى شعوره بان ليس فى وسعه ان يتزحزح عنها •• وقال لهما : « هيا •• رحلة طيبة ايها السعيدان ! » •• ثم خاطب « ايما » ـ التى كانت ترتدى ثوبا من الحرير الازرق ذا اربع ثنيات ـ قائلا : « انك لتبدين فى جمال الهة الجمال ، وما احسبك الا ستبهرين روان ! »

ونزلا فى فندق « الصليب الأحمر » بميدان (بو فوازان) • وكان ككل فنادق الريف ، ذا حظائر كبيرة ، ومخادع صغيرة ، وتسرح الدواجن فى فنائه ملتقطة الحب من تحت حواف عربات التجار المتجولين ، الملطخة بالوحل •• كان بيتا عتيقا ، ينخر السوس شرفاته التى كانت تبعث صريرا اذا ما هبت الريح فى ليالى الشتاء •• وكان يحفل دائما بالناس والضجة ، والآكلين •• وكانت موائد الفندق السوداء ملطخة ببقع القهوة والخمر ، وقد استحال لون زجاج نوافذه السميك الى الصفرة من آثر الذباب ، وتندت المناشف التى يقدمها لنزلائه بالنبيد الرخيص ، ففاحت منها روائح الريف ، وبدت كملابس اهل المدن التى يرتديها عمال الزراعة فى أيام الآحاد ! •• كما كان به مقهى يطل على الشارع ، والحقت به ـ من ناحية الحقول ـ حديقة زرعت بالخضر • وبادر «شارل» لتوه الى المسرح ، ليحجز مقعدين ، فراح يخلط بين المقاعد الأمامية ومقاعد « الصـــالة » ، وبين « البلكون » و « الالواج » ، واستفسر فلم يفهم ، واحيل من نافذة الحجز الى مدير المسرح ، ثم عاد الى الفندق ، ورجع ثانية الى المسرح ! •• وهكذا اجتاز البلدة بطولها عدة مرات ، من المسرح الى الميدان •• اما زوجته ، فابتاعت قبعة وقفازين وباقة ورد • وكان السيد فى خوف شديد من ان تفوتهما بداية العرض ، فلم يضيعا وقتا فى احتساء قدح من الحساء •• وكانت النتيجة ان وصلا الى أبواب المسرح وهى ما زالت بعد مغلقة !

الفصل الخامس عشر

• كان الناس يستندون الى جدران دار المسرح فى الانتظار ، وقد اصطفوا بين السياجين القائمين عند المدخل •• وعند نواصى الشوارع المجاورة كانت لوحات الاعلان الضخمة تحمل بحروف ملتوية زخـرفية : « لوسى دى لامرمور •• لاجاردى •• أوبرا •• الخ » •• وكان الجو بديعا ، ولكن الناس ما لبثوا أن شعروا بالحر ، فأخذ العرق يسيل بين غدائر شعور النساء ، وظهـرت المناديل من جيوب الرجال لتجفف الجباه المحمرة • وكانت تهب من النهر بين آن وآخر نسمة حارة ، فتهز فى رفق اللافتات المعلقة

عند أبواب الحانات .. ومع ذلك ، وعلى مسافة بسيطة ، كان المرء يجد تيارا باردا ينعشه ، معبقا بروائح الشحم والجلد والزيت .. روائح شارع «ديه شاريت» الملىء بالحوانيت السوداء الكبيرة ، حيث تصنع البراميل ..

وخشيت « ايما » أن يثير وقوفهما الضحك ، فرغبت فى أن تتمشى فى الميناء ، قبل دخول المسرح . ولكنهما ما لبثا أن ولجا المسرح ، فأخذ قلب « ايما » يخفق بمجرد أن بلغا البهو . وابتسمت فى زهو ـ على الرغم منها ـ اذ رأت الجمهور يتدافع يمينا خلال ردهة أخرى ، بينما كانت تصعد درجات السلم الى مقعديهما المحجوزين . وابتهجت فى غبطة الطفل وهى تتحسس بأصابعها الباب المبطن بالسجاد ، واستنشقت بكل قوتها العبير الممتزج بالغبار المتصاعد من الردهات ، حتى اذا جلست فى مقصورتهما ، مالت الى الأمام فى بساطة كما لو كانت احدى الدوقات ! .. وأخذ المسرح يمتلىء ، وأخرجت منظارات الأوبرا المقربة من حوافظها ، وأخذ أصحاب المقصورات المحجوزة طوال الموسم يتبادلون النظرات والتحيات .. لقد جاءوا ينشدون فى الفنون الجميلة ترويحا ، بعد مشاغل « البورصة » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا العمل ، فظلوا يتحدثون عن الأقطان ، أو

الخمور ، أو النيلة (المادة التى تستخدم فى الصباغة) • وكانت وجوه الكهول ترى خالية من أى تعبير ، تعلوها سكينة مطمئنة ، وقد بدوا بشعورهم الفضية وبشراتهم كالايقونات ، أوالميداليات الفضية التى تعرضت لبخار القصدير ! •• وكان الشبان المتأنقون يجوسون خلال « الصالة » ، يعرضون ـ خلال فتحات صداريهم ـ ربطات العنق الوردية ، أو تلك التى فى لون التفاح الأخضر •• وكانت مدام « بوفارى » تتبعهم فى اعجاب ـ من عل ـ وهم يتكئون على عصيهم ذات المقابض الذهبية التى تبرز خلال أيديهم المكسوة بالقفازات الصفراء ••

وما لبثت مصابيح مقصورة الفرقة الموسيقية أن أضيئت ، وكانت احدى الثريات تتدلى من السقف ، ناشرة بتألق جوانبها بهجة مفاجئة على المسرح •• ثم أقبل الموسيقيون واحدا بعد آخر ••وسمع فى البداية ضجيج النغمات الغليظة من«الكمنجات» الكبيرة ، ثم الأنغام الرفيعة من «الكمنجات» العادية ، ودوى الأبواق ، وصفير الناى والمزمار •• على أنه لم تلبث أن انبعثت على منصة المسرح ثلاث دقات ، فأرسلت الطبول دقات متتابعة ، وصدرت بعض ألحان من الآلات النحاسية •• ثم رفعت الستار ، فكشفت عن منظر ريفى : ملتقى طرق فى غابة ، ونافورة ـ الى اليسار ـ تظلها شجرة بلوط ، وفلاحين ، وسادة تعلو أكتافهم أشرطة ، ويرددون معا احدى أغنيات الصيد • ثم ظهر فجأة قائد رفع يديه الى السماء ، يستعين بروح الشر •• وما لبث أن ظهر شخص آخر ، فانصرفا معا ، وعاد الصيادون من جديد !

★ ★ ★

◆ وشعرت « ايما » بنفسها ترتد الى ما كانت تقرأ فى صباها •• الى غمار قصص « وولتر سكوت » •• وخيل اليها انها تسمع خلال الضباب انغام موسيقى القرب الاسكتلندية ، تتردد فوق المرج •• ثم ساعدها تذكر الرواية على أن تفهم ما كان يجرى على المسرح ، فراحت تتتبع القصة عبارة بعد عبارة ، بينما بددت الموسيقى فى الحال الأفكار المبهمة التى راودتها •• واطلقت نفسها مع الألحان الرخيمة ، فخيل اليها ان كيانها يتذبذب ، كما لو كانت اقواس « الكمنجات »

تجرى على اعصابها ! .. ولم تكن عيناها تسعفانها لتحيط بكل الأزياء ، والمناظر، والممثلين ، والاشجار المرسومة التى كانت تهتز اذا اقترب منها احد ، والقلنسوات المخملية ، والأوشحة ، والسيوف .. وكل تلك الاشياء الخيالية التى راحت تطفو مع الانغام المنسجمة وكانها تحلق فى جو عالم آخر . وما لبثت ان ظهرت امراة شابة ، وهى تلقى كيسا الى فارس فى زى اخضر ، ثم بقيت وحيدة ، وسمع الناى يرسل انغاما كخرير النافورة ، او تغريد العصافير .. وعزفت « لوسى » على قيثارتها نغما عاليا ، واخذت تشكو الهوى ، وتتوق الى جناحين .. وتمنت « ايما » بدورها ان تنطلق كذلك طائرة ! .. وفجاة ، ظهر « ادجار لاجاردى ».. كان على شىء من ذلك الشحوب البديع الذى يخلع رواء المرمر على ابناء الجنوب النشيطين . وكان صدره البادى الفتوة يحتويه صديرى محكم الالتفاف ، ذو لون بنى ، وقد تدلى على فخذه الايسر خنجر صغير ذو نصل عريض . وراح يجول بنظراته فيما حوله وهو يبتسم ، كاشفا عن اسنان بيضاء .. كان يقال ان اميرة بولندية سمعته ذات ليلة يغنى على شاطىء بياريتز ، حيث كان يصلح القوارب ، فتدلهت فى هواه ، وافسدت حياتها على نفسها من اجله .. ثم هجرها هو من اجل نساء اخريات ! .. ولم تؤد هذه السمعة العاطفية الا الى اذكاء شهرته الفنية ، حتى لقد اعتاد هذا الماجن الواسع الحيلة ان يدس دائما فى اعلاناته بعض عبارات شاعرية عن فتنة شخصه ، وارهاف عواطفه .. كان فن هذا الدجال الرائع نتاج صوت عذب ، وهدوء رصين ، ووليد مزاج اكثر منه ذكاء ، والقاء اكثر منه غناء .. وقد خلقت له هذه الصفات طبيعة فاتنة ، يشوبها شىء من طباع الحلاق ومصارع الثيران !

ومنذ الفصل الاول الهب المشاعر ، اذ ضم « لوسى » بين ذراعيه ، ثم افلتها..وبدا قانطا..وانتابته فورات من الغضب .. وراح يصدر آهات حزينة لا حد لعذوبتها .. وكانت الأنغام المنسابة من حلقه زاخرة بالنهنهة والقبلات.. ومالت « ايما » الى الامام لتراه ، وهى تتشبث – باظافرها – بالمخمل الذى يكسو المقصورة .. كانت تملأ فؤادها بهذا الغناء الحزين الذى صحبته انغام من اكمان الكبيرة ، بدت كانها صرخات غريق فى عنفوان الانواء ! .. وتذكرت كل النشوة وكل الشجن اللذين كادا يقتلانها .. ولاح لها ان صوت الممثلة الأولى لم يكن سوى اصداء نفسها ، وان هذا التمثيل الذى اشجاها لم يكن الا قطعة من صميم حياتها .. ولكن احدا فى الدنيا لم يولها مثل هذا الحب .. لم يبك كما بكى « ادجار » – الممثل الاول – فى الليلة المقمرة الاخيرة ، وهو يودع حبيبته ! .. واهتزت ارجاء المسرح بالهتاف ، فاعيد المشهد من جديد .. وراح العاشقان يتحدثان عن الزهور التى يتمنيان ان تظلل قبرهما ، وعن العهود ، والبعاد ، والقدر ، والآمال .. حتى اذا تبادلا الوداع الاخير ، ندت من « ايما » صرخة

حادة ، ضاعت فى ضجيج الانغام الاخيرة ، فتساءل بوفارى : « عجبا ٠٠ هل ظلمها ذلك السيد ؟ » ٠٠ فاجابت ايما : « لا ، لا ! ٠٠ انه حبيبها ! »

ـ ولكنه يقسم ان ينتقم من اسرتها ، فى حين ان السيد الآخر الذى ظهر قبله كان يقول : « اننى احب لوسى ٠٠ وهى تحبنى ! » ٠٠ كما انه خرج متابطا ذراع ابيها ٠٠ اذ لا بد ان ذاك الرجل الضئيل الجسم ، القبيح الوجه ، والذى يضع ريشة فى قبعته ، هو ابوها ؟

وعلى الرغم من ايضاحات ايما لموضوع المسرحية ، فان شارل لم يكد يرى خاتم الخطبة الزائف الذى اعد لخداع «لوسى» ـ عندما راح «جلبير» يشرح لمولاه « اشتون » مناوراته الخبيثة ـ حتى ظن انه هدية غرامية ارسلها « ادجار » ٠٠ بل لقد صرح ـ فوق ذلك ـ بانه لم يفهم القصة لان الموسيقى كانت تطغى على الكلام كثيرا ٠٠ فقالت « ايما » : « وما قيمة هذا ؟ ٠٠ الزم الصمت ! » ، فقال وهو يميل على كتفها : « انما احب ان افهم ما يجرى كما تعلمين » ٠ فصاحت فى ضيق : « اسكت ! ٠٠ اسكت ! »

وتقدمت « لوسى » ، تكاد وصيفاتها يحملنها ، وفى شعرها اكليل من زهور البرتقال ، وقد كاد شحوبها يغلب بياض ثوبها الحريرى ٠٠ وتذكرت ايما يوم زفافها ، وتمثلت نفسها ثانية فى قريتها ، بين حقول القمح التى كانت تحف بالطريق الذى ساروا فيه الى الكنيسة ٠ آه ، لم لم تقاوم وتتوسل كهذه المراة ؟ ٠٠ لقد كانت ـ على العكس ـ مغتبطة ، لا تبصر الهوة التى كانت تلقى بنفسها فيها ٠ آه ! ٠٠ لو انها استطاعت فى نضارة شبابها ـ قبل أدران الزواج ، وقبل أن تتبدد الآمال التى عقدتها على علاقتها الفاسقة برودولف ـ ان تقيم حياتها على قلب كبير قوى ، لامتزجت الفضيلة ، والفجور ، والحنان ، والواجب، فى حياتها ، ولما هوت من مثل هذه الهناءة الرفيعة !

على ان هذه الهناءة ولا بد اكذوبة موهومة لكبح كل شهوة ٠ لقد اصبحت تدرك مدى ضآلة العواطف التى يبالغ الفن فى تصويرها ٠ ومن ثم اخذت تجاهد لتتحول عن افكارها ، وقد قررت الا ترى فى هذا التمثيل ـ الذى يصور لها اشجانها ـ اكثر من انتاج تصويرى يمتع الابصار ٠٠ حتى انها لم تلبث ان ابتسمت فى رثاء مترفع حين رات ، تحت الستائر المخملية فى مؤخرة المسرح ، رجلا فى معطف اسود ، سرعان ما سقطت قبعته الاسبانية العريضة الحواف بحركة من يده ٠ وفى الحال ، انطلقت الانغام العالية من الآلات الموسيقية ومن المغنين ، فاستشاط « ادجار » غضبا ، ورفع عقيرته بالغناء ، فطغى صوته الجهورى على الجميع ٠٠ فانبرى له « اشتون » بعبارات مثيرة ، قاتلة ٠٠ وارسلت « لوسى » ضراعتها بصوت صارخ ٠٠ وكان « آرثر » يؤدى دوره ـ على حدة ـ بصوت متوسط الجرس ، بينما انساب صوت القس خفيضا كانه الارغن ، فكانت

أصوات النساء تردد كلماته فى غناء جماعى بهيج ..

كانوا جميعا فى شجار ، وقد اختلطت اشاراتهم ، بينما كان الغضب ، والانتقام ، والغيرة ، والفزع ، والذهول ، تنبعث جميعا فى وقت واحد من افواههم المفتوحة .. وراح العاشق الغاضب يلوح بسيفه المشهر ، وزوائد « الدانتيلا » التى توشى قميصه تهتز مع تهدج صدره ، وقد اخذ يسير من اليمين الى اليسار بخطى واسعة ، وهو يدق الارض بمهمازين فضيين ثبتا الى حذاءيه الرقيقين .. وخيل لايما ان معين الحب لديه لا ينضب ، والا ما راح يغدق منه على الجمهور بمثل هذه الطلاقة ! .. وتوارت الأخطاء التافهة التى كانت تحصيها عليه فى روعة التمثيل التى استولت على لبها . واخذت تشعر بان سحر شخصية ذلك الرجل يجتذبها اليه .. وحاولت ان تصور لنفسها حياته .. تلك الحياة المدوية ، العجيبة ، الرائعة ، التى كان من الممكن ان تكون حياتها هى ، لو ان القدر شاء فجعلهما يتعارفان ، ويحب كل منهما الآخر .. انها اذ ذاك كانت تطوف معه بكل ممالك اوربا ، متنقلة من عاصمة الى عاصمة ، تشاطره التعب والمجد ، وتلتقط الزهور التى تلقى عليه ، وتوشى باشغال ابرتها ثيابه .. وتلوذ – فى كل ليلة – باحدى المقصورات ، تعب فى نهم انطلاقات روحه التى تتمثل فى اغان يشدو بها لها وحدها ، ويتطلع اليها وحدها ، وهو يؤدى دوره على المسرح !! .. وما لبثت ان تملكتها فكرة جنونية اوحت اليها بانه يتطلع اليها بالفعل .. بالتاكيد .. وتاقت الى ان تجرى الى احضانه ، وان تاوى الى قوته الفتية ، وكان الحب قد تجسد فى شخصه .. وان تقول له ، بل تصيح فيه : « خذنى بعيدا ! .. احملنى معك ! .. لنرحل ! .. انت ، انت . كل وجدى ، وكل احلامى ! » .. وفى ذلك الوقت اسدلت الستار !

* * *

◆ واختلط عبير غاز الاستصباح بالانفاس ، ولم تزد المراوح الجو الا ثقلا خانقا ، فرغبت « ايما » فى الخروج ، ولكن الناس كانوا يملاون الردهات ، فتهالكت فى مقعدها الوثير ، وراحت انفاسها تتعثر فى حلقها حتى كادت تخنقها . وخشى « شارل » ان يغمى عليها ، فجرى الى المقصف ليحضر لها كوبا من ماء الشعير .. ووجد عناء شديدا فى العودة الى مقعده ، اذ كان مرفقاه يصدمان فى كل خطوة بسبب الكوب الذى كان يحمله ، حتى انه سكب ثلاثة ارباعه على منكبى سيدة من (روان) كانت ترتدى ثوبا قصير الكمين ، فما ان احست بالسائل البارد يجرى الى ردفيها ، حتى اخذت تصرخ كالطاووس ، كما لو كانت تذبح ! .. واندفع زوجها – وكان من اصحاب مصانع النسيج – الى صاحبنا المرتبك ، وبينما كانت تمسح البقع عن ثوبها الانيق المصنوع من نسيج من « التافتاه » فى لون « الكريز » ، راح يتحدث مغضبا عن الخسارة ، والنفقات ، والتعويض .

وبلغ « شارل » مكان زوجته اخيرا ، فقال وهو يلهث : « لعمرى ! ٠٠ لقد خيل الى اننى سأظل هناك ! ٠٠ ياللخلق ٠٠ ياللحشـــد ! » ٠٠ ثم اردف قائلا : « احدسى ٠٠ من قابلت هناك ! ٠٠ السيد ليون ! » ، فهتفت : « ليون ! » ٠٠ قال : « بالذات ! ٠٠ انه آت ليقدم تحياته ! » ٠ وما ان اتم كلماته ، حتى ولج المقصورة ، الشاب الذى كان من قبل كاتبا فى (ايونفيل) ، فبسط يده بطريقة السيد المهذب الراقى ، وبسطت مدام « بوفارى » يدها فى حركة آلية ، منصاعة لجاذبية ارادة قوية بلاشك ٠ لم تكن قد مست يده منذ تلك الليلة من ليالى الربيع ، التى سقط فيها المطر على أوراق الشجر الخضراء ، وهما يتبادلان تحية الوداع لدى النافذة ٠ على انها ما لبثت ان تذكرت مقتضيات الموقف ، فطرحت عنها عبء الذكريات فى جهد ، واخذت تتمتم متلعثمة ، متعجلة ، ببضع كلمات: « آه ! ٠٠ طاب يومك ! ٠٠ عجبا ! ٠٠ اانت هنا ؟ » ٠٠ وتصاعدت من «الصالة» اصوات تصيح : « صمتا ! » ، اذ كان الفصل الثالث قد بدأ ٠٠

– اذن ، فانتما فى روان ؟ – اجل ٠٠ – ومنذ متى ؟

واخذ الناس يتطلعون نحوهم٠٠وصاحت اصوات : «اخرجوهم ! اخرجوهم !» ، فلاذوا بالصمت ٠٠ بيد أن « ايما » لم تعد تسمع شيئا منذ تلك اللحظة ٠٠ كانت اغانى المدعوين لحفلة الزفاف (فى الرواية) ، والمشهد الذى جرى بين « اشتون » وخادمه ، والمشهد الغنائى الكبير ٠٠ كل هذه كانت بعيدة عنسمعها، وكأنما كانت الآلات الموسيقية تزداد خفوتا ،٠والممثلون يزدادون نأيا ٠٠ وتذكرت لعب الورق فى دار الصيدلى ، والسعى الى دار المرضعة ، والقراءة فى الخميلة ، والاحاديث الخافتة الى جوار المدفأة ٠٠ كل هذا الحب البائس ، بما كان يتصف به من هدوء ، وتردد طال أمده ، وتعقل وتكتم ، ورقة وحنان ٠٠ ومع ذلك فقد نسيته ! ٠٠ ولماذا عاد الشاب ؟ ٠٠ اية ظروف تجمعت لتعيده الى حياتها ؟ ٠٠ وكان هو يقف خلفها ، مستندا بكتفه الى جدار المقصورة ، فاخذت تحس – بين آن وآخر – برجفة تحت الانفاس الحارة التى تنساب من انفه الى شعرها ٠٠ وانحنى مقتربا منها ، حتى مست ذؤابة شاربه خدها ، وسألها : « أويروق لك هذا ؟ » ٠٠ فاجابت فى غير اكتراث : « آه ، يا الهى ! ٠٠ لا ! ٠٠ لا يروق كثيرا ! » ٠٠ واذ ذاك اقترح أن يخرجوا من المسرح ، وأن يذهبوا الى اى مكان فيتناولوا بعض المثلجات ، فقال « بوفارى » : « لا ٠٠ لم يحن الوقت ٠٠ فلنمكث ! ٠٠ ان شعرها غير منسق ٠٠ ان هذا الفصل يوحى بالمأساة » !

على أن الفصل « الحافل » لم يلذ لايما على الاطلاق ، ولاح لها تمثيل المطربة مليئا بالمغالاة ، فقالت وهى تلتفت الى « شارل » الذى كان منصرفا للاصـــغاء : « انها تصرخ بصوت مرتفع » ، فاجاب وهو موزع بين رضائه عن التمثيل وبين احترامه لرأى زوجته : « أجل ٠٠ بعض الشىء ! » ٠٠ وما لبث « ليون » ان قال

وهو يزفر : « ان الحر ٠٠ » ، فاكملت « ايما » عبارته : « لا يطاق ، حقا ! » ٠٠ فسالها بوفارى : « هل تضـــايقت ؟ » ٠٠ اجابت : « اجل ، اننى اختنق ٠٠ لننصرف ! »

وطرح السيد « ليون » على كتفيها ـ برفق ـ الشال الطويل المصـــنوع من « الدانتيلا » ، وخرج ثلاثتهم ليجلسوا فى هواء الميناء الطلق ، خارج الواجهة الزجاجية لأحد المقاهى ٠٠ وتحدثوا فى البداية عن مرض « ايما » ، وان راحت هى تقطع على «شارل» الحديث من آن لآخر، خشية ان يثقل على السيد «ليون»٠ وقال لهما هذا انه جاء ليقضى عامين فى (روان) ، فى مكتب كبير ليحظى بمران متين ، تاهبا لممارسة مهنته ، نظرا لأن القضايا فى (نورماندى) كانت تختلف عما يدرس فى باريس ٠ ثم سال « ليون » مدام بوفارى عن « بيرت » ، وآل « هوميه » ، والام « لوفرانسوا » ٠ وما لبث الحديث ان توقف ، اذ لم يعد لديهما مزيد من الكلام الذى يستطيعان ان يتبادلاه فى حضور الزوج ! ٠٠ ومر على الرصيف بعض من كانوا فى المسرح ، وهم يترنمون فى خفوت ، او باعـلى اصواتهم باغنية : « أواه يا ملاكى الجميل ٠٠ يا حبيبتى لوسى » ! ٠٠ اذ ذاك تحول « ليون » الى الحديث عن الموسيقى ليوحى بانه يهواها ٠٠ كان قد رأى « تامبورينى » ، و « روبينى » ، و « برسيانى » ، و « جريسى » ، وقال ان « لاجاردى » رغم تالقه لا يقارن بهم ٠٠ فقاطعه « شارل » ـ الذى كان يرشف شرابه فى بطء ـ قائلا : « ومع ذلك ، يقال انه فى الفصل الأخير اروع مايكون٠ انى لآسف اذ انصرفت قبل النهاية، لان التمثيل كان قد بدا يلذ لى» ٠٠فقال الكاتب: « اطمئن ، فلسوف يقيم حفلة اخرى قريبا » ٠٠ ولكن « شـارل » قال انهما راجعان فى غدهما ، ثم استدرك ملتفتا الى زوجته : « اللهم الا اذا شئت ان تبقى وحدك يا قطيطتى ! »

وبادر الشاب الى تغيير اساليبه ازاء هذه الفرصة غير المرتقبة التى تتفق مع آماله ، ومن ثم أخذ يسهب فى اطراء دور « لاجاردى » فى الفصل الأخير ،قائلا انه خارق ، راق ٠٠ واذ ذاك راح شارل يلح : « تستطيعين ان تعودى يوم الاحد ٠٠ هيا ، بتى فى الامر ٠٠ اذا شعرت ان هذا يروق لك فمن الخطا ان ترددى » ٠٠ وكانت الموائد حولهما قد بدات تخلو ، واقبل ساق ، فوقف بالقرب منهـم متحرجا ٠ وبادر « شارل » ـ الذى ادرك سر وقوفه ـ فاخرج كيس نقوده ، ولكن الكاتب رد ذراعه ٠٠ ولم ينس ان يترك قطعتين من العملة الفضية ـ رنا عـلى الرخام ـ فوق الحساب ٠٠ فقال « بوفارى » : « اننى مستاء حقا ، لهذه النقود التى ٠٠ » ، فاشار الآخر يسكته فى ود ، وتناول قبعته قائلا : « اتفقنا ٠٠ اليس كذلك ؟ ٠٠ سنلتقى فى السادسة من مساء غد ! » ٠٠ واعتذر « شارل » مرة اخرى ـ عن نفسه ـ بانه لا يستطيع ان يطيل غيابه ، ولكن لا شيء يمنع

« ايما » •• فقالت متلعثمة ، وهى تبتسم ابتسامة غريبة : « ولكنى لست متاكدة •• »

ـ لا باس ! •• يجب ان تفكرى فى الأمر ! •• سوف نرى ما يكون ، فالليل جلاب للآراء !

ثم خاطب « ليون » الذى كان يسـير معهما قائلا : « اما وقد اصبحت فى منطقتنا ، فآمل ان تاتى لتتناول معنا العشاء بين وقت وآخر » •• فاكد الكاتب انه لن يتوانى عن ذلك ، لا سيما وانه مضطر الى الذهاب الى (ايونفيل) لبعض مهام المكتب الذى يتدرب فيه • ثم افترقوا عند ممر « سان هربلان » ، وساعة الكاتدرائية تدق معلنة منتصف الحادية عشرة •

- ٣ -

الفصل الأول

◆ كان السيد « ليون » ـ خلال دراسة القانون ـ قد اكثر من غشيان مرقص الطلبة المسمى «لاشوميير» ، حيث قدر له ان يظفر بنجاح كبير بين الفتيات اللائى راين فى مظهره ما يميزه عن سواه ٠٠ كان الطف الطلبة مسلكا ، وكان يقص شعره بحيث لا يدعه مسرفا فى الطول ، ولا شديد القصر ٠ ولم يكن ينفق كل مصروفه فى اليوم الاول من الشهر ، كما كان على علاقات طيبة باساتذته ٠ اما عن التطرف فى نزواته ، فهذا ما كان يحجم عنه دائما ، جبنا منه وترفعا ، فى آن واحد ٠٠ وكثيرا ما كان يمكث فى غرفته للقراءة ٠٠ كما كان كثيرا مايترك كتاب القانون يهوى الى الأرض ـ وهو جالس فى بعض الامسيات تحت اشجار الزيزفون فى حدائق لوكسمبورج ـ حين تعاوده ذكرى « ايما » ! ٠٠ على ان هذا الشعور لم يلبث ان تضاءل ، واخذت تعدو عليه شهوات اخرى ، وان ظل يتارجح فوقها ٠٠ فان « ليون » لم يفقد كل امل ، بل ظل لديه فى الواقع رجاء مبهم يطفو على صفحة المستقبل ، كثمرة ذهبية تتدلى من شجرة خيالية ! ٠٠ فلما رآها بعد غياب ثلاث سنوات ، عاد وجده يستيقظ ٠ وخطر له ان يعمل ـ أخيرا ـ على ان ينالها ، لا سيما وان حياءه كان قد انجاب نتيجة اتصاله بزملائه المرحين ، فعاد الى الريف وهو يستصغر كل من لا يطا ارض الشوارع بحذاءين لامعين !

وما كان ثمة شك فى ان الكاتب المسكين كان يرتجف كالطفل ، لو أتيح له ان

يجلس الى جوار امراة باريسية انيقة ، فى حجرة الجلوس بمنزل طبيب لامع أوتى اوسمة ، واوتى عربة ٠٠ اما هنا ، فى (روان) ، وعند الميناء ، وامام زوجة طبيب صغير ، فقد شعر بانه عزيز الجانب ، وتاكد مقدما من ان نجمه لامع ٠٠ فان الثقة بالنفس تتوقف على الوسط الذى يوجد فيه المرء ٠٠ ونحن لا نتكلم فى الطابق الاول بعين اللهجة التى نتكلم بها فى الطابق الرابع ٠٠ والمراة الغنية ، تبدو وكان اوراقها المالية تحوطها لتصون عفتها !

وعندما غادره « بوفارى » وزوجته ، اقتفى خطاهما عن كثب خلال الطرقات ، حتى اذا رآهما يلجان فندق « الصليب الاحمر » ، نكص على عقبيه ، وقضى الليل يفكر فى خطته ٠ فلما كان اليوم التالى ، نفذ فى نحو الساعة الخامسة الى مطبخ الفندق ، وقد شحب صدغاه ، واحس بانه يختنق ، وان تملكه ذلك العزم الذى يواتى الانذال الذين لا يتورعون عن شىء ! ٠٠ واجابه الخادم ، اذ ساله : « ان السيد غير موجود » ٠٠ وراى فى هذا فالا طيبا ، فصعد السلم ٠٠ ولم تنزعج « ايما » لمقدمه ، بل انها - على العكس - اعتذرت لكونهما غفلا عن انبائه بالمكان الذى نزلا فيه ، فقال : «آه ٠٠ لقد حدسته بالتخمين !» ٠٠ وزعم انه اهتدى اليها بالحظ ، بالغريزة ٠٠ وبدات تبتسم ، فبادر - لاصلاح رنته - الى انبائها بانه قضى النهار يطوف بفنادق البلدة جميعا - واحدا اثر الآخر - سائلا عنها ٠ واستطرد قائلا : « هل قررت البقاء ؟ » ٠٠ قالت : « اجل ، وانى لمخطئة فى ذلك ٠ فما ينبغى للمرء ان يمنح نفسه متعا مستحيلة ، عندما يكون وراءه الف مطلب وعمل ٠٠ »

- آه ٠٠ اننى ادرك ٠٠

- آه ! ٠٠ لا ، لانك رجل ٠٠

٠٠ لكن للرجال - هم الآخرون - همومهم ٠٠ واتجه الحديث بهما نحو بعض الأفكار الفلسفية ٠ وراحت « ايما » تسهب فى الحديث عن بؤس العواطف الدنيوية ، والعزلة الابدية التى يظل الفؤاد دفينا فيها ٠ وبدافع من الرغبة فى التظاهر ، او لمجرد مسايرة هذا الاسى الذى اثار اساه ، ذكر الشاب انه كان يعانى ساما فظيعا طيلة دراسته ٠٠ فكان القانون يثقل على نفسه ، وكانت ثمة مهن اخرى تجتذبه ، وكانت امه لا تكف عن مضايقته فى كل خطاب ٠ وفى سياق حديثهما ، اخذ كل منهما يزداد افصاحا عن بواعث اساه ، ويضمنها هذا الاعتراف المطرد ٠ على انهما كانا فى بعض الاحيان يمسكان ، اذ يوشكان ان يكشفا فى جلاء تام عن افكارهما ، ثم يسعيان مع ذلك الى ابتكار عبارة تترجم تلك الافكار ٠٠ ولم تعترف « ايما » بانها تعلقت بسواه ، ولا قال « ليون » انه نسيها ! ٠٠ ولعله لم يعد يذكر عشاءه مع الفتيات بعد حفلات الرقص التنكرية ٠٠ كما انها لم تعد تذكر - بلا ريب - تلك اللقاءات الماضية ، حين كانت تجرى عبر الحقول فى الصباح الى بيت عشيقها ٠ وكان ضجيج البلدة لا يكاد يصل

اليهما ، ولاحت الغرفة صغيرة ، وكأن صغرها كان متعمدا ليقرب بين عزلتهما ٠٠ وكانت « ايما » فى ثوب من البفتة ، وقد طوحت براسها الى مسند مقعد وثير عتيق ، ورسم ورق الحائط الاصفر اطارا ذهبيا خلفها ، وانعكست صورة راسها العارى على المرآة ، وقد بدا مفرق شعرها أبيض ، وبرزت حافتا اذنيها خلال ثنايا شعرها ٠٠

وما لبثت أن قطعت الصمت قائلة : « ولكن معذرة ٠٠ من الخطـــا ان اثقل عليك بشكاياتى الأبدية » ٠٠ فقال : « لا ، أبدا ٠٠ ابدا » ٠٠ قالت وهى ترفع عينيها الجميلتين الى السقف وقد ترقرقت فيهما دمعة : « لو علمت كل ما كنت احلم به ! »

ـ وانا ! ٠٠ أواه ! ٠٠ انا الأخر تعذبت ! ٠٠ كثيرا ما كنت اخرج ، فاذهب بعيدا ، واجر نفسى على طول ضفة النهر ، واهيم فى ضجيج الناس ، دون ان اقوى على دفع العبء الذى يجثم على صدرى ٠٠ وفى حانوت حفار أختـــام فى الطريق ، عثرت على رسم ايطالى لاحدى الحوريات ، متشحة بغلالة ، وقد راحت تتطلع الى القمر ، والزهور تتخلل شعرها المسترسل ٠٠ وكانت ثمة قوة خفية تدفعنى الى هناك باستمرار ، حيث اقضى ساعات طوالا ٠٠

ثم اردف بصـــوت مرتجف : « كانت تشبهك قليـــلا » ٠٠ فاشاحت مدام « بوفارى » بوجهها حتى لا يرى الابتسامة التى احست بها تقفز الى شفتيها دون ان تقوى لها دفعا ٠٠ واستطرد يقول : « وكثيرا ما كنت اكتب رسائل لا البث ان امزقها » ٠٠ ولم تجب ، فواصل الحديث : « وكنت اخال احيـــانا ان المصادفات قد تسوقك ، فكنت أتوهم اننى المحك عند منعطفات الطرق ، وكنت اجرى وراء كل العـــربات التى المح خـــلال نوافذها شالا او قناعا يشـــبهان ما لديك ! » ٠٠ وبدا انها تنوى ان تدعه يتكلم دون ان تقاطعه ، اذ عقـــدت ذراعيها ، ونكست راسها ، وراحت تتامل نقوش خفيها ، وتحرك اصابع قدميها داخلهما ، بين وقت وآخر ٠٠ واخيرا ، تنهدت قائلة : « ولكن الأدعى للأسى ، هو ان تحمل عبء حياة لا جـــدوى منها ، كما افعل ٠٠ أليس كذلك ؟ لو ان آلامنا كانت تعود بالنفع على احد ، لوجدنا عزاء فى فكرة التضحية » ٠٠ فانطلق يطنب فى امتداح الفضيلة ، والواجب ، والتضحية الصامتة ، قائلا انه يشعر برغبة جامحة للتضحية بالنفس ، لا يدرى كيف يشبعها !

وقالت ايما : « لكم أتوق الى ان اكون ممرضـــة فى مستشفى ! » ، فقال : « واأسفاه ! ليس للرجال شيء من هذه المهام ذات القداسة ، فلست أرى لها شبيها فى مهنة ٠٠ اللهم الا مهنة الطب » ٠٠ فقطعت « ايما » عليه حديثه بهزة خفيفة من كتفها ، وتحولت تتحدث عن مرضها الذى اوشك ان يقضى عليها ٠٠ وليته فعل ، فانها ما كانت لتعانى ما تعانى الآن من آلام ! ٠٠ وبادر « ليون »

يحسد القبر لهدوئه وسكينته ، قائلا انه كتب ذات ليلة وصيته ، طالبا ان يكفن فى تلك السجادة البديعة ذات الخطوط المخملية التى تلقاها منها مرة ! ٠٠ وهكذا كانا يتمنيان ان تسير الأمور : كل منهما يقيم من نفسه مثلا اعلى يحاول به اعادة تشكيل ماضيه ليتسق مع هذا المثل ! ٠٠ فضلا عن ان الحديث ـ كحجر المسن ـ يشحذ الشعور ! ٠٠ على ان « ايما » لم تتمالك ان سألت عندما سمعت قصة السجادة : « ولماذا ؟ » ، فقال فى تردد : « لماذا ؟ ٠٠ لأننى ٠٠ لأننى احبك ! » ٠٠ وغبط نفسه اذ اجتاز العقبة ، وراح يرقب وجهها بنظرة مختلسة من ركن عينه ٠٠ كان وجهها كالسماء التى دفعت نسمة من ريح بعض السحب عن صفحتها ٠٠ فاذا ركام الأفكار الحزينة الذى كان يرين على عينيها قد انجاب، واذا وجهها باسره يشرق ! ٠٠ وظل « ليون » يرتقب ٠٠ واخيرا ، قالت : «كنت دائما احدس هذا » !

ثم أخذا يستعرضان كل الأحداث التافهة التى اكتنفت تلك الحياة الماضية ، التى اجملا افراحها واشجانها فى كلمة واحدة ٠٠ تذكرا « تكعيبة » نبات « الداليا » الشوكى ، والثياب التى كانت ترتديها ، واثاث حجرتها ، والبيت باسره

ـ وشجيرات الصبار المسكينة ، اين هى ؟

ـ قتلها البرد فى هذا الشتاء

ـ آه ، اتعرفين اننى كثيرا ما فكرت فيها ! ٠٠ كنت كثيرا ما اتمثلها كعهدى بها فى الماضى ، حين كانت الشمس فى صباح ايام الصيف تطرق مصراعى نافذتك ٠٠ وكنت ارى فى الخيال ذراعيك العاريتين تتنقلان بين الزهور ٠٠

فمدت يدها اليه هاتفة : « يا صديقى المسكين ! » ٠٠ فضغط «ليون» شفتيه الى يدها برفق ٠٠ وبعد ان ملأ صدره بعبيرها ، قال : « كنت لى اذ ذاك قوة غامضة ـ لم ادرك كنهها ـ استولت على حياتى ، فمثلا ، ذهبت مرة كى اراك ٠٠ ولكنك ولا ريب لا تذكرين هذه المناسبة » ٠٠قالت : « بل اذكرها ٠٠ قل!»

ـ كنت فى الحجرة الصغيرة بالطابق الأرضى ، تستعدين للخروج ، وقد اتخذت كل اهبة ٠٠ فكنت تضعين قبعة ذات زهور زرقاء صغيرة ٠٠ وعلى الرغم من نفسى، ودون دعوة منك ، خرجت معك ٠٠ على اننى فى كل لحظة كنت ازداد شعورا بطيشى ، فظللت اسير ، لا اجرؤ على ان اتبعك ، ولا استطيع ان افارقك ٠٠ واذ ولجت حانوتا ، وقفت فى الشارع انتظرك ، وانا اراك خلال النافذة تخلعين قفازيك ، وتعدين النقود على منضدة البائع ٠٠ ثم دققت جرس بيت مدام «توفاش» ، فدعيت للدخول ، بينما ظللت انا واقفا كالغبى امام الباب الكبير الضخم الذى اغلق خلفك !

★ ★ ★

◆ دهشت مدام « بوفارى » اذ خيل اليها ، وهى تنصت ، ان احداث الماضى

ـ حين بعثت فى ذاكرتها ـ راحت توسع من نطاق حياتها ، وتضاعفه ٠٠ كانما كانت ترتد الى فيض عاطفى تدفقت به هذه الأشياء ٠٠ وكانت بين آن وآخر تقول بصوت خافت ، وقد اطبقت جفنيها فى نصف اغماضة : « أجل ، هذا صحيح ٠٠ حقا ٠٠ حقا ! » ٠٠ وسمعت الساعات المختلفة فى حى (بوفوازان) ـ الحافل بالمدارس والكنائس والقصور الكبيرة الخالية ـ تدق معلنة الثامنة ٠ وكفا عن الكلام ، ولكنهما احسا ـ وكل منهما يرمق الآخر ـ ان ثمة دويا فى راسيهما ، كانما كان ينبعث من عينى كل منهما شيء ذو رنين ٠٠ وكانت يد كل منهما فى يد الآخر ، وقد اختلط الماضى بالمستقبل ، والذكريات بالأحلام، فى عذوبة هذه الغيبوبة العاطفية ٠٠ واخذ الليل يزحف على الجدران التى ظلت الوانها الثقيلة تبدو فى اربع صور متوارية فى الظلام ، تمثل اربعة مناظر من (تور دونل) ، وتحتها كلمات بالاسبانية والفرنسية ٠٠ وخلال الجزء العلوى من النافذة ، بدت رقعة من السماء المعتمة ، بين السقوف المدببة ٠٠

ونهضت ايما فاوقدت شمعتين على صوان الملابس ، ثم عادت الى الجلوس ، فهتف ليون : « وبعد ؟! » ٠٠ فرددت : « وبعد ؟! » ٠٠ وكان يفكر فى وسيلة لاستئناف ما انقطع من الحديث ، حين سالته : « كيف حدث ان انسانا ما لم يبح لى حتى اليوم بمثل هذه المشاعر ؟! » ٠٠ فقال الكاتب ان النفوس ذات الفطرة المثلية تستعصى على الادراك ٠٠ فهو قد احبها منذ اللحظة الأولى ، وكان يشعر بالقنوط كلما فكر فى السعادة التى كان من الممكن ان ينعما بها ، لو ان الحظ قادهما الى الالتقاء قبل ذلك فارتبطا بارتباط لا انفصام له ٠٠ فقالت : « انا الاخرى خطر لى هذا » ٠٠ فغمغم : « يا له من حلم ! » ٠٠ واخذ يلمس باصبعه ـ فى رفق ـ الحافة الزرقاء المحيطة بحزامها الأبيض ، ثم اردف : « وما الذى يحول دون ان نبدا من جديد ؟ » ٠٠ فاجابت : « لا ياصديقى ، اننى الآن كبيرة السن ، وانت فى باكورة الشباب ٠٠ الا انسنى! لسوف تحبك اخريات ، وسوف تحبهن ! » ٠٠ فصاح : « لن احبهن كما احبك ! »

ـ يا لك من طفل ! ٠٠ فلنتعقل ! ٠٠ هذه رغبتى !

وبينت له استحالة غرامهما ، وانهما يجب ان يظلا على ما كانا عليه من قبل ٠٠ مجرد صداقة اخوية ٠٠ افكانت فى هذا جادة ؟ ٠٠ لا شك فى ان « ايما » ذاتها لم تكن تدرى ، وهى مستغرقة فى سحر الاغراء ، شاعرة بضرورة الدفاع عن نفسها ازاءه ٠٠ ورمقت الشاب بنظرة اشفاق وتاثر ، وهى تصد المحاولات الخجلى التى بذلتها يداه المرتعشتان لتطويقها ٠٠ فهتف وهو يتراجع : « آه ٠٠! اغفرى لى ! »

واستولى على « ايما » خوف مبهم من هذا الحياء ، الذى بدا لها اخطر من جراة

« رودولف » حين كان يسعى اليها باسطا ذراعيه .. قط ما لاح لها رجل فى مثل جمال هذا الشاب الخجول الذى اسبل اهدابه الطويلة الناعمة التى كانت اطرافها تنثنى الى اعلى .. وخطر لها ان تورد بشرة خده الناعمة ، كان بتاثير اشتهائه لها ، فاحست بشوق جارف لأن تلصق بها شفتيها .. وما لبثت ان مالت نحو الساعة ، كانها تتعرف الوقت ، وقالت : « لكم تاخر الوقت ! .. يا الهى ! كم الهانا الحديث ! » .. وفهم ايعازها ، فتناول قبعته .. بينما استطردت : « بل اننى نسيت التمثيل ! .. مع ان بوفارى المسكين خلفنى هنا خصيصا لذلك ! .. ان السيد « لورو » ـ من شارع (جران بون) ـ لن يلبث ان يفد ليقلنى مع زوجته الى المسرح » .. وهكذا كان مقدرا للفرصة ان تضيع ، اذ انها كانت راحلة فى اليوم التالى .. فهتف ليون : « حقا ؟ » .. قالت : « اجل » .. فقال : « ولكنى يجب ان اراك مرة اخرى ..اذ اريد ان انبئك ...»

ـ بماذا ؟

ـ بامر .. هام ، جدى .. آه ، لا ! .. ما اراك راحلة ، لا يمكن ! .. لو عرفت .. الا انصتى لى .. انك لم تفهمينى اذن ؟ .. انك لم تحدسى اذن ..

قالت ايما : « مع انك تكلمت فى وضوح »

ـ آه ! .. اتمزحين ! .. كفى ، كفى ! .. بحق الرحمة دعينى اراك ثانية .. مرة واحدة .. واحدة !

قالت : « حسنا .. » ، ولكنها امسكت ، ثم اردفت وكانها فكرت فى الأمر : « آه ! .. ليس هنا ! » .. فتساءل : «واين تحبين ؟ » .. فقالت : «اتحب ..» ، وبدا عليها التفكير ، ثم قالت فى ايجاز : « غدا ، فى الساعة الحادية عشرة ، فى الكاتدرائية» .. فصاح متشبثا بيديها وهى تحاول التملص : « ساوافيك هناك ! » .. واذ كانا واقفين ـ هو خلفها ، وهى منكسة الراس ـ فقد انحنى على عنقها ، وطبع قبلة طويلة على قفاها ، فقالت فى ضحكات قصار ، بينما تضاعفت قبلاته : « ولكن هذا طيش منك ! آه ، انك احمق ! » .. واطل براسه فوق كتفها ، كما لو كان يريد ان يقرأ فى عينيها انصياعها ، فاذا عيناها ترمقانه فى كبرياء باردة ! .. وتراجع لينصرف .. ثم توقف لدى الباب ، وهمس فى صوت متهدج : «الى غدا!» ..فاجابت بهزة من راسها ،واسرعت كالطائر تختفى فى الحجرة الداخلية ..

* * *

◆ كتبت « ايما » فى ذلك المساء خطابا طويلا للكاتب ، تحللت فيه من الموعد .. اذ انتهى كل شىء ، ولا يجب ـ من اجل سعادتهما ـ ان يلتقيا مرة اخرى . ولكنها لم تكد تفرغ من الخطاب حتى تولتها حيرة ، لأنها لم تكن تعرف عنوان « ليون » ، ولكنها قالت : « سأسلمه اياه بنفسى ، فهو لا بد آت » .

وفى الصباح التالى ، اخذ « ليون » ينظف حذاءيه بنفسه ، مسبغا عليهما عدة طبقات من الطلاء ، وقد فتح نافذة غرفته ، واخذ يهمهم باغنية خافتة ٠٠ وارتدى بنطلونا ابيض ، وجوربين رقيقين ، وسترة خضراء ، وافرغ كل ما كان يملك من عطور فى منديله ، ثم سعى الى الحلاق فطلب ان ينسق شعره فى تجاعيد ، وعاد فطلب بسطها ليكتسب الشعر رواء طبيعيا !٠٠ ونظر الى ساعة الحلاق ، التى كانت تشير الى التاسعة ، وقال لنفسه : « لا يزال الوقت جد مبكر » ٠٠ ومن ثم تصفح جريدة قديمة للازياء ، وخرج فدخن سيجارا ، وذرع ثلاثة شوارع ، ثم خطر له ان الوقت قد حان ، فسار على مهل الى فناء « نوتردام » ٠٠ وكان الصباح بديعا ، من أيام الصيف ، والحلى الفضية تتالق فى واجهات محال المصوغات ، والضوء يسقط على الكاتدرائية بانحراف ، فيضفى على أركان الأحجار السمراء بريقا ، وسرب من الطيور يحوم فى السماء الزرقاء حول أبراج الأجراس ذات اللون الأخضر ، والمكان يعج بالاصوات ، ويتضوع بشذى الازهار التى كانت تحف بارصفته ، من ورود ، وياسمين ، وزهر الخشخاش ، ونرجس ، وسوسن ، وقد نبتت على مسافات غير متساوية بين النعناع البرى ، والشيح ٠٠ وكانت النافورات فى الوسط تبعث خريرا ، وتحت مظلات واسعة ـ وسط البطيخ الذى تراكم فى أكوام ـ راحت بائعات الزهور يلففن الورق حول حزم البنفسج وهن عاريات الرؤوس ٠٠ وابتاع الشاب حزمة ٠٠ كانت أول مرة يبتاع فيها زهورا لامراة ، فانتفخ صدره زهوا وهو يتنسمها ، وكان هذا التكريم الذى قصد به غيره ، قد ارتد اليه !

على انه كان فى خوف من ان يراه احد ، فولج الكنيسة ٠ وكان الحارس السويسرى يقف اذ ذاك على العتبة ، فى منتصف الباب الأيسر ، تحت تمثال « ماريان الراقص » ـ وقد بدا فى قلنسوته ذات الريش ، وسيفه المتدلى حتى عرقوبيه ، أكثر جلالا من اى كردينال ، واشد لمعانا من علبة الأسرار المقدسة ـ وتقدم صوب «ليون» ، وقال وهو يبتسم ابتسامة التملق الحميد التى يصطنعها رجال الدين حين يستجوبون الاطفال : « لا شك ان السيد ليس من هنا ؟ ٠٠ افيحب السيد أن يرى تحف الكنيسة ؟» ٠٠ فقال الآخر : «لا!» ٠٠ وجاس فى البداية خلال الردهة الخارجية ، ثم خرج ليلقى نظرة على الميدان ، ولكن « ايما » لم تكن وصلت بعد ، ومن ثم دخل ثانية وسار حتى المحراب

وكانت صورة صحن الكنيسة منعكسة على احواض التعميد المترعة ، وقد ظهرت مقدمة الأقواس ، وبعض اجزاء من النوافذ الزجاجية ٠ ولكن صور اللوحات الزيتية كانت تتكسر على حافة الرخام ، لتستقيم بعد ذلك على البلاط ، فتبدو كبساط متعدد الالوان ٠ وكان ضوء النهار الساطع ينساب الى داخل الكنيسة فى ثلاثة خطوط ضخمة ، خلال ثلاث كوات مفتوحة ٠ ومن

وقت لآخر ، كان احد خدم الكنيسة يمر فى الطرف الأقصى ، فيركع عند المذبح فى انحراف ، كما يفعل الأتقياء المتعجلون ! ٠٠ وكانت الثريات البلورية تتدلى ساكنة ، وفى المحراب كان ثمة مصباح فضى مشتعل ٠ وفى بعض الأحيان، كانت تنبعث من الممرات الجانبية والبقاع المعتمة اصوات كأنها التنهدات ، يصحبها صوت ارتطام نافذة تغلق ، فيتردد الصدى متموجا تحت القبة الفخمة٠ وسار « ليون » بخطى ورعة فى محاذاة الجدران ٠٠ ابدا لم تبد له الحياة اطيب مما كانت اذ ذاك ٠٠ ان « ايما » لن تلبث ان تاتى ، فاتنة ، منفعلة ، تتلفت خلفها الى الأبصار التى تتبعها ، وقد ارتدت ثوبها ذا الزوائد الهفهافة ، ونظارتها الذهبية ، وحذاءيها الرفيعين ، وكل مستلزمات الأناقة التى لم يستمتع بها ابدا من قبل ، تحف بها ما للعفة المستسلمة من غواية فاتنة ٠٠ والكنيسة كمخدع هائل يحيطها ! والأقبية تنحنى وكأنها تنصت – فى الظلال – الى اعتراف حبها ، والنوافذ تسمح للضوء بالانسياب لينير وجهها ، والبخور يتصاعد ، وهى تبدو كالملاك وسط الدخان الذكى الشذى !

ولكنها لم تات ٠٠ فجلس على مقعد ، ووقعت عيناه على نافذة ذات زجاج ازرق يمثل ملاحين يحملون سلالا ٠٠ واطال تاملها فى تمعن ، واخذ يحصى زعانف الأسماك ، وعدد العرى فى الصدارى ، بينما كانت افكاره تحلق نحو « ايما » ٠٠ وكان الحارس – الذى وقف جانبا – حانقا فى نفسه على هذا الشخص الذى اباح لنفسه ان يتامل محاسن الكاتدرائية بنفسه ٠٠ كان يبدو له انه يفرض نفسه ظلما ، وانه يسلبه بعض ما هو حق له ٠٠ بل ينتهك حرمة مكان العبادة ! ٠٠ على ان «ليون» ما لبث ان انتبه الى حفيف حرير على البلاط ، وحافة قبعة ، ومعطف ٠٠ كانت هى ! ٠٠ ونهض جاريا ليلقاها ٠٠ فاذا هى شاحبة، تسير بسرعة ٠٠ وقالت وهى تبسط له ورقة : « اقرأ ٠٠ اواه ، لا ! » ٠٠ وسحبت يدها فى عجلة ، لتلج مصلى العذراء ، حيث ركعت وشرعت تصلى ٠٠ واحس الشاب بانفعال لهذه النزوة المتدينة ٠٠ على انه لم يلبث ان شعر بشىء من الفتنة وهو يراها تغرق فى العبادة – خلال موعد غرامى – كمركيزة أندلسية ! ٠٠ ثم بدأ يضجر ، اذ بدا له انها لن تفرغ !

★ ★ ★

◆ اخذت « ايما » تصلى – او بالأحرى تحاول جاهدة ان تصلى – املا فى ان تهبط عليها من السماء عزيمة مفاجئة !٠٠ ولكى تستمد العون الالهى ، ملأت عينيها حتى اغرقتهما ببهاء المحراب ، وملأت صدرها بشذى الزهور المتفتحة التى كانت فى الأوانى الكبيرة ، واصغت الى سكون الكنيسة الذى جعل لغط قلبها يبدو اكثر جلاء لاذنيها ٠٠ ثم نهضت ٠ وفيما كانا يهمان بالانصراف اقبل الحارس وقال فى عجلة : « ان السيدة ليست من هنا ولا شك ٠ هل تحبين

يا سيدتى ان تتفرجى على تحف الكنيسة ؟ » .. فقال الكاتب : « آه ، لا ! » .. قالت وهى تتشبث بعفتها المتداعية ، وبالعذراء ، والتماثيل ، والاضرحة.. واى شىء : « ولم لا ؟ » .. ولكى يتفرجا ـ حسب الاصول المرعية ـ قادهما الحارس الى المدخل القريب من الميدان ، حيث اشار بعصاه الى دائرة من الاحجار السوداء لا تعلوها كتابة ولا نقوش ، وقال فى جلال : « هـــذا محيط جرس « امبرواز » البديع .. انه يزن اربعين الف رطل ، ولم يكن له صنو فى اوربا كلها .. ولقد مات الرجل الذى نحته فرحا ... »

وهنا قال ليون : « لننصرف ! » .. ولكن الحارس عاد بهما الى مقصورة العذراء ، وبسط ذراعيه بحركة تمثيلية فاخرة ، وهو اكثر زهوا من احد اعيان الريف اذ يعرض ثيرانه ، وقال : « هذا الحجر يغطى « بيير دوبريزيه » ، سيد (فارن) و (بريساك) ، والمارشال الاكبر لبواتو ، وحاكم نورماندى ، الذى مات فى معركة (مونتليرى) ، فى ١٦ يوليو سنة ١٤٦٥ » .. وعض « ليون » شفته وهو ينفخ غضبا ، بينما استطرد الرجل : « والى اليمين مباشرة حفيدة « لوى دوبريزيه » سيد (بريفال) و (مونشوفيه) ،وكونت دى مولفرييه ، وبارون دى مونى ، امين الملك ، وعضو نظام الفرسان ، وحاكم نورماندى ايضا .. هذا هو السيد المكسو كله بالحديد ، على جواد رفع ساقه فى خطوة متخطرة .. مات فى ٢٣ يوليو سنة ١٥٣١ ، وكان يوم احد ، كما تنبىء بهذا السطور المنقوشة .. وتحته ، هذا الشخص الذى يهم بالنزول الى القبر ، انه يمثل نفس السيد .. من غير الميسور ان تريا تمثالا اكمل تبيانا للفناء من هذا » .. ورفعت مدام « بوفارى » نظارتها .. وبقى « ليون » جامدا يرقبها ، وقد كف عن محاولة الاتيان باية حركة ، حتى عن ان ينبس بكلمة ، او يصدر اشارة ! .. واحس بقنوط ازاء هذين الندين اللذين انهمكا فى الثرثرة واتفقا على عدم الاكتراث به !

ومضى الدليل الابدى فى شرحه : « وبالقرب منه ، هذه المراة الراكعة التى تبكى .. انهـــا زوجته « ديانا دى بواتييـــه » ، كونتـــة (بريزيه) ودوقة (فالنتانوا) ، ولدت فى ١٤٩٩ ، وماتت فى ١٥٦٦ .. والى اليسار ، هذه التى تحمل الطفل .. انها العذراء المقدسة . والآن ، فلندرج الى هذه الناحية .. ها هى ذى قبور آل « امبرواز » الذين جمعوا بين مطرانية واسقفية (روان) . كان هذا وزيرا فى عهد لويس الثانى عشر ، وقد قام باعمال جليلة للكاتدرائية ، وترك فى وصيته ثلاثين الفا من الدنانير الذهبية للفقراء ..ودفعهما الدليل ـ دون ان يتوقف عن السير او الكلام ـ الى مقصورة مليئة بالحواجز التى اقصى بعضها ، فكشفعن كتلة من الصخر لا بد انها كانتيوما تمثالا ردىء النحت .. ثم قال فى صوتحزين : «لقد كانت تزين ـ حقا ـ قبر ريتشارد قلبالاسد،

ملك انجلترا ودوق نورماندى • كان الكلفانيون (١) يا سيدى هم الذين شوهوه بهذا الشكل ، وقد دفنوه - للنكاية - فى جوف الأرض ، تحت المقعد الأسقفى لصاحب النيافة • انظرا ! •• هذا هو الباب الذى كان الأسقف يجتازه الى بيته •• لنمر بسرعة كى نرى النوافذ الميزابية » • بيد ان « ليون » اسرع يخرج بعض قطع العملة الفضية ، وامسك بذراع « ايما » • ووقف الحارس مذهولا ، لا يكاد يفقه سر هذا السخاء الذى اظهره الشاب فى غير موعده، اذ كانت لا تزال هناك كثيرا من الأشياء التى يتوق الأجانب لرؤيتها •• لذلك اسرع وراءهما صائحا : « سيدى ! •• البرج ! البرج ! » •• فقال ليون : « شكرا » ••

- ولكنك على خطأ يا سيدى ! •• ان ارتفاعه اربعمائة واربعون قدما ، اى اقل من ارتفاع هرم مصر الاكبر بتسعة أقدام •• كله من الحديد المصبوب ، و•••

وفر « ليون » ، اذ خيل اليه ان هواه الذى ظل ساعتين جامدا داخل الكنيسة كانه حجر ، يوشك الآن ان يتبخر ويتبدد كالدخان فى الفضاء ، متسربا خلال ذلك القمع الأبتر القائم فوق صندوق مستطيل، والمتصل بمدخنة تصل الى الفضاء، خارجة من مبنى الكاتدرائية بشكل مزر ، كأنها محاولة قام بها مهندس للمدافئ مبذر مافون ! •• وقالت « ايما » : « الى اين ترانا ذاهبين ؟ » •• ولكنه لم يجب، بل سار بخطى واسعة •• وكانت مدام « بوفارى » قد غمست اصبعها فى الماء المقدس ، حين سمعا خلفهما انفاسا لاهثة ، يتخللها وقع عصا تطرق الأرض بانتظام ، فالتفت « ليون » ••

- سيدى - ماذا ؟

ورأى الحارس السويسرى يحمل تحت ابطه نحو عشرين كتابا كبيرا ، مجلدا ، احتضنها الى بطنه ليحفظ توازنها •• تلك كانت المؤلفات التى تتعلق بالكاتدرائية •• فزجر « ليون » وهو يندفع الى خارج الكنيسة : « غبى ! » •• وكان ثمة صبى يلعب على مقربة ، فصاح به : « اذهب فاستدع عربة ! » •• فقفز الصبى كالكرة صوب شارع (كاترفانت) ، وبقيا وحدهما بضع دقائق ، وجها لوجه ، يسودهما شىء من الحرج •• وهمست ايما : « آه ! ليون ! •• اننى حقا •• لا أدرى •• اذا كان ينبغى •• » ، ثم اردفت فى لهجة جادة : « هذا لا يليق البتة •• اتتدرك ؟ » •• فاجاب : « كيف ذلك ؟ انه امر شائع فى باريس ! » •• فرضخت بعد هذه الكلمات ، وكأنها حجة لا تقاوم !

★ ★ ★

◆ ولما لم تأت العربة فى تلك الأثناء ، خشى « ليون » ان تعود « ايما » الى

---

(١) اتباع مذهب « كلفن » القائل أن الخلاص من الذنوب يتأتى بنعمة الله وليس بالأعمال ••

الكنيسة .. ولكن العربة ما لبثت ان ظهرت اخيرا . وصاح الحارس الذى خلفاه وحيدا لدى الباب : « اذن فاخرجا من الباب الشمالى حتى تريا - على الأقل - لوحات : البعث، والحساب الأخير، والجنة، والملك داود، والمذنبين فى نار جهنم » !!

وقال الحوذى : « الى اين يا سيدى ؟ » ، فقال ليون وهو يدفع ايما الى داخل العربة : « حيثما شئت » .. فانطلقت العربة خلال شارع (جران بونت) ، واجتازت ميدان (ديزار) ، و (كيه نابوليون) ، و (بونت نيف) ، ثم وقفت عند تمثال (بيير كورنى) ، فصاح صوت من الداخل : « استمر ! » .. وعادت العربة تسير ، حتى اذا بلغت ميدان (كاريفور لافاييت) ، شرعت تهبط السفح، ودخلت المحطة والجوادان يركضان . وصاح الصوت ذاته : « لا ، امض فى خط مستقيم ! » .. فاندفعت العربة خلال الأبواب ، وسرعان ما بلغت (الكورنيش)

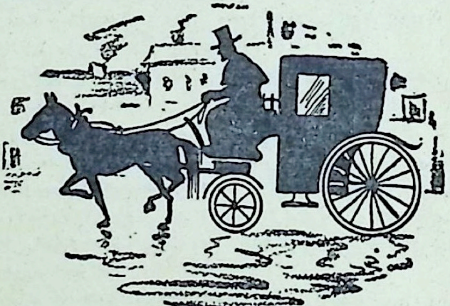

ولاحت تخطر الهوينى تحت اشجار الدردار .. وجفف الحوذى العرق عن جبينه، ووضع قبعته الجلدية بين ركبتيه ، ثم قاد العربة فى الطريق الجانبية - المجاورة للمرج - الى الطريق الممتدة بجانب الماء .. وسارت العربة فى محاذاة النهر ، فى الدرب الذى ترسو فيه المراكب ، والمرصوف بالحصى الصلب .. وظلت فترة طويلة فى اتجاه (اويسل) ، خلف الجزائر .. ولكنها انحرفت فجاة ،واندفعت عبر (كاترمير) و (سوتفيل) و (لاجراند شوسيه) وشارع (ديلبيف) ، ثم وقفت مرة ثالثة امام حديقة النباتات .. فصاح الصوت فى لهجة اشد حنقا من قبل : « امض فى السير ! » .. وعادت العربة تواصل سيرها ، مارة بسان سيفيه، عن طريق (كيه ديه كوراندييه) ، و (كيه اوميل) ، وعبرت الجسر مرة اخرى الى ميدان (شام دومار) ، ثم مضت خلف حدائق المستشفى ، حيث كان الكهول - فى سترات سوداء - يتمشون فى الشمس ، فى محاذاة سياج قصير كساه اللبلاب

بخضرة تامة ٠٠ ثم سارت الى (بوليفار بورفيى) ، ومضت فى (بوليفار كوشواز) ، ثم طافت بمونت ريبوديه كلها ، واتجهت الى تلال (ديفيل) ٠

ثم عادت العربة من حيث اتت ، وراحت تلف كيفما اتفق، دون ما وجهة معينة، فشوهدت فى (سان بول) ، و (ليسكور) ، و (مونت جارجان) ، و (لاروج مارك) ، وميدان (جاياربوا) ، وشارع (مالادريرى) ، وشارع (ديناندرى) ، مارة بكنائس « سان رومان » ، و « سان فيفيان » ، و « سان ماكلو » ، و «سان نيكيز » ٠٠ وامام الجمارك ، وبرج (فيبى تور) ، و (تروا بيب) ، والمقبرة التذكارية ٠ وكان الحوذى يلقى نظرة محسورة على الحانات من وقت لآخر ٠٠ لم يكن يفقه اية رغبة طاغية فى التنقل تحدو بالراكبين الى عدم التوقف !٠٠ وحاول ان ينبههما – بين الفينة والفينة – فكانت صيحات الغضب تنبعث من خلفه ،ومن ثم ساط جواديه اللذين كانا يتصسان عرقا ، ولكنه لم يكترث لسيرهما ، بل تركهما يتخبطان هنا وهناك ، غير حفل ٠٠ وقد خارت قواه المعنوية ، واوشك ان يبكى لفرط الظما ، والتعب ، والضيق ٠٠

وفى الميناء – وسط البضائع الثقيلة والبراميل – وفى الطرقات ، عند المنعطفات ، كان الناس يحملقون فى دهشة وعجب لمثل هذا المنظر غير المالوف فى الريف ٠٠ عربة مسدلة الستائر ، تبدو باستمرار مغلقة كما لو كانت قبرا ، وتتارجح كانها سفينة !٠٠ وحدث ان كانت العربة تسير فى الخلاء ، وقد انتصف النهار ، واخذت الشمس تلهب بقسوة مصباحى العربة العتيقين ، فامتدت يد من خلف الستائر الصغيرة المصنوعة من الخيش الاصفر ، والقت بقصاصات من الورق تناثرت فى الهواء ، ثم تهاوت بعيدا كالفراشات البيضاء على حقل البرسيم الذى تفتحت زهوره الحمراء !

وفى نحو الساعة السادسة ، وقفت العربة فى شارع خلفى بحى (بوفوازان) ، وهبطت منها امراة تسدل على وجهها قناعا ، وسارت دون ان تلتفت ٠٠

الفصل الثـــانى

◆ دهشت مدام « بوفارى » اذ لم تر عربة البريد عند وصولها الى الفندق – وكان السائق قد انطلق فى رحلته بعد ان انتظـــرها ثلاثا وخمسين دقيقة – ولم يكن ثمة ما يجبرها على الرحيل ، ولكنها كانت قد وعدت بان تعود فى ذلك المساء ، فضلا عن ان « شارل » كان يرتقبها ، فاحست فى فؤادها بذلك الاسى الناعم الذى يكون بالنسبة لبعض النساء مغالبة للنفس وتكفيرا عن الفجور ٠ واسرعت تحزم متاعها ، ودفعت حساب الفندق ، ثم استقلت عربة من الساحة ، واستحثت الحوذى، وراحت توسعه فى كل لحظة سؤالا عن الوقت وعدد الكيلومترات

التى قطعها . واستطاع ان يلحق بالعصفورة - عربة البريد - وهى تقترب من طليعة بيوت (كينكامبوا) .. وما ان انتقلت ايما الى عربة البريد ، حتى اغمضت عينيها فلم تفتحهما الا عند سفح التل ، لترى « فيليسيتيه » عن بعد ، وقد وقفت تنتظر العربة امام دار الطبيب البيطرى ، فاوقف «هيفير» جواديه، وتعلقت الخادم بنافذة العربة ، وقالت بلهجة غامضة : « سيدتى ، يجب ان تذهبى فورا الى السيد هوميه ، فهناك امر هام »

وكانت القرية ساكنة كعادتها . وعند تقاطع الطرق ، كانت ثمة اكوام وردية ينبعث منها دخان فى الهواء ، اذ كان موسم صنع المربى قد حل .. وكان اهل (ايونفيل) جميعا يصنعون مؤونتهم منها فى نفس اليوم . على ان المرء كان لا يتمالك ان يعجب بكومة امام الصيدلية بدت اكبر مما عداها ، وافضل منها ، بما لا بد ان يتوفر لأى معمل من تفوق على المتاجر العادية ، حتى يتضح الفارق بين حاجة المتجر العام وحاجة الفرد ..

ودخلت « ايما » الصيدلية ، فاذا بالمقعد الكبير مقلوب ، بل وكانت صحيفة « فانال دى روان » ملقاة على الأرض ، بين مدقين (هاونين) .. ودفعت باب الردهة .. وبين الجرار البنية المليئة بالزبيب البناتى المجرد من اعناقه ،وبالسكر المسحوق والسكر البلاط ، وبالموازين على المنضدة ، وباوانى الطهو على النار ، رات اسرة هوميه كلها ، صغيرها وكبيرها ، فى مراول تغطى صدورهم حتى الأذقان ، وفى ايديهم شوكات وملاعق ، بينما كان « جوستان » يقف منكس

الراس ، والصيدلى يصيح : « من قال لك ان تبحث عنه فى كفر ناحوم (١) ؟ »
.. فتساءلت ايما : « ماذا هناك ؟ .. ماذا جرى ؟ » .. فاجاب الصيدلى : « ماذا هناك ؟ .. اننا نصنع المربى ، وهى تنضج على النار ، ولكنها اوشكت ان تفور وتفيض ، اذ زاد العصير ، فامرت باحضار اناء آخر . فاذا به - اى جوستان - يذهب ، بدافع من الخمول والكسل ، فياخذ - من مسمار فى معمل - مفتاح كفر ناحوم »..(فهكذا كان الصيدلى يسمى غرفة صغيرة تحت السقف ، مليئة بالاوعية والسلع الكيماوية . وكثيرا ما كان يقضى ساعات طويلة فيها ، وحيدا ، يلصق بطاقات ، ويفرغ بعض القنينات ، ثم يعيد احكام سداداتها .. ولم يكن يعتبرها مجرد مخزن ، وانما كانت فى نظره محرابا قدسيا ، يخرج منه فيما بعد ما يكون قد اعده بيديه من كافة انواع الحبوب ، والجرعات ، والغسيل ، وعصائر الاعشاب ، والادوية السائلة التى تحمل سمعته فتنشرها طولا وعرضا !)
.. ولم يقدر لمخلوق فى الدنيا أن يضع فى هذه الغرفة قدميه .. فقد كان يعتز بها ، ويكنس ارضها بنفسه ..واذا كانت الصيدلية - المفتوحة لكل قادم - هى المكان الذى يعرض فيه براعته ، فان « كفر ناحوم » كانت الملاذ الذى يخلو فيه « هوميه » الى نفسه ، حيث يستمتع بممارسة ميوله وهواياته .. ومن ثم كان تهور « جوستان » يلوح له كامتهان فظيع لحرمة المكان ، فراح يردد ووجهه اكثر احتقانا من الزبيب : « اجل ، من كفر ناحوم ! .. المفتاح الذى يغلق مخزن الاحماض والقلويات الكاوية ! .. احضار وعاء اضافى .. وعاء ذى غطاء ، قد لا احتاج الى استخدامه ! .. ان لكل شىء اهمية فى العمليات الدقيقة فى فننا ! .. ولكن ، يا للشيطان ! .. يجب ان يقيم المرء بعض الفوارق ، فلا يستعمل فى اغراض تعتبر منزلية ، اشياء خصصت لاعمال الصيدلة ! .. والا ، كان الامر اشبه باستخدام المبضع لتقطيع دجاجة ، او كقاص .. »

وهنا قالت مدام هوميه : « الا اهدأ » .. وتشبثت « اتالى » بسترته صائحة : « بابا ! بابا ! » .. فاستطرد قائلا : « دعونى الآن .. دعونى وحدى ! لعمرى ! بشرفى انه ليخلق بالمرء ان ينشىء متجرا للبدالة ! .. هكذا .. اذهب ! لا ترع شيئا ! اكسر ، وهشم ، واطلق العلق الذى يمتص الدم الفاسد ، واحرق المعاجين ، وخلل الخيار فى القماقم ، ومزق الاربطة والضمادات ! »

وقالت « ايما » : « لكنك .. »

- حالا ! .. افتعرف لاى شىء عرضت نفسك ؟ .. الم تر شيئا فى الركن ، الى اليسار ، فوق الرف الثالث ؟ .. تكلم ، اجب .. قل شيئا !

---

(١) اسم قرية بفلسطين كان المسيح يتردد عليها كثيرا للتبشير برسالته واظهار معجزاته

وقال الفتى المتقع ، فى لعثمة : « لست ٠٠ لست ادرى ».

ـ آه ! لست تدرى ! جميل ! اما انا فاعرف ! لقد رايت زجاجة ٠٠ زجاجة زرقاء ، مختومة بالشمع الاصفر ، وتحتوى على مسحوق أبيض ، وقد كتب عليها : « خطر ! » ٠٠ افتدرى ماذا بها ؟ ٠٠ زرنيخ ! ٠٠ ثم تذهب فتلمسها ٠٠ وتحضر وعاء كان الى جانبها !

فصاحت مدام هوميه وهى تهز قبضتيها : « الى جانبها ! ٠٠ زرنيخ ! ٠٠ كان من المحتمل ان تسممنا جميعا ! »

وشرع الاطفال يصرخون كما لو كانوا قد شعروا بآلام رهيبة فى احشائهم ٠٠ واستانف الصيدلى الحديث : « او تسمم مريضا ! ٠٠ افتريد ان ترانى فى قفص الاتهام مع المجرمين فى المحكمة ؟ ٠٠ أو ان ترانى اساق الى المشنقة ؟ ٠٠ الا تعرف اى حذر التزمه فى كل الأمور ، رغم اننى تعودتها تماما ؟ ٠٠ اننى كثيرا ما اجزع اذ افكر فى مسئوليتى ، وبخاصة ان الحكومة تظلمنا وتضطهدنا ، والتشريع السخيف الذى يحكمنا ليس سوى سيف ديموكليس المعلق فوق رؤوسنا ! »

ولم يعد لايما امل فى ان تسال عما كانوا يريدون منها ٠٠ واستمر الصيدلى فى عبارات لاهثة : « اهذا ما تقدمه جزاء كل ما اوليناك من كرم ! ٠٠ ابهذا تكافئنى على الرعاية الأبوية الصادقة التى اغدقها عليك ؟ ٠٠ من يمدك بالغذاء ، والتعليم ، والثياب ، وكل الوسائل التى تمكنك يوما من ان تكون مكرما فى طبقات المجتمع ؟! ٠٠ ولكنك يجب ان تشد المجداف بقوة وجهد ـ كما يقولون ـ حتى تتورم يداك » !٠٠ ثم اردف باللاتينية : « ان العامل الذى لايعيش من عمله ، يفعل ما يشاء » ٠٠ ومضى يتكلم باللاتينية حتى تعب ٠٠ وما كن ليحجم عن الكلام باية لغة ، لو انه كان يعرفها ، لأنه كان يمر باحدى تلك النوبات التى تطفح فيها النفس بكل ما تحتوى عليه دون تمييز ، كالمحيط الذى يلفظ ـ فى الأنواء ـ كل ما فيه من الأعشاب البحرية القريبة من شاطئه ، والرمال التى فى اعماقه ! ٠٠ وعاد هوميه يقول : « لقد بدات اعانى ندما شديدا اذ كفلتك ٠٠ كان يحسن بى بالتاكيد ان اتركك للبوار فى فقرك وفى القذارة التى ولدت فيها ٠٠ آه ! انك لن تصلح قط لغير رعى الحيوانات ذات القرون !٠٠ ليس لديك استعداد للعلم ! انك لا تكاد تعرف كيف تلصق بطاقة ! ٠٠ ومع ذلك فانت ـ كما ترى ـ تعيش معى نظيفا كالراعب ، مرتاحا كديك يسمنه اصحابه ! »

* * *

◆ لم تلبث « ايما » ان التفتت الى مدام هوميه قائلة : « لقد استدعيت ٠٠ » ٠٠ فقطعت عليها السيدة حديثها قائلة فى لهجة حزينة : « آه ! يا الهى ! ٠٠

كيف ازجى اليك النبأ ؟ .. انه شؤم ! » .. ولم تتم حديثها .. وكان الصيدلى يصيح مهدرا : « افرغها ! نظفها ! اعدها حيث كانت ! اسرع ! » .. وامسك ب « جوستان » من ياقة قميصه ، فاوقع كتابا من جيبه . وانحنى الفتى ، ولكن « هوميه » كان اسرع منه . وما ان التقط الكتاب، حتى تامل عنوانه بعينين جاحظتين وفم فاغر : « الحب .. الزوجى ! » .. قالها فى تؤدة ، متعمدا ان يفصل بين الكلمتين ، ثم اردف : « آه ! جميل جدا ! جميل جدا ! بديع جدا ! .. وصور ايضا ! .. آه ، هذا كثير جدا ! » .. واقتربت مدام «هوميه» ، فصاح : « لا .. لا تلمسى الكتاب » .. واراد الأطفال ان ينظروا الى الصور ، فصاح بلهجة آمرة : « اخرجوا من الحجرة ! » ، فخرجوا .. واخذ - فى البداية - يسير فى الغرفة رائحا ، غاديا ، والكتاب مفتوح بين اصابعه ، يقلب فيه بصره مشدوها ، مستحييا ، وانفاسه تتتابع فى عناء .. ثم اتجه الى مساعده ، فوقف امامه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وقال : « اذن ، فقد اجتمعت فيك كل الرذائل ايها التعس الصغير ! احترس ! .. انك بالتاكيد تتردى ! .. افلم يخطر ببالك ان هذا الكتاب الفاضح قد يقع فى ايدى اولادى ، فيشعل فى اذهانهم شرارة ، ويلطخ طهر « اتالى » ، ويفسد « نابليون » .! .. لقد دخل مدارج الرجال .. افانت واثق - على الأقل - من انهما لم يقرآه ؟ .. هل تقسم ؟ »

وقالت ايما : « ولكن ياسيدى .. هل اردت ان تقول لى .. ؟ »

- اجل ياسيدتى .. ان حماك قد توفى !

★ ★ ★

◆ كان السيد « بوفارى » الأب قد مات بغتة ، فى الليلة السابقة ، من جراء سكتة قلبية . وزيادة فى الحيطة ، وحرصا على مشاعر « ايما » ، التمس « شارل » من هوميه ان ينهى اليها النبأ « الفظيع » فى رفق وحكمة ! .. ولقد فكر هوميه فيما يقول ، ونمق القول ، وصقله ، ووزنه ، حتى جعله تحفة من الحكمة والتدرج ، ومن الحيلة والرقة ، ولكن الغضب كان اكثر بلاغة وبيانا .. واذ يئست « ايما » من ان تسمع اية تفصيلات ، بارحت الصيدلية . وكان السيد هوميه قد عاد يستانف السباب والتقريع ، وان كانت سورة غضبه قد بدات تهدا ، واصبح يهدد فى لهجة ابوية - وهو يحرك قلنسوته الاغريقية التماسا للهواء : « ليس معنى هذا اننى لا اقر الكتاب البتة ، فان مؤلفه طبيب ! .. فضلا عن انه يحتوى على مسائل عملية ليس من الضرر ان يعرفها رجل .. بل اننى لأذهب الى ان على الرجل ان يعرفها .. ولكن ، فيما بعد .. فيما بعد ! .. انتظر على الاقل حتى تغدو رجلا ، وتكتمل مداركك ! »

وعندما قرعت « ايما » باب بيتها ، اقبـل « شارل » ـ الذى كان فى انتظارها ـ باسطا ذراعيه امامه ، وقال والدموع تخالط صوته : « آه ، يا عزيزتى ! » .. وانحنى بلطف يقبلها ، ولكن ملمس شـفتيه رد ذكرى الرجل الآخر اليها ، فمسحت وجهها براحتها وهى ترتجف . واطلعها على الخطاب الذى روت فيه امه الحـادث ، دون ما مبالغات عاطفيـة . لم تكن آسفة الا على ان زوجها لم يحظ بالمراسم الدينية ، اذ مات فى الطريق ـ فى (دودفيل) ـ على باب مقهى ، بعد مادبة وطنية مع الضباط القدامى .. واعادت « ايما » الخطاب الى زوجها . وعند العشاء ، تصنعت بعض الزهد لتتظاهر بالأسى ، ولكنها اقبلت على الطعام ـ حين الح عليها ان تحاول ـ بينما جلس هو منصرفا عن الأكل ، لا يحير ساكنا .. وكان من وقت لآخر يرفع راسه ويرمقها بنظرة طويلة زاخرة بالحزن . وتنهد مرة قائلا : « وددت لو اننى كنت رايته مرة اخرى ! » .. وكانت « ايما » لائذة بالصمت ،ولكنها ادركت اخيرا ان لابد لها من ان تقول شيئا ، فسالته : « كم كان عمر ابيك ؟ »

ـ ثمانية وخمسين ـ آه !

وكان هذا كل ما لديهما . وما لبث ان اضاف بعد ربع ساعة : « يا لأمى المسكينة !.. ماذا سيكون من امرها الآن ؟ » .. فصدرت من « ايمـا » اشارة تنم عن انها لا تدرى .. واذ راى « شارل » وجومها ، خيل اليه انها شديدة التاثر ، فحمل نفسه على الكف عن الـكلام ، لكى لا يذكى هذا الأسى الذى تملكها . على انه ما لبث ان قال ليغالب اساه : « هل استمتعت بيـوم أمس ؟» .. فاجابت : «نعم» .. حتى اذا رفعت المائدة ، لم ينهض «بوفارى» ، ولا نهضت « ايما » .. وفيما كانت تنظر اليه ، اخذ جمود المنظر يطرد من قلبها ـ شيئا فشيئا ـ كل رثاء واشفاق .. فقد لاح لها زوجها تافها سخيفا ، ضعيفا ، عديم الشخصية .. وقصارى القول : كان فقيرا ، مسكينا ، من كل النواحى !.. فكيف تتخلص منه ؟.. ويا لها من ليلة لا تنتهى !.. وتملكهـا شيء مخدر كدخان الأفيون !.. وما لبثا ان سمعا فى الردهة ضجة ناشئة عن وقع ساق خشبية على الواح الارضية ، واذا « هيبوليت » قد اقبل حاملا متاع السيدة . ولكى يضعه على الارض ، لف فى عناء ، راسما بساقه الخشبية ربع دائرة .. فقالت « ايما » لنفسها وهى تتامل هذا الشيطان المسكين الذى كان شعره الاحمر الكث يقطر عرقا : « انه لم يعد يذكر شـيئا ! » .. واخـذ « بوفارى » يبحث ـ فى قاع كيس نقوده ـ عن قطعة من العملة النحاسـية ، دون ان يبدو عليه انه يفطن الى ما هناك من ذلة ومهانة له ، فى مجرد وجـود هذا الرجل الذى كان يقف وكانه تانيب مجسم للخطا الذى كان وليـد عجز الطبيب ، والذى لا سبيل الى اصلاحه !

واخيرا ، قال شارل لزوجته : « مرحى ! لقد جئت بباقة جميلة ! » .. فقالت « ايما » فى غير اكتراث : « اجل .. اشتريتها قبيل حضورى ، من متسول ».. فتناول « شارل » الزهور لينعش بها عينيه المحتقنتين من اثر الدموع ، وشمها فى رفق .. فاسرعت « ايما » تاخذها من يده وتضعها فى كوب ماء !

☆ ☆ ☆

• وصلت مدام « بوفارى » الأم فى اليوم التالى ، فبكت مع ابنها كثيرا .. بينما اختفت « ايما » بحجة اعطاء تعليمات للخادم • وفى اليوم الذى اعقبه ، تحدثوا عن الحداد ، ثم ذهبوا فجلسوا تحت الخميلة ، بجوار النهر ، وقد حملت المراتان صندوقى اشغالهما .. واخذ « شارل » يفكر فى ابيه ، فادهشه ان احس بحب جم لذلك الرجل الذى كان يظن - حتى ذاك الحين - انه لا يحفل به كثيرا • كذلك راحت مدام « بوفارى » الأم تفكر فى زوجها .. وبدت لها اسوا ايام الماضى اياما لا تعوض .. نسيت كل شىء فى غمرة حسرتها الغريزية على مثل هذه العشرة الطويلة !.. وكانت تنحدر على انفها - من آن لآخر وهى تخيط - دمعة كبيرة تقف عند اسفله لحظة معلقة .. اما « ايما » فكانت تفكر فى انه لم تمض بعد ثمان واربعون ساعة مذ كانت مع « ليون » بعيدين عن الدنيا ، فى نشوة من الغبطة ، وقد ود كل منهما لو كان له مزيد من الأعين ليتملى من الآخر .. واخذت تحاول تذكر ابسط تفصيلات اليوم الاسبق ، ولكن وجود زوجها وحماتها كان يزعجها ، فتمنت ان لا تسمع شيئا ، وان لا ترى شيئا ، حتى لا يضطرب تفكيرها فى حبيبها .. على ان هذا التفكير كان يتبدد فى احاسيسها بما هو خارج كيانها ، رغم كل ما بذلت !

وكانت تفكك بطانة ثوب ، فتتناثرت قطع القماش حولها • اما مدام « بوفارى » الأم ، فكانت تحرك مقصها فى نشاط دون ان ترفع راسها ، فى حين كان « شارل » ينتعل الخفين اللذين يستعملهما فى اوقات راحته ، ويرتدى « ردنجوته » الاسمر القديم الذى كان يستخدمه كثوب منزلى ، وقد جلس مغيبا يديه فى جيبيه ، دون ان يتكلم .. وعلى مقربة منهم ، كانت «بيرت» فى مرولة بيضاء صغيرة ، تعبث بمجرفتها فى رمال دروب الحديقة • وفجاة ، راوا مسيو « لوريه » - تاجر الاقمشة - يقبل خلال الباب الخارجى .. جاء يعرض خدماته « فى الظروف المحزنة » ، فاجابت « ايما » بانها تظن ان بوسعها ان تستغنى عن الجديد • بيد ان التاجر لم يسلم بالهزيمة ، بل قال لشارل : « معذرة .. احب ان اتكلم معك على حدة ! ».. ثم قال بصوت خفيض : « الأمر يتعلق بتلك المسالة .. التى تعرفها » ، فاحتقن وجه « شارل » حتى اذنيه ، وقال : « آه ، اجل ! .. بالتاكيد ! » .. والتفت فى ارتباكه الى زوجته وقال : « هلا توليت انت الأمر يا عزيزتى ؟ » .. ولاح انها ادركت ، اذ نهضت .. فقال شارل

لأمه : انها ليست مسالة ذات بال .. بعض مطالب البيت البسيطة » .. فلم يكن الطبيب راغبا البتة فى ان تعرف امه شيئا عن قصة السند ، خشية لومها !

وما ان اصبح السيد « لوريه » على انفراد مع « ايما » حتى شرع يهنئها فى عبارات واضحة بالميراث ، ثم تكلم عن مسائل غير ذات بال ، كعرائش النباتات ، والمحصول ، وعن صحته التى كانت دوما بين بين ، فى صعود وهبوط .. وكان مضطرا الى أن يجد ويعمل جاهدا ، وان لم يمـلك ان يكسب ما يدر عليه « غموسا » لخبزه ، رغم ما يقوله كل النـاس .. وتركته « ايما » يتكلم .. فما اكثر ما احتملت من مضايقات فى هذين اليومين الاخيرين !.. ومضى يقول : « وانت .. هل اصبحت بخير مرة أخرى ؟.. لعمرى !.. لقد رايت زوجك فى حال محزنة .. انه شاب طيب ، وان كان بيننا سـوء تفـاهم بسيط » .. فسالته عن سوء التفاهم ، اذ لم يكن شارل قد انباها بالنزاع الذى جرى بشان السلع التى احضرها لها التاجر ، فصاح « لوريه » : « عجبـا ، انك لتعرفينه تماما !.. كان من اجل رغباتك الكمالية .. حقائب السفر ! »

وكان قد ارخى قبعته على عينيه ، وعقـد يديه خلف ظهره ، وراح يبتسم ويصفر وهو يتفرس فى وجهها بطريقة لا تطاق. اتراه حدس شيئا ؟.. وتاهت «ايما» فى كل انواع الهواجس .. غير انه ما لبث ان عاد يقول : «على انك سوينا الامر .. وقد جئت اعرض عليه تسوية جديدة » .. تلك هى تجديد السـند الذى وقعه « بوفارى » ، ولا ريب ان الطبيب سيسر لهذا ، اذ ليس عليـه ان يزعج نفسه ، لا سيما فى ظروفه الحاضرة التى تشغله بطائفة من الهموم.. «او انه ليحسن صنعا لو عهد بهذه المسألة الى شخص اخر ـ اليك انت ، مثلا ! ـ وهو امر سهل التدبير اذا اعطاك توكيلا رسميا ، واذذاك نستطيع ـ انت وانا ـ ان نبرم معا صفقات صغيرة » ! .. ولم تفقه مرماه .. ولاذ التاجر بالصمت ، ثم تحول الى تجارته ، فقال ان لا بد للسيدة من ان تحتاج الى شىء ، وانه سيرسل اليها قماشا اسـود ، يكفى اثنـا عشر مترا منه لعمل ثوب ، واردف قائلا : « هذا يصـلح للبيت ، ولكنك فى حاجة الى ثوب للخروج ، وقد لاحظت هذا لاول وهلة حين قدمت .. فاننى اوتيت ما للامريكيين من سرعة ملاحظة ! »

★ ★ ★

• ولم يرسل القماش ، وانما احضره بنفسه .. ثم جاء مرة اخرى ليقيسه.. واخذ يتردد على المنزل لعلل اخرى ، وهو يحاول دائما ان يتلطف ، وان يبدو ذا نفع ـ عارضا خدماته فى الوقت المناسب ، كما كان يمكن ان يصفه هوميه ـ وكان لا يفتا يشير فى حديثه مع « ايما » الى « التوكيل الرسمى » . على انه لم يذكر السند قط ، ولا هى فكرت فيه .. ومن المؤكد ان شارل حدثها عنه فى بداية نقاهتها ، ولكن كثيرا من المشاعر والانفعالات تناوبت راسها ، فلم تعد

تتذكره ، فضلا عن انها حرصت على ان لا تتعرض لأية مسائل مالية ، مما ادهش الأم « بوفارى » ، وحملها على ان تعزوه الى التطور الذى طرا على مشاعرها الدينيه خلال مرضها !٠٠ ولكن ،. ما ان كانت الام تغيب ، حتى كانت « ايما » تثير دهشة بوفارى بادراكها العملى ٠٠ فمن الضرورى الحصول على بعض بيانات ، وتحرى « الرهنيات » ، وتبين ما اذا كانت ثمة فرصة لعمل تصفية او « بيع بالمزاد العلنى » ٠٠ وكانت تذكر - عرضا - بعض المصطلحات القانونية ، وتنطق بالكلمات الكبيرة عن الطلب والحوالة ، والمستقبل ، وتدبر العواقب ٠٠ وتعمد دائما الى المبالغة فى وصف الصعاب التى تعترض تسوية شئون ابيه ٠٠ حتى انتهت ذات يوم الى ان اطلعته على مسودة توكيل رسمى ينيبها عنه فى ان « تتولى ، وتتصرف فى اعماله ، بما فى ذلك تدبير القروض بانواعها ، وتوقيع وتحويل السندات بانواعها ، ودفع جميع المبالغ ، الخ » ٠٠ وهكذا ، كانت قد فهمت دروس « لوريه » !

وسالها « شارل » - فى سذاجة - عن مصدر تلك الورقة ، فقالت : «السيد جيومان » ٠ ثم اردفت بغاية الهدوء : « اننى لا اثق فيه كثيرا ، فان لموثقى العقود سمعة سيئة ٠٠ وقد يحسن بنا ان نستشير ٠٠ ولكنا لا نعرف ٠٠ احدا» ٠٠ فاجاب « شارل » مفكرا : « اللهم الا ٠٠ ليون » ٠٠ على انه كان من العسير مناقشة الأمور بالمراسلة ، ومن ثم تطوعت لان تسافر ، فشكرها معتذرا ، ولكنها اصرت ٠٠ وتباريا فى التطوع للامر ٠٠ ثم صاحت فى غضب مصطنع : « لا ، ارجوك ٠٠ ساذهب انا » ، فقال وهو يقبل جبهتها : «ما اطيبك ! » ٠٠

وفى اليوم التالى ، استقلت « العصفورة » ذاهبة الى (روان) لتستشير السيد « ليون » ٠٠ ومكثت هناك ثلاثة ايام !

الفصل الثالث

◆ كانت ثلاثة ايام كاملة ، ممتعة ، رائعة ٠٠ شهر عسل حقيقى ! ٠٠ كانا فى فندق (بولونى) ، عند الميناء ٠٠ وهناك ، عاشا بين الستائر المسدلة ، والأبواب المغلقة ، والزهور على الأرض ، والمشروبات المثلجة تحمل اليهما كل صباح ٠٠ وفى المساء ، كانا يستقلان قاربا غير مكشوف ، ويذهبان للعشاء فى احدى الجزر ٠٠ تلك كانت الساعة التى يسمع فيها - بجانب أرصفة الميناء - صوت المطارق الخشبية وهى تدق جوانب المراكب ٠٠ ودخان القار يتصاعد بين الاشجار ٠٠ وعلى صفحة الماء تسبح بقع كبيرة شحمية ، وتتموج تحت ارجوان الشمس ، كانها صفائح من البرونز الفلورنسى ٠٠ وكانا يمضيان بقاربهما وسط المراكب الراسية ، التى كانت اسلاكها الطويلة الممتدة بانحراف ، تحتك بعض

الشىء باسفل القارب .. وياخذ عجيج المدينة فى الخفوت رويدا ، فتتباعد قرقعة العربات ، وهدير الاصوات، وعواء الكلاب الرابضة على اسطح السفن .. وكانت « ايما » تخلع قبعتها ، ثم يهبطان الى جزيرتهما ، فيجلسان فى القاعة ذات السقف المنخفض ، فى احدى الحانات التى اسدلت على ابوابها شباك سوداء .. وياكلان السمك المقلو ، و « الكريمة » ، والكريز ، ثم يستلقيان على الاعشاب،ويتبادلان القبلات وراء اشجار الحور ، ويتمنيان لو انهما عاشا كطائرين فى هذه البقعة الصغيرة التى يخالاها – فى نشوتهما – افخم بقاع الارض ! .. وما كانت هذه اول مرة يريان فيها اشجارا ، وسماء زرقاء ، ومروجا ، او يسمعان فيها خرير الماء ، وحفيف الريح خلال اوراق الشجر .. ولكنهما لم يعجبا بكل هذا قبل الآن ، وكأنما لم يكن للطبيعة وجود من قبل ، او كانها لم تحظ بالجمال الا منذ استجابا لشهواتهما !

ويعودان فى الليل ، ينساب بهما القارب مارا بشواطىء الجزر ، وقد جلسا معا فى قاعه ، منزويين فى الظلال ، صامتين .. والمجذافان العريضان يرتطمان بالحلقتين الحديديتين – اللتين ثبتتا اليهما – فيبدو وقعهما فى السكون كدقات مؤذنة بمرور الزمن ، تصدر عن جهاز للتوقيت.. بينما تكف الدفة – فى المؤخرة – عن حفيفها الرقيق فى الماء .. وحدث ان بزغ القمر مرة ، فلم يفتهما ان يصفاه بعبارات رقيقة ، وان يعلقا على الكوكب الحزين المفعم بالشاعرية .. بل ان «ايما» شرعت تغنى : « ذات ليلة – اتتذكر ؟ – كنا نمخر عباب الماء .. الخ » .. وضاع صوتها الرخيم الواهن مع الامواج ، وحملت الريح الصوت المرتعش الذى خاله « ليون » رفيف جناحين حوله ! .. وكانت تجلس امامه ، متكئة على جدار القارب

الذى كان ضوء القمر يلساب خلال نافذته .. وثوبها الأسود الذى انتشر حولها كالمروحة ، يظهرها ارشق عودا ، واهيف قواما .. وقد ارتفع راسها ، وانعقدت يداها ، وتطلعت عيناها الى السماء .. وكانت ظلال الصفصاف - على شواطىء الجزر التى يمران بها - تغمرها تماما فى بعض الأحيان ، ثم لا تلبث ان تظهر فى ضوء القمر كالطيف !

وعثر ليون - وهو جالس الى جوارها فى قاع القارب - على شريط من الحرير القرمزى تحت يده ، فتامله النوتى ، ثم قال : « لعله من مخلفات الجماعة التى كنت اقلها فى اليوم السابق .. ثلة من المرحين ، سادة وسيدات ، ومعهم فطائر وشمبانيا واباريق الصيد .. وكل ما يخطر بالبال ! .. وكان بينهم - بوجه خاص - رجل انيق ، ذو شاربين صغيرين ، بالغ الظرف !.. وكانوا يقولون له : هيا ، ارو لنا شيئا .. يا ادولف .. او لعله رودولف .. على ما اظن » ! .. وارتجفت « ايما » ، فاقترب منها « ليون » قائلا : « هل تشكين من شىء ؟ » .. فقالت : « لا ، لا شىء ! .. انها رطوبة الليل ولا بد ! » .. واضاف النوتى الكهل بصوت خافت ، ظنا منه انه يتلطف الى الشاب الغريب : « ولم تك تنقصه الفتنة التى تدير رؤوس النساء ! » .. ثم بصق فى راحتيه ، واكب على مجدافيه ..

ومع ذلك ، كان لا بد من ان يفترقا .. وكان الوداع اليما .. واتفقا على ان يرسل خطاباته بعنوان الام « روليه » ، فاوصته بان يحرص على ان يضع كل الرسالة فى مظروف داخل المظروف الخارجى ، فاطرى - فى اعجاب شديد - هذا الحرص الغرامى ! .. وقالت مع قبلتها الأخيرة : « اذن ، فانت تؤكد لى ان كل شىء على ما يرام ؟ » .. فاجاب : « اجل .. بالتاكيد ! » .. وراح يسائل نفسه فيما بعد ، وهو يعود وحده خلال الطرقات : « ولكن ، لماذا هى جد ملهوفة على التوكيل الرسمى ؟ »

الفصل الرابع

◆ لم يلبث « ليون » ان ابدى ترفعا ازاء زملائه ، فاخذ يتحاشى صحبتهم ، واهمل عمله اهمالا تاما .. وكان ينتظر خطاباتها ، فيقراها مرارا ، ثم يكتب اليها ، ويروح يتمثلها بكل ما لشهوته وذكرياته من قوة . واخذ الشوق الى رؤيتها يزداد بدلا من ان يفتر لطول الفراق ، حتى انتهى به الأمر - فى صباح يوم سبت - الى الفرار من عمله ، ليزورها ! وما ان ابصر - من اعلى التل - برج الكنيسة فى الوادى ، والراية الحديدية البيضاء الصغيرة التى تعلوه - وهى تتحرك مع الريح - حتى شعر بتلك الغبطة الممتزجة بالغرور المزهو ، والحنو الأنانى

.. تلك الأحاسيس التى تستشعرها الملايين من الناس حين يزورون قراهم !..
وراح يحوم حول بيت « ايما » .. وكان ثمة ضوء ينبعث من المطبخ . واخذ يرتقب ظلها وراء الستائر ، ولكن شيئا لم يظهر !

وارسلت الام « لوفرانسوا » فيضا من صيحات العجب ، اذ خيل اليها انه « كبر ، ونحل عوده » ، بينما الفته « ارتميز » على النقيض « ازداد سمنة وسمرة » ! .. وتناول عشاءه فى القاعة الصغيرة ، كعهده فى الماضى ، ولكنه كان وحيدا ، اذ لم يكن محصل الضرائب هناك . فقد سئم « بينيه » انتظار عودة « العصفورة » فى كل مساء ، فقرر ان يقدم موعد عشائه ساعة ، واصبح يتناوله فى الساعة الخامسة بانتظام ، ومع ذلك فلم يكن يكف عن القول بأن « ساعة الفندق العتيقة متأخرة » !

على ان « ليون » لم يلبث ان حزم أمره ، فطرق باب الطبيب .. وكانت السيدة فى حجرتها .. اما السيد ، فقد ابدى اغتباطا لرؤيته . وفى ذلك المساء ، رآها « ليون » وحدها ـ فى ساعة جد متأخرة ـ فى الدرب الممتد وراء الحديقة .. عين الدرب الذى كانت تقابل فيه « الآخر » ! .. وكانت الليلة عاصفة ، فراحا يتناجيان تحت مظلة ، على وميض البرق .. وكان الفراق لا يطاق ، فقالت ايما : « ان الموت أهون ! » .. وتمرغت فى احضانه باكية ، وهى تقول : « وداعا ! .. وداعا ! .. متى اراك ثانية ؟ » .. ونكصا على اعقابهما ليتعانقا مرة اخرى .. واذ ذاك ، عاهدته على ان تدبر عما قريب ـ بأية وسيلة كانت ـ فرصة يلتقيان فيها بانتظام ـ وفى حرية ـ مرة فى كل اسبوع .. على الأقل ! .. وما ارتابت « ايما » قط فى قدرتها على ذلك ، فضلا عن انها كانت مفعمة بالأمل ، اذ كانت توشك ان تحصل على بعض المال .. وفى ارتقاب وصوله ، ابتاعت لمخدعها زوجا

من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة ، أكد السيد « لوريه » انها حصلت عليهما باقل من ثمنهما . وكانت تحلم بسجادة ، فقال « لوريه » انه ليس بالحلم العسير ، وانها لا تطمع فى « ان تشرب البحر » ، وتولى احضار سجادة لها . ومن ثم لم تعد تستغنى عن خدماته . وكانت ترسل فى استدعائه عشرين مرة فى اليوم ، فيترك اعماله دون تذمر ليلبى دعوتها .. كذلك لم يعد الناس يدركون سر ذهاب الام « روليه » لتتناول الفطور عندها كل يوم ، ولا سر اختلائها بها فى زياراتها ..

☆ ☆ ☆

◆ وفى تلك الفترة ـ اى حوالى بداية الشـتاء ـ تملكها شغف كبير بالموسيقى . وفى احدى الليالى ، جلس « شارل » يصغى اليها ، فاذا بها تعيد عزف القطعة ذاتها اربع مرات متواليات ، وهى غير راضية ، مع انه لم يلاحظ فى عزفها اى اختلاف ، فصاح : « مرحى ! .. بديع جدا ! .. انك مخطئة فى ظنك ! .. واصلى ! »

ـ آه ، لا .. هذا نشاز .. لقد صدات اصابعى !

ورجاها فى اليوم التالى ان تعزف له ثانية احدى المقطوعات ، فقالت : « لا باس .. ارضـــاء لك ! » . واعترف « شارل » بانهـــا خرجت عن اللحن قليلا .. وراحت تخطىء فى توقيع الانغام ، وتتخبط ، ثم توقفت دون ان تتم اللحن ، وهتفت : « آه ! .. لافائدة ! .. خليق بى ان اتلقى دروسا ، ولكن .. » .. وعضت شفتها مستطردة : « ولكن عشرين فرنكا للدرس ، مبلغ باهظ ! » .. فقال « شارل » متضاحكا فى غباء : « اجل ، فى الواقع .. بعض الشىء .. انما يلوح لى ان فى وسع المرء ان يحصل على الدروس بثمن أقل .. اذ هناك فنانون مغمورون ، كثيرا ما يكونون افضل من المشهورين » .. قالت ايما : « ابحث عنهم ! »

وعندما عاد الى البيت فى اليوم التالى ، رمقها بنظـــرة خبيثة ، وما لبث ان عجز عن كتمان مالديه ، فقال : « كم انت عنيدة فى بعض الاحيان ! .. لقد كنت فى (بارفوشير) اليوم .. حسنا ! .. لقد انباتنى مدام « ليبجار » ان بناتها الثلاث اللاتى يدرسن فى معهد الرحمة ـ « لاميزيريكورد » ـ يتلقين دروسا بمعدل خمسين سو (اى فرنكين ونصف فرنك) للحصـــة .. وعلى يدى استاذة مشهورة كذلك ! » .. فهزت كتفيها ، ولم تعد تفتح معزفها . ولكنها كانت كلما مرت به ـ و « بوفارى » موجود ـ زفرت قائلة : « آه .. يامعزفى المسكين ! » .. واذا زارها احد ، لم تكن تقصر فى اشعاره بانها هجرت الموسيقى ولم تعد قادرة على العودة اليها ، لاسباب قاهرة . فكان الزائر يقول : « يا للخسارة ! .. كيف ذلك وهى التى اوتيت هذه الموهبة

البديعة !؟ » •• بل كان الزائرون يتحدثون الى « بوفارى » ، ويخجلونه •• لاسيما الصيدلى الذى كان يقول : « انك على خطأ ، فما ينبغى للمرء قط ان يترك المواهب الطبيعية مهملة • ثم تذكر ، يا صديقى الحميم ، انك اذ تحمل زوجتك على الدراسة ، انما تقتصد نفقات التعليم الموسيقى لطفلتك فيما بعد ! فانا اعتقد ان على الامهات ان يعلمن اطفالهن بانفسهن ! •• هذا راى « روسو » •• ولعله لايزال رايا مستحدثا ، ولكنى متاكد من انه لن يلبث ان ينتصر فى النهـــاية ، كما انتصر الراى الخاص بلبن الأم ، وبتطعيم الاطفال ! »

وهكذا عاد شارل مرة اخرى الى موضوع « البيانو » ، فقالت « ايما » فى جفاء ان من المستحسن بيعه •• وبدا لبوفارى ان التفريط فى هذا المعزف - الذى طالما ارضى كبرياءها - ليس سوى قتل لجزء من كيانها دون مراء ، ومن ثم قال : « اذا كنت بحـــاجة الى درس - من وقت لآخـــر - فما اظن هـــذا يبهظنا كثيرا » ، فاجابت : « ولكن الدروس لا تجدى الا اذا تتابعت فى مثابرة »

وبهذه الطريقة ، استطاعت ان تحصل على اذن من زوجها بان تذهب الى (روان) مرة كل اسبوع ، حيث كانت تلتقى بعشيقها •• وما انقضى شهر ، حتى بدا انها احرزت تقدما كبيرا فى العزف !!

الفصل الخامس

• كان اليوم الذى خصص للدراسة هو يوم الخميس من كل اســبوع •• فكانت تنهض من نومها وترتدى ثيابها فى هدوء ، حتى لا توقظ « شارل » الذى كان ولابد سيدهش ، لانها تتاهب للرحيل فى وقت جد مبكر !•• وكانت بعد ذلك تروح وتجىء ، وتذهب الى النوافذ فتطل على الميدان •• والفجر الوليــد يحبو بين اعمدة السوق ، وبيت الصيدلى ، حيث تكون المصاريع مغلقة •• وعلى ضوء الفجر الشاحب ، تبدو الحروف الكبيرة التى كتبت بها لافتة الصيدلى •• فاذا ما اشارت الساعة الى الربع بعد السابعة ، قصدت الى فنـــدق « الاسد الذهبى » ، فتفتح لها « ارتميز » بابه وهى تتثاءب ، ثم تحرك لها الفحم القابع تحت رماد المدفأة •• وتبقى « ايما » فى المطبخ وحيدة ، تخرج من آن لآخر - بعد ان يكون قد تناول حساءه - ويشعل غليونه ، ويقبض على سوطه ، ثم و « هيفير » يسرج جـــواديه فى تراخ ، مصـــغيا - بجانب ذلك - الى الأم « لوفرانسوا » التى تدفع راسها بقلنسوة النوم القطنية خلال كوة ، وتكلفه بالمهام ، وترهقه بايضاحات كانت كفيلة بان تثير غيظ اى انسان آخر •• وتظل « ايما » تدق رصيف الفناء بنعلى حذاءيها •• واخيرا ، يرتدى الحوذى معطفه - بعد ان يكون قد تناول حساءه - ويشعل غليونه ، ويقبض على سوطه ، ثم

يستقر على مقعده فى « العصفورة » ، فتبدأ هذه رحلتها فى خطى بطيئة ، متوقفة هنا وهناك – خلال الميل الاول – لتلتقط المسافرين الذين يكونون فى انتظارها وقوفا على حافة الطريق ، امام ابواب افنية دورهم ٠٠ وكان الذين حجزوا لانفسهم مقاعد فى الليلة السابقة ، يتركون العربة تنتظرهم ٠٠ بل كان منهم من ينتظرها وهو فى سريره ، داخل داره ٠٠ فكان « هيفير » ينادى ، ويصيح ، ويصخب ، ثم يهبط عن مقعده ، ويطرق الابواب فى عنف ٠٠ والريح تصفر خلال شقوق نوافذ العربة ٠٠

☆ ☆ ☆

◆ واذ تمتلىء المقاعد الاربعة ، تنطلق العربة ، وصفوف اشجار التفاح تتتابع ، والطريق بين خطى الخنادق المليئة بالماء الاصفر – لرى هذه الاشجار – تمتد مائلة الى الضيق باطراد كلما قاربت الافق ٠٠ وكانت « ايما » قد عرفت هذه الطريق من اولها الى نهايتها ، فكانت تعلم ان ثمة علامة من علامات الطريق تقوم بعد منطقة من المراعى ، تتلوها شجرة دردار ، ثم احد الاهراء (شونة) ، وكوخ احد الفلاحين العاملين فى الحقول ٠٠ بل انها كانت احيانا تغمض عينيها املا فى المفاجآت ، ولكنها كانت لا تخفق ابدا فى التكهن بما يطوى من مسافات ٠٠ واخيرا ، تبدأ البيوت المبنية بالطوب فى التتابع ، وتزداد تقاربا ، ويسمع للعجلات صوت خاص – اذ تدلف الى الطرق المرصوفة – ثم تنساب «العصفورة» بين حدائق يرى المرء خلال فرجاتها تماثيل ، واحدى عرائش الكروم ، واشجار « الشوحط » المقلمة ، وارجوحة ٠٠ ثم تظهر المدينة فجاة ، متدرجة فى الانحدار كما لو كانت مدرجا فى احد الملاعب ، وقد غرقت فى احضان الضباب ، ٠٠ وتنبسط بعد الجسور ، متسعة فى فوضى ٠٠ ثم يمتد الريف بعد ذلك ، فى استرسال رتيب ، حتى يمس – على البعد – الخط المائع الذى تلتقى عنده

السماء الباهتة بالأرض ٠٠ وكانت المنطقة تبدو من عل جامدة ، كلوحة مرسومة ٠٠ وقد تجمعت السفن الراسية فى أحد أركانها ، وتلوى النهر حول سفوح التلال الخضراء ، واستلقت الجزر فى أوضاع منحرفة ، وسط الماء ، كأنها أسماك ضخمة ، ساكنة ، سوداء ٠٠ ومداخن المصانع تنفث سحبا بنية هائلة من الدخان ، تنتشر فى الفضاء ٠٠ وهدير المسابك يسمع مختلطا بالرنين الجلى المنبعث من أجراس الكنائس القائمة وسط الضباب ٠٠ والاشجار العارية عن الاوراق فى الطرقات ، تبدو ـ على البعد ـ متجمعة كأحراش بنفسجية وسط البيوت ، والسقوف اللامعة بماء المطر تعكس بريقا غير متعادل ، تبعا لارتفاع الاحياء التى تقوم فيها ٠٠ وأحيانا ، تهب نسمة من ريح ، فتدفع السحب نحو تلال (سانت كاترين) ، كأنها موجات هوائية تتكسر فى صمت على صخرة شاهقة ٠٠

وكان يخيل لايما ان لونا من الزهو يواتيها من هذه الكتلة من الوجود ، فينتفخ فؤادها ، وكأن المائة والعشرين الف قلب ـ التى تخفق فى المدينة ـ قد نفثت فى هذا الفؤاد ما تعمر به من عواطف مشبوبة ! ٠٠ وينمو حبها ازاء هذا الفضاء الشاسع ، ويزخر قلبها بصخب ازاء الطنين المبهم الذى يترامى اليها من البلدة ، فتروح تسكب بدورها ما يفعم به قلبها ، وتفيض منه على الميدان ، والطرقات ، والشوارع ٠٠ وتمتد أمامها هذه المدينة العريقة ـ من مدن نورماندى ـ كما لو كانت عاصمة ضخمة ٠٠ او كأنها «بابل» توشك أن تدخلها !٠٠ وتميل على نافذة ، معتمدة على كلتا يديها ، لتعب من النسيم ٠٠ وتأخذ الجياد الثلاثة فى الركض على الارض المرصوفة بالاحجار والتى يكسوها الوحل ، والعربة ترتج ، و « هيفير » يحيى عن بعد العربات التى تجرى فى الطريق ، بينما ينحدر الاهالى الذين قضوا ليلتهم فى غابة (جيوم) ، على السفح فى هدوء ، مستقلين عربات أسراتهم ٠٠

★ ★ ★

◆ وتقف العربة عند السياج ، فتخلع « ايما » الوقاءين اللذين يحيطان بحذاءيها ، وترتدى قفازيها ،وتسوى من شالها ، ولا تلبث أن تغادر «العصفورة» ٠٠ فاذا المدينة تنفض عنها السبات ، وعمال المتاجر ينظفون ـ فى قلنسواتهم ـ واجهات الحوانيت ، وبعض النسوة قد حملن سلالا اسندنها الى أردافهن ، ورحن ينادين بأصوات جهورية عند ناصيات الشوارع فى فترات ٠٠ وتسير « ايما » لصق الجدران ، وقد نكست عينيها ، وراحت تبتسم فى غبطة تحت قناعها الاسود ٠ ولم تكن تسلك اقرب الطرق ـ فى العادة ـ خشية أن يراها أحد ، بل كانت تضرب فى الحوارى المعتمة ، حتى تبلغ نهاية شارع (ناسيونال) ـ على

مقربة من النافورة ـ وهى تتصبب عرقا ٠٠ كان ذلك حى المسارح ، والحانات ، والغانيات ٠٠ وكم من مرة كانت تمر بها عربة بداخلها منظر منكر !٠٠ بينما ينهمك خدم المشارب ـ فى مراولهم ـ فى نثر الرمل على البلاط ، بين الشجيرات الخضراء ، والجو يعبق بروائح الكحول ، والسيجار ، والمحار ٠٠

وتنحرف الى أحد الشوارع ٠٠ ثم تعرفه بشعره المجعد المنساب من تحت قبعته ٠٠ ويسير « ليون » على الرصيف ، وهى فى أثره ، حتى الفندق ، فيصعد ، ويفتح الباب ، ويدخل ٠٠ ويا له من عناق !٠٠ ثم تنساب الكلمات دافقة بعد القبلات ٠٠ ويحدث كل منهما الآخر بمتاعب الاسبوع ، وهواجس القلب ، واللهفة الى الخطابات ٠٠ على أن كل شىء كان لا يلبث أن يغدو منسيا ، ويروح كل منهما يحملق فى وجه الآخر ، وينطلق فى ضحكات داعرة ، ويناديه بأرق الاسماء !

وكان السرير واسعا ، من خشب المهوجانى ، على شكل قارب ، والستائر من حرير الشرق الأحمر ، تنسدل من السقف ، وتنتفخ كثيرا وهى تقترب من رأس الفراش الشبيه بالناقوس٠٠وما كان فى الدنيا ما هو أجمل من شعر «ايما» البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى ـ الذى تضفيه الستائر ـ عندما تثنى ذراعيها العاريتين فى حركة مستحيية لتخفى وجهها فى راحتيها ٠٠ وكأنما كانت الحجرة الدافئة ـ بستائرها السميكة ، وزخرفها البهيج ، وضوئها الهادىء ـ قد خلقت للخلوات المشبوبة ! ٠٠ وكانت القصبات التى علقت اليها الستائر ، والتى كانت تنتهى من الطرفين بسهمين ، والحلقات النحاسية ، والكرتان الكبيرتان المعلقتان فوق المدفأة ، تبرق فجأة حين تتسلل الشمس الى الغرفة ٠٠ وبين الشمعدانين القائمين على رف المدفأة ، كانت ثمة محارتان كبيرتان من ذلك النوع الذى يخيل للمرء ، اذا ما ألصقه بأذنه ، انه يسمع خرير البحر !٠٠ ما كان أقوى حبهما لهذه الحجرة الغالية ، المفعمة بكل هذه البهجة ، رغم روائها الخابى !٠٠ كانا دائما يجدان قطع الاثاث فى أماكنها المعهودة ، بل كانا أحيانا يجدان دبابيس الشعر التى تكون قد نسيتها فى يوم الخميس السابق ، عند قاعدة الساعة ٠٠ وكانا يتناولان الغداء الى جوار المدفأة ، على منضدة صغيرة مستديرة ، مرصعة بخشب الورد ٠٠ وكانت « ايما » تقطع اللحم ، وتنقل قطعا الى طبقه ، بكل ألوان الحركات الخليعة ، وترسل ضحكات رنانة منغومة اذا سال زبد الشمبانيا من الكوب الى الخواتم التى تحيط بأصابعها ٠٠ وكان كل منهما ينتشى بقرب الآخر ، حتى ليخال انه فى بيتهما ، وانهما سيعيشان معا حتى الموت ، كقرينين كتب لهما الشباب أبدا !٠٠ وكانا يرددان فى أحاديثهما : « غرفتنا » ، و «سجادتنا» ٠٠ بل كانت تقول «خفى» وهما خفان أهداهما اليها « ليون » ، فكانت تشعر بلذة فى انتعالهما ٠٠ كانا

من الحرير الوردى ، يحيط بكل منهما اطار من زخارف نقشت على شكل البجعة .. وكانت اذا ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقاها فى الهواء ـ لقصرهما فى هـذا الوضع ـ فلا يمسك الخف الانيق ، الى قدمها العارية ، سـوى اطراف أصابع القدم !

أما هو ، فقد نعم للمرة الاولى بالوان اللطف الانثوى التى لا سـبيل الى وصف عذوبتها .. أبدا لم يصادف من قبل هذه اللفة الرقيقة ! ولا هذه الألوان من الثياب المستترة ، ولا هذه الاوضاع التى يمليها عليها الطيش فى نعاسها .. وكان يعجب بما تزخر به نفسها من غواية ، وما يزدان به قميصها من «دانتيلا» ! .. ثم ، ألم تكن سيدة مجتمع وزوجة ! .. وعشيقة صادقة ، أخيرا ؟

وبتباين مزاجها ـ من مزاج ورع، الى مرح، الى ثرثار، الى صامت ، الى منفعل مشبوب ، الى مستهتر ـ أيقظت فيه ألف رغبة ، وأثارت الغرائز والذكريات .. كانت تمثل العشيقة فى كل رواية ، والبطلة فى كل مسرحية .. و « هى » الغامضة ، المبهمة ، فى كل دواوين الشعر .. وعلى كتفيها ، تراءى له ذلك اللون الكهرمانى الذى كان قد رآه فى لوحة « جارية فى الحمام » ! .. ورأى فى جسدها ذلك الخصر الطويل الذى كان طابع سيدات القصور فى العصور الاقطاعية ، كما كانت تشبه « حسناء برشلونة الشاحبة » .. على انها كانت فوق كل هذا : « الملاك » ! .. وكثيرا ما كان يخيل اليه ، وهو يتأملها ، ان روحه تنطلق نحوها ، فتنتشر كموجة حول حدود رأسها ، ثم تهبط مجذوبة الى نحرها .. وكان يركع أمامها على الأرض ، ويعتمد بمرفقيه على ركبتيها ، ويروح يتطلع اليها بابتسامة ، مشرئبا بعنقه ! .. وكانت هى تنحنى عليه ، وتغمغم والنشوة تخنقها : « اواه ، لا تتحرك ! لا تتكلم ! انظر الى ! .. من عينيك تنبعث حلاوة تنعشنى ! » .. وكانت تدعوه بالطفل ، فتقول : « أو تحبنى يا طفل ؟ » .. ولم تكن تسمع جوابه، اذ تسرع بالصاق شفتيها بشفتيه !

وكان فوق الساعة تمثال برونزى لكيوبيد مبتسما ، وهو يثنى ذراعه تحت غصن ذهبى .. انهما كثيرا ما ضحكا لمظهره ، ولكنه كان يبدو لهما اذا حانت ساعة الفراق ، حزينا عابسا !.. وكانا يرددان وهما يقفان متقابلين ، لا يحيران حراكا : « الى الخميس القادم .. الى الخميس ! » .. وكانت تحتوى رأسه بين راحتيها فجأة ، وتطبع قبلة متعجلة على جبينه ، وتصيح : « وداعا ! » .. ثم تندفع الى السلم ، فتيمم شطر شارع (لا كوميدى) ، لدى حلاق ينسق لها شعرها . ويهبط الليل ، فيوقد مصباح الغاز فى حانوت الحلاق ، وتسمع جرس المسرح المواجه يدعو الممثلين الى الظهور ، وترى رجالا ذوى وجوه بيضاء ، ونساء ذوات زينة خابية ، يلجون خلال الباب المفضى الى « الكواليس » .. وكان الجو حارا فى ذلك الحانوت الصغير ذى السقف الشديد الانخفاض ، حيث كانت المدفأة ـ

التى توقد بغاز الاستصباح - تئز وسط الشعور المستعارة والدهون • وكانت رائحة ملاقط كى الشعر ، مع رائحة اليدين الملطختين بالزيوت واللتين تعالجان شعرها ، لا تلبثان ان تخدراها ، فتغفو قليلا ، تحت يدى الحلاق •• وكثيرا ما كان الرجل يقدم لها - وهو ينسق شعرها - تذاكر لحفلات رقص تنكرية !

وكانت تنصرف بعد ذلك ، فتجتاز الطرق حتى تبلغ فندق الصليب الأحمر ، حيث تكون «العصفورة» فى الانتظار ، فتحيط حذاءيها بالوقاءين اللذين دستهما تحت المقعد فى الصباح ، وتندس فى مجلسها بين المسافرين النافدى الصبر • وكان بعضهم يبارح العربة اسفل التل ، فتبقى « ايما » وحيدة •• واضواء البلدة تزداد جلاء كلما مضت العربة فى طريقها فوق السفح ، فتبعث غلالة كبيرة منيرة فوق البيوت المعتمة •• وتركع « ايما » فوق الوسائد ، وترسل بصرها يحوم فوق الأضواء المتألقة •• وتبكى •• وتنادى « ليون » •• وتبعث اليه - مع الريح - بأرق المناجاة واعذب القبلات •• وكان ثمة متسول مخبول يهيم على السفح ، ضاربا بعصاه بين عربات البريد ، تغطى منكبيه كومة من الأسمال ، ويخفى وجهه وراء قبعة من جلد كلب البحر ، تبدو كوعاء مقلوب ، فاذا رفعها ، كشف فى مكان الجفنين عن ثقبين غائرين ملطخين بالدم ، وقد تمزق لحمهما اربا حمراء تتدلى وتنزى بسوائل تنساب فى خط اخضر على طول الأنف الذى كانت فتحتاه تختلجان فى حركات تشنجية ! •• ولكى يتحدث اليك ، كان يطوح رأسه الى الخلف فى ضحكة مخبولة ، ثم يدور انسانا عينيه - الضاربان الى الزرقة - فى حركة مستمرة ، مندفعين نحو صدغيه ، على حافة الجرح المنكوء •• وكان يردد وهو يتبع العربات اغنية قصيرة : « دفء الأيام الجميلة كثيرا ما يوحى الى العذارى بأحلام الهوى » •• ويدور باقى الاغنية حول الطيور ، والشمس المشرقة ، وأوراق الشجر الخضراء ••

وكان - فى بعض الأوقات - يظهر فجاة وراء « ايما » وهو عارى الرأس ، فتجفل صارخة •• ويسخر منه « هيفير » ، وينصحه بان يستأجر خيمة فى مهرجان « سان رومان » ، أو يسأله ضاحكا عن صحة عشيقته ! •• وكثيرا ما كانت العربة تتحرك ، فاذا قبعته تندفع الى داخلها بحركة مفاجئة من يده ، خلال النافذة الصغيرة ، بينما يتعلق بذراعه الاخرى بحافة العربة ، بين العجلات التى تنثر الوحل •• وينبعث صوته فى البداية واهنا ، مرتجفا ، ثم يزداد حدة ، ويدوى فى الليل كأنين غامض ينبعث من شخص محزون •• وقد أوتى رنينا ينطلق الى مدى بعيد بين دقات الأجراس ، وحفيف الأشجار ، وقرقعة العربات الفارغة ، فيثير الاضطراب فى نفس « ايما » ، ويتغلغل الى أعماقها ، كاعصار فى هوة سحيقة ، ويحملها الى مفازات من الأسى لا حدود لها ! •• ولكن « هيفير » كان لا يلبث ان يشعر بثقل فى مؤخرة العربة ، فيلهب الأعمى

بسوطه ، ويمس طرف السوط جراحه ، فيهوى فى الوحل صارخا ٠٠ ولا يلبث أن ينتهى الأمر بركاب « العصفورة » الى النوم ، فمنهم من يفغر فاه ، ومنهم من يحنى ذقنه على صدره ويرتكن الى كتف جاره ، أو يدس ذراعيهخلف حزامالعربة ،ويروح يهتز مع ارتجاجاتها٠٠وضوء المصباح الذىينعكس متذبذبا على كفل الجواد القريب ، ينساب الى داخل العربة خلال الستائر المصنوعة من خيش بنى ، فيلقى ظلالا دموية على أولئك الجامدين فى أماكنهم جميعا ٠٠ وكانت « ايما » المستغرقة فى أساها ، ترتجف تحت ثيابها ، وتحس بقدميها تزدادان برودة باطراد ، وبالموت يجثم على نفسها !

★ ★ ★

◆ ويكون « شارل » فى انتظارها فى البيت ٠٠ وكانت « العصفورة » تتأخر دائما فى أيام الخميس ٠٠ وتصل السيدة الى دارها أخيرا ، فتقبل طفلتها فى ازورار ٠٠ ولا يكون العشاء معدا ، فلا تحفل ، بل تلتمس للخادم عذرا ، فقد أصبحت الفتاة تتصرف كما يحلو لها ! ٠٠ وكثيرا ما كان زوجها يسألها – اذ يلاحظ شحوبها – عما اذا كانت تحس وعكة ، فتقول : « لا » ٠٠ ويرد قائلا : « ولكن شكلك غريب الليلة ! » ٠٠ فتجيب : « آه ، لا شىء ! ٠٠ لا شىء ! » ٠٠ بل كانت فى بعض الأيام لا تكاد تلج الدار حتى تصعد الى مخدعها ٠٠ وقد يكون « جوستان » هناك مصادفة ، فيروح ويغدو فى هدوء ، مبادرا الى خدمتها خيرا من أفضل وصيفة ٠٠ فيضع الثقاب والشمع وكتابا فى متناول يدها ، ويسوى قميص نومها ، ويقلب أغطية السرير ٠٠ ولا تلبث ان تقول : « كفى ! ٠٠ تستطيع أن تنصرف ! » ، اذ كان يظل واقفا ، ويداه متدليتان الى جانبيه ، وعيناه مفتوحتانعلى وسعهما ، وكأنهما مشدودتان الى خيوط لا عداد لها تنبعث من طيف باغته !

وكان اليوم التالى يغد فظيعا ، والأيام التى تعقبه أشد منه وطأة ، بسبب الضيق الذى يستبد بايما لحرمانها من السعادة ٠٠ وكان الشوق المتأجج ، الذى تذكيه صور تجارب الماضى ، ينطلق من اساره فى اليوم السابع ، فى أحضان « ليون » ٠٠ اما هو ، فكانت وقدة شبقه تتوارى خلف فورات العجب والشعور بالجميل٠٠ وكانت « ايما » تتذوقغرامه فى رزانة واستغراقواستيعاب، وتستبقيه بكل حيل حنانها وفنون عواطفها ، وترتجفخشية ان تفقده فيما بعد ٠٠ وكثيرا ما كانت تقول له بصوتها العذبالشجى : « آه ! ٠٠ لسوفتهجرنى يوما ! ٠٠ لسوف تتزوج ، وتفعل ما يفعله الآخرون ! » ٠٠ فيسألها : « أى آخرين ؟ » ٠٠ وتجيب : « عجبا ، ككل الرجال » ٠٠ ثم تردف وهى تصده بحركة واهنة : « انكم جميعا أرذال أنجاس ! »

وفيما كانا يتحدثان يوما متفلسفين عن ألوان الخيبة التى تصيب الأوهام فى الدنيا ، اذا بها تنبئه بأنها - فيما مضى - كانت موضع حب شخص آخر .. قبله .. وكأنما أرادت ان تختبر غيرته ، أو لعلها كانت منساقة وراء قوة لا قبل لها بمقاومتها ، تدفعها الى أن تفضى بدخيلة قلبها .. ثم اردفت مسرعة : «لم يكن على شاكلتك» .. وراحت تقسم برأس ابنتها على انه لم يجر بينهما شىء ! .. وصدقها الشاب ، ولكنه مع ذلك راح يسألها ليعرف شيئا عنه .. فقالت: « لقد كان ربان سفينة يا عزيزى ! » .. افلم يكن هذا رادعا عن كل تساؤل ، محققا لها فى الوقت ذاته مكانة رفيعة ، لكونها استطاعت أن تفرض سحرها على رجل كان ولا بد ذا فطرة محاربة ، وكان معتادا ان يتلقى الاكرام والولاء ، لا أن يقدمهما !

★ ★ ★

◆ اذ ذاك شعر الكاتب بضعة مركزه ، وتاق الى الأشرطة التى تزين أكتاف الضباط ، والى الصلبان ، والألقاب .. كل هذا لا بد ان يسرها .. فهكذا ادرك من عاداتها المبنية على الاسراف ! .. ومع ذلك ، فقد كانت تخفى كثيرا من نزواتها المبذرة ، كرغبتها فى ان تقتنى عربة خفيفة زرقاء ، تقلها الى (روان) ، ويجرها جواد انجليزى ، ويقودها حوذى يلبس حذاءين من النوع ذى العنق العالى . وكان « جوستان » هو الذى أوحى اليها بهذه النزوة ، اذ راح يتوسل اليها ان تلحقه بخدمتها كوصيف .. واذا كان الحرمان من هذه الرغبة لم يقو على ان يقلل من سرورها بوصولها الى موعد اللقاء فى كل مرة ، الا انه كان يضاعف من أساها فى العودة .. وكثيرا ما كانت تغمغم حين يتحدثان عن باريس : « آه ! .. شد ما نسعد اذا عشنا هناك ! » فيجيبها «ليون» متسائلا فى رفق ، وهو يدس يديه فى شعرها : « أو لسنا سعيدين ؟ » .. فتقول : « بلى ، حقا..اننى مجنونة .. ألا قبلنى ! »

وازدادت تلطفا الى زوجها عن ذى قبل، فاصبحت تصنع له «الكريمة بالفستق» ، وتعزف له ألحان « الفالس » بعد العشاء ، حتى خال نفسه أسعد الناس حظا . وظلت « ايما » تعيش دون ما شىء يثير قلقها ، حتى كان ذات مساء ، اذ سألها فجـأة : « ان مدموازيل لامبرير هى التى تلقنك الدروس .. أليست هى ؟ » .. قالت : « بلى ! » .. فاردف قائلا : « حسنا !.. لقد قابلتها منذ هنيهة ، فى منزل مدام « ليبجار » ، وحدثتها عنك ، فلم تعرفك ! » .. وكأنما انقضت عليها صاعقة ، ولكنها مع ذلك أجابت فى هدوء طبيعى : « آه .. لا شك انها نسيت اسمى » .. قال الطبيب : « أو لعل هناك أكثر من مدموازيل لامبرير واحدة ، يدرسن الموسيقى فى روان ! » .. فبادرت قائلة : « ربما ! .. ولكنى أحتفظ بالايصالات هنا .. انظر ! » .. وسارت الى المكتب ، فنقبت فى كل

أدراجه ، وبعثرت الأوراق ، ثم جن جنونها أخيرا حين لم يرجها شارل - في الحاح - ان لا تزعج نفسها بأمر هذه الايصالات.. وقالت: « آه .. سأبحث عنها»
وقد كان .. فبينما كان « شارل » يدس قدمه في أحد الأحذية التي كانت في الخزانة المظلمة التي اعتاد ان يحفظ فيها ثيابه ، اذا به يشعر بقصاصة ورق بين جوربه وجلد الحذاء ، فتناولها ، وقرأ فيها : « تسلمت مبلغ ثلاثة وستين فرنكا عن دروس موسيقية لثلاثة أشهر ، وعدد من القطع الموسيقية - فيليسي لامبرير ، معلمة موسيقى »

- كيف ، بحق الشيطان ، قدر لهذا ان يكون في حذائي ؟
فأجابت : « لا بد انه وقع من الصندوق الورقي القديم الذي نحتفظ فيه بأوراق الحساب ، والذي نضعه على حافة الرف »

★ ★ ★

◆ منذ تلك اللحظة أصبح وجودها مجموعة متصلة من الأكاذيب ، التي كانت تلف فيها هواها ، كما لو كانت أقنعة تخفيه .. كان الكذب ضرورة ، بل هواية ، بل لذة يحلو المضي فيها الى درجة انها اذا قالت انها سارت في اليوم السابق على الجانب الأيمن من الطريق ، وجب على المرء ان يدرك انها سارت على الجانب الأيسر ! .. وذات يوم خميس ، بدأت السماء تمطر جليدا على حين غرة ، بعد خروجها في ثياب خفيفة كعادتها . وبينما كان « شارل » يرقب الجو خلال النافذة ، لمح الأب « بورنيسيان » في عربة السيد توفاش الخفيفة ، في الطريق الى (روان) ، فهبط وأعطى القس شالا سميكا ساله ان يسلمه الى زوجته بمجرد وصوله الى فندق « الصليب الأحمر » .. فلما بلغ السيد « بورنيسيان » الفندق ، سأل عن زوجة طبيب (ايونفيل) ، ولكن ربة الفندق ذكرت له انها نادرا ما تفد على نزلها . ومن ثم فان القس حين رأى مدام « بوفاري » في « العصفورة » - في ذلك المساء - أنبأها عن ورطته ، وان لم يبد عليه انه علق على الأمر أهمية كبيرة ، اذ لم يلبث ان تحول يطري واعظا كان يفعل العجائب في الكاتدرائية ، وأصبحت السيدات جميعا يحرصن على سماعه ! .. واذا كان القس لم يطلب منها أي تفسير ، الا ان غيره قد يكون أقل منه رزانة ، فيما بعد . ومن ثم اعتزمت ان تنزل في فندق « الصليب الأحمر » في كل مرة ، حتى لا يرتاب أحد من أهل قريتها اذا رأوها على سلمه !
غير أن السيد « لوريه » التقى بها يوما وهي تغادر فندق « بولوني » ، متكئة الى ذراع « ليون » ، فجزعت اذ ظنت أنه لن يلبث أن يشي بها . ولكنه لم يكن حيوانا « مجردا من العقل » ! .. ومع ذلك فقد زارها في غرفتها بعد ثلاثة أيام ، وأغلق الباب ، ثم قال : « انني في حاجة الى نقود ! » .. فصارحته بأنها لا تملك

ان تعطيه شيئا ، فانفجر يكيل لها اللوم ، ويذكرها بكل ما أبداه لها من مراعاة ومعروف ٠٠ اذ أن « ايما » لم تكن قد سددت ـ حتى ذلك الحين ـ سوى قيمة سند واحد من السندين اللذين وقعهما « شارل » ٠٠ أما السند الثانى ، فقد قبل التاجر ـ برجاء منها ـ أن يستبدل به آخر ، جدد بدوره الى اجل بعيد ٠ وما لبث ان اخرج من جيبه قائمة بسلع لم تدفع ثمنها ، هى الستائر ، والسجادة ، وقماش لكسوة المقاعد الوثيرة ، وعدة أثواب ، ومجموعة من أدوات الزينة ٠٠ وكانت اثمانها تبلغ الفى فرنك ! ٠٠ ونكست « ايما » رأسها ، وهى تسمع حديثه : « ولكن ٠٠ اذا لم تكن لديك نقود حاضرة ، فانت تملكين عقارا » ٠٠ وذكرها ببيت صغير متداع تعس فى (بارنفيل) ـ على مقربة من (أومال) ـ لم يكن ذا قيمة تذكر ٠ وقد كان فيما مضى جزءا من مزرعة صغيرة باعها السيد « بوفارى » الأب ، لكنه استبقاه لنفسه من دونهـــا ، فورثه ابنه عنه ٠٠ وهكذا ، كان « لوريه » يعرف كل شىء ٠٠ حتى مساحة الأرض بالهكتار ، وأسماء الجيران !

وما لبث أن استطرد قائلا : « لو أننى فى مكانك ، لخلصت نفسى من الديون ، وحصلت فوق ذلك على مبلغ من المال » ٠٠ فاشارت الى صعوبة العثور على مشتر ، ولكنه أوحى اليها بالأمل فى أن يعثر على واحـــد ، فاستفسرت منه عما تفعله لتتمكن من البيع ٠٠ وسالها : « أليس لديك تفويض ؟ » ٠٠ وهبت عليها الكلمة الأخيرة كنسمة عليلة ، فقالت : « دع لى قائمة الحساب » ٠٠ وأجاب لوريه : « آه ، انها ليست ذات بال » ! ٠٠ وما لبث أن عاد فى الأسبوع التالى ، وراح يزهى بأنه ـ بعد كثير عناء ـ قد وقع أخيرا على سيد من آل « لانجلوا » ، كان يرمق العقار منذ زمن طويل ، ولكنه لم يعرض بعد ثمنا ٠٠ فصاحت : « لست احفل بثمن معين ! » ٠٠ على أنهما اضطرا ـ على العكس ـ الى أن يتريثا ، ليتعرفا مدى استعداد ذلك الرجل ٠٠ وكان الأمر يستلزم رحلة ، ولما لم تكن تملك القيام بها ، فقد عرض « لوريه » أن يذهب الى الموقع ليراه مع « لانجلوا » ٠ وحين عاد ،ذكر أن المشترى عرض أربعة آلاف فرنك ، فأشرق وجه «ايما» للنبأ، وعقب لوريه قائلا : « وأعتقد صراحة أنه ثمن طيب ! »

وحصلت على نصف المبلغ فورا ، فلما همت بأن تسدد حسابها ، قال لهـــا التاجر : « انه ليحزننى ـ بشرفى ـ أن أراك تحرمين نفسك من مبلغ كبير كهذا فى التو ! » ٠٠ ونظرت اذ ذاك الى الأوراق المالية ، وراحت تحلم بالخلوات التى لا حصر لها ، والتى يمكن أن تتيحها هذه الفرنكات الالفان ٠٠ وقالت متلعثمة : « كيف ؟ ٠٠ كيف ؟ » ، فضحك متظاهرا بالطيبة ، وقال : « آه ! ٠٠ ان المرء يستطيع أن يضيف الى قوائم الحساب كل ما يريد ! ٠٠ أولست أعرف كيف تدبر البيوت ؟ » ٠٠ ورمقها بنظرة لا تحيد ، وهو يمسك بورقتين طويلتين راح يعبث فيهما باظافره ، ثم فتح حافظته فى النهاية ، وبسط أربعة سندات «تحت الطلب»،

قيمة كل منها ألف فرنك ، وقال : « وقعى هذه ، واحتفظى بالمبلغ » ٠٠ فشهقت فى استنكار ٠٠ فقال فى وقاحة : « اذا أعطيتك كل ما يفيض عن الدين، أفلا أكون قد أديت خدمة ؟ » ٠٠ وتناول قلما ، فكتب تحت قائمة الحساب : « تسلمت من مدام بوفارى أربعة آلاف من الفرنكات »

– الآن ، من يملك أن يزعجك ، ما دمت ستتقاضين خلال ستة أشهر ما تبقى من ثمن كوخك ، وما دمت سأرجىء موعد استحقاق السند الاخير حتى تتسلمى المبلغ ؟

وازداد ارتباك « ايما » بالعمليات الحسابية ، وسمعت طنينا فى أذنيها كأنه رنين العملة الذهبية التى تنساب من أكياسها متناثرة حولها على الأرض ٠ وأخيرا، انبأها « لوريه » بأن له صديقا حميما يدعى « فانكار » – صرافا فى (روان) – على استعداد لأن يدفع قيمة السندات الأربعة مقدما ، واذ ذاك سيسلمها ما يزيد على قيمة الحساب ٠٠

ولكنه بدلا من احضار الألفى فرنك ، لم يحضر سوى ألف وثمانمائة ، لأن صديقه «فانكار» – وكأنما كان صادقا فى زعمه – قد اقتطع مائتى فرنك كعمولة وفائدة عن الخصم ٠ ثم طلب منها – فى تظاهر بعدم الاكتراث – أن تكتب له ايصالا ، وهو يقول : « انك تدركين٠٠انه فى المسائل التجارية٠٠أحيانا ٠٠ » ٠٠ ثم استدرك : « ٠٠ اكتبى التاريخ من فضلك ٠٠ التاريخ »

★ ★ ★

◊ تفتح أمام « ايما » أفق من الأهواء التى يمكن تحقيقها ! على أنها كانت من الحكمة بحيث استبقت – من قبيل الحيطة – ألف دينار (١) ، استطاعت أن تدفع منها السندات الثلاثة الاولى ٠٠ على أن الرابع استحق الدفع فى أحد أيام الخميس – مصادفة – فراح « شارل » ينتظر بصبر نافد ، واستياء بالغ ، عودة زوجته ليسألها ايضاحا للأمر ٠٠ وقالت له – حين عادت – انها اذا لم تك أنبأته بأمر هذا السند ، فانما لتجنبه الشواغل المنزلية ٠٠ وجلست على ركبتيه تعانقه ، وتداعبه ، وتعدد له – فى قائمة طويلة – كافة الأشياء التى لا غنى عنها ، والتى اضطرت الى أن تحصل عليها بالنسيئة ٠٠ وقالت : « خليق بك أن تعترف أنها – بالنسبة للكمية – لم تكن جد باهظة ! » ٠٠ ولم يجد « شارل » حيلة ، سوى

---

(١) تكرر ذكر « الدينار » فى الكتابين الاول والثانى من ترجمة الرواية ، بحيث غدا من حق القارىء أن يعرف شيئا عن أصل هذا التعبير ٠ فالدينار ترجمة لكلمة écu ، وكانت تطلق على عملة فرنسية قديمة تعادل ثلاثة فرنكات ، فالألف دينار قيمتها ٣٠٠٠ فرنك ٠

أن يسرع الى الاستنجاد بلوريه الخالد ، الذى تعهد بأن يسوى الأمور ، اذا وقع « الدكتور » سندين لأمره ، أحدهما بسبعمائة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة اشهر . ولكى يدبر قيمة هذا السند ، كتب « شارل » الى امه خطابا مؤثرا .. ولكنها بدلا من أن ترسل له ردا ، حضرت بنفسها ..

وعندما أرادت « ايما » أن تعلم ما اذا كان قد حصل على شيء منها ، قال : « أجل ، ولكنها تريد أن ترى الحساب » .. وما ان طلع الصباح التالى ، حتى هرعت « ايما » الى « لوريه » تتوسل اليه أن يكتب قائمة أخرى للحساب ، لا تزيد قيمتها على ألف فرنك ، اذ كان لا بد ـ اذا أطلعتها على القائمة ذات الاربعة آلاف فرنك ـ أن تذكر أنها سددت ثلثيها ، وأن تعترف ـ اذ ذاك ـ ببيع العقار ، وبأن المفاوضات فى هذا الصدد قد تولاها التاجر ببراعة ، ولم تظهر قيمة جهوده فيها الا أخيرا .. (حين خرج من الصفقة بنصيب الأسد !)

وجاءت الساعة المحتومة التى تعين أن تناقش فيها الحماة زوجة ابنها الحساب!

وعلى الرغم من السعر الزهيد الذى كتب أمام كل سلعة ، فان الحماة كانت خليقة بأن ترى اسرافا فى الانفاق : « أو لم يكن من الممكن أن تستغنى عن السجادة ؟ .. ولماذا اعددت كسوة المقاعد ؟ .. لقد كانوا يكتفون ـ فى أيامى ـ بمقعد وثير واحد فى البيت ، للمسنين .. أو هكذا كان الأمر فى بيت أمى ، وأؤكد أنها كانت امرأة صالحة .. ليس فى وسع الناس جميعا أن يكونوا أغنياء ! .. فليس لثروة من بقاء ازاء التبديد ! .. اننى كنت خليقة بان أخجل ، لو اننى دللت نفسى كما تفعلين ، مع اننى مسنة ، وفى حاجة الى عناية ! .. ثم ، ما هذا ؟ .. عجبا ! .. اصلاح أثواب ! تبذير ! .. عجبا .. حرير للبطانة ، فى حين أن بوسعك الاكتفاء بقماش من «الشيت» بعشرة سنتيمات ، بل بثمانية! »

.. وكانت « ايما » تجيب فى هدوء ، وهى مضطجعة على أريكة : « آه ! كفى يا سيدتى ! كفى ! » .. ولكن الأخرى مضت تلقى عليها محاضرة ، متنبئة بانهما سينتهيان الى ملجأ ! .. واستطردت قائلة ان الذنب ـ مع ذلك ـ كان ذنب « بوفارى » ، وانه وعد لحسن الحظ بان يلغى التوكيل الرسمى .. فهتفت ايما : « كيف ؟ » .. قالت الحماة : « آه ! لقد أقسم لى أن يفعل ! » .. ففتحت « ايما » النافذة ، ونادت « شارل » .. واضطر الابن المسكين الى أن يعترف بان أمه انتزعت منه الوعد .. فغابت « ايما » ، ثم عادت مسرعة ، وهى تقدم لها فى شمم صفحة من ورق سميك ، فقالت العجوز : « شكرا لك » .. والقت بعقد التوكيل الرسمى الى النار !

وانطلقت « ايما » تضحك .. ضحكة حادة ، منكرة ، متواصلة .. اذ تولتها نوبة انفعال عصبى .. وصاح شارل بأمه : « أواه ، يا الهى !.. آه ! انك لعمر الحق قد اخطأت ! .. أفتأتين الى هنا لكى تتشاجرى معها ؟! » .. فهزت أمه

كتفيها قائلة ان هذا كله لم يكن سوى تمثيل ! .. ولكن شارل تمرد على أمه - للمرة الأولى - وطفق يدافع عن « ايما » ، حتى اضطرت مدام « بوفارى » الام الى أن تعلن عزمها على الرحيل . وبالفعل ، سافرت فى اليوم التالى مباشرة . وقالت عند الباب ، اذ حاول أن يثنيها : « لا ، لا !.. انك تحبها أكثر مما تحبنى .. ولك الحق ، فهذا طبيعى !.. أما فيما عدا هذا ، فانت وشأنك ، وسوف ترى .. أتمنى لكما العافية ! .. اننى غير مستعدة لأن آتى فاثير معها شقاقا ، كما قلت ! » .. وعلى الرغم من ذلك ، بقى « شارل » فى خجل شديد من « ايما » ، التى لم تخف ما كانت تكنه له من ضغينة لضعف ثقته فيها . وكان لا بد من توسلات طويلة ، قبل أن توافق على تولى الوكالة عنه مرة أخرى .. بل لقد صحبها الى السيد « جيومان » لتوثيق عقد آخر ، يشبه الأول تماما !

وقال موثق العقود : « اننى أدرك أن رجل العلم لا يملك أن يشغل نفسه بدقائق الحياة العادية ! » .. وشعر « شارل » بارتياح ازاء هذه الفكرة المريحة ، التى خلعت على ضعفه مظهر الانشغال بجلائل الأمور ، مما أثار غروره !

.. وياللفورة التى اشتعلت يوم الخميس التالى ، فى حجرتهما بالفندق ، حين اجتمعت «ايما» بليون !.. ضحكت ، وبكت ، وغنت ، ورقصت ، وطلبت شرابا ، ورغبت فى أن تدخن السجاير ، ولاحت له مسرفة ، ولكنها رائعة ، متألقة البهاء .. ولم يدر أية انفعالات - فى كل كيانها - كانت تدفعها لتتردى فى ملذات الحياة .. أصبحت محمومة ، نهمة ، داعرة ، ومضت تجوس الطرقات معه رائعة الرأس ، دون ما خوف من أن تعرض نفسها لأية فضيحة ، كما قالت .. على أنها كانت فى بعض الأوقات ترتجف حين يخطر ببالها فجأة أنها قد تلتقى برودولف ، اذ كانت ترى أنهما وان افترقا الى الأبد ، الا أنها لم تتحرر تماما من خضوعها له !

* * *

◆ وفى احدى ليالى الخميس ، لم تعد الى (ايونفيل) ، فجن «شارل» لفرط القلق ، وأبت « بيرت » الصغيرة أن تأوى الى فراشها دون أن ترى أمها ، وبكت حتى كاد صدرها ينشق ، وانطلق « جوستان » فى الطريق على غير هدى .. بل لقد ترك السيد « هوميه » صيدليته .. وأخيرا ، لم يعد « شارل » يقوى على الاحتمال ، فشد - فى الساعة الحادية عشرة - جواده الى عربته الصغيرة ، وقفز اليها ، وساط الجواد ، فبلغ فندق « الصليب الاحمر » فى نحو الساعة الثانية صباحا .. لكنه لم يجد لها أثرا !.. وخطر له ان «ليون» ربما رآها ، ولكن ، أين يقيم ؟ واغتبط اذ تذكر عنوان رئيسه ، فهرع اليه ليسأله . وكان النهار قد انبثق ، فاستطاع أن يتبين اسمه على أحد الابواب .. وطرق الباب ، فصاح شخص من الداخل يجيبه الى طلبه - دون أن يفتح - مضيفا بضع اهانات لاولئك الذين يقضون مضاجع الناس فى منتصف الليل !

ولم يكن للبيت الذى كان «ليون» يقطنه جرس ، ولا مقرعة ، ولا بواب٠وراح «شارل» يدق مصاريع النوافذ بكلتا يديه ، الى أن قدر لأحد رجال الشرطة ان يمر ، فخاف وانصرف ، محدثا نفسه : « اننى غبى ! لابد انها تأخرت فى العشاء لدى السيد لورمو » ٠٠ ثم تذكر ان لورمو لم يعد يقيم فى (روان) ! فقال لنفسه : « لعلها مكثت لتعنى بمدام دوبروى ٠٠ ولكن ، كيف ؟ ٠٠ لقد ماتت مدام دوبروى منذ عشرة شهور ٠٠ اذن فأين تكون ؟ » ٠٠ وخطرت له فكرة ، فولج مقهى وطلب الدليل ، وأسرع يبحث عن اسم مدموازيل « لامبرير » ، فاذا بها تقيم فى رقم ٧٤ بشارع (دولارينيل ديه ماروكانيير) ٠ واذ بلغ الشارع ، ظهرت « ايما » بنفسها فى الطرف الآخر منه ، فالقى بنفسه عليها فى تهالك أكثر منه عناق ، وصاح : « ما الذى أخرك بالأمس ؟ »

– كنت مريضة – بماذا ؟ ٠٠ كيف ؟ ٠٠ اين ؟

فضغطت جبينها بيدها وقالت : « لدى مدموازيل لامبرير »

– كنت متأكدا من ذلك ! ٠٠ كنت ذاهبا اليها ٠٠

فقالت ايما : « آه ، لا داعى ٠٠ لقد خرجت منذ لحظات ، ولكن لا ينبغى فى المستقبل أن تقلق ، فلن احس باننى حرة اذا علمت أن اقل تأخر يزعجك بهذا الشكل ٠٠ كما ترى ! » ٠٠ كانت هذه احدى الحيل التى تتذرع بها لتحظى بحرية تامة فى انطلاقاتها ٠٠ وكانت تستغل هذه العلل بكل بساطة ، والى أقصى مدى ٠٠ فاذا استبدت بها الرغبة فى مقابلة « ليون » ، انتحلت أية حجة ٠٠ واذا لم يكن « ليون » يتوقعها فى ذلك اليوم ، سعت اليه فى مكتبه ٠٠ وكان يغتبط بهذا فى البداية ، ولكنه لم يعد – بعد قليل – يقوى على كتمان الحقيقة ٠٠ فلقد شكا رئيسه كثيرا من هذه الزيارات التى تصرفه عن عمله ٠٠ وكانت تقول له : « آه ، ياه ! هيا ! » ٠٠ ولكنه كان يتملص ٠٠ ولقد طلبت اليه أن يكون كل ما يرتديه أسود ، وأن يطلق لحية مدببة ليبدو كصور الملك لويس الثالث عشر ٠ ورغبت فى أن ترى مسكنه ، فلم يرقها ووصفته بالفقر٠٠وتضرج وجهه ، ولكنها لم تلاحظ ذلك ٠٠ ثم أشارت عليه بان يبتاع ستائر حمراء ، كستائر مخدعها ، فلما اعترض بأنها تبهظه ، قالت ضاحكة : « آه ! آه ٠٠ أتتشبث بدنانيرك ؟ » ٠٠ وكانت تضطره فى كل مرة الى أن يروى لها كل شىء فعله منذ لقائهما الاخير٠ وسألته أن ينظم بعض الأشعار ٠٠ أشعارا عنها ٠٠ «قصيدة غرام» تكريما لها٠ ولكنه لم يفلح قط فى الوصول الى كلمة للبيت الثانى تنسجم مع القافية ٠٠ وانتهى به الأمر الى أن نقل قصيدة من أحد الكتب ، لا ليرضى غروره ، وانما رغبة فى ارضائها ٠٠ ولم يكن يناقش آراءها ، كما كان يرضى بكل أذواقها ٠٠ حتى انه أصبح « عشيقها » أكثر مما هى عشيقته !٠٠ كانت لها كلمات ناعمةوقبلات تبهر روحه وتثير نفسه ٠٠ ترى ٠٠ أين تعلمت هذا الفساد الذى كان يصل فى دنسه وفجوره الى درجة غير عادية !

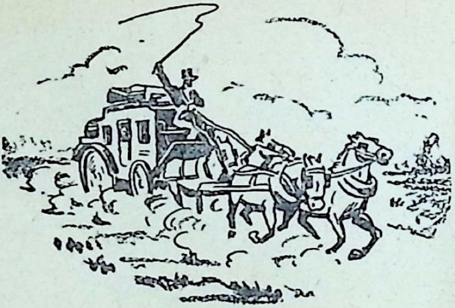

الفصل السادس

◆ وكان «ليون» ـ كلما حضر الى (ايونفيل) خصيصا ليراها ـ يتناول العشاء فى بيت الصيدلى فى أكثر الأحيان ، فلم يلبث أن أحس بأنه مضطر الى أن يدعوه بدوره ، ردا لجميله ٠٠ وقد أجاب السيد هوميه : « بكل سرور ! اذ لا بد لى من أن أنعش ذاكرتى ، التى أخذت تصدأ هنا ٠٠ سنذهب الى المسرح ، والى المطعم ، ونلهو ! » ٠٠ فغمغمت مدام « هوميه » فى رفق وقد خشيت عليه من الأخطار المبهمة التى قد يعرض لها نفسه : « آه ، يا صديقى الطيب ! »

ـ اه ! ماذا ؟ أو تظنين أننى لا أقضى على صحتى بالاقامة هنا وسط الروائح التى تتصاعد من الصيدلية باستمرار !٠٠ ولكن هكذا النساء دائما ! ٠٠ انهن يغرن علينا من العلم ، ويغرن علينا فى الوقت نفسه من أبرأ الوان اللهـــو ! لا يهمك الأمر ، بل اطمئن الى ! ٠٠ لسوف اهبط فى أحد الايام على (روان) ، فننطلق معا على هوانا !

وكان الصيدلى يحرص ـ فيما مضى ـ على أن لا يستعمل مثل هذه التعبيرات ، ولكنه أصبح ينهج نهجا مرحا و « باريسيا » ، اذ خال أن هذا هو خير ذوق ٠٠ واخذ ـ كجارته ، مدام بوفارى ـ يسأل الكاتب فى فضول عن عادات العاصمة ، بل لقد أخذ يتكلم باللهجة العامية الباريسية ، ليبهر أنظار أهل القرية ! ٠٠ وهكذا دهشت « ايما » اذ قابلت ـ فى أحد أيام الخميس ـ السيد « هوميه » فى مطبخ « الاسد الذهبى » ، وقد ارتدى ثياب السفر ـ أو بالاحرى قد التف فى معطف قديم لم يدر أحد أنه كان يمتلكه ـ وحمل فى احدى يديه حقيبة ، وفى

اليد الاخرى صندوقا من حانوته ليدس فيه قدميه يدفئهما ٠٠ ولم يكن قد أفصح عن نواياه لأحد ، خشية أن يثير قلقا عاما بغيابه !

وليس من شك فى أن التفكير فى رؤية المكان الذى قضى فيه صباه ، أثار انفعاله، اذ لم يكف طيلة الرحلة عن الكلام ٠ وما ان وصل حتى قفز من العربة مسرعا ، وانطلق يسعى الى « ليون » ٠٠ وعبثا حاول الكاتب أن يتخلص منه ، فقد جره السيد « هوميه » الى مقهى « لانورماندى » الكبير ، فدخله فى تعاظم ، دون أن يرفع قبعته ، ظنا منه أن تعرية الرأس فى مكان عام ، عادة ريفية !

وظلت ايما تنتظر ليون ثلاثة أرباع الساعة ، ثم أسرعت أخيرا الى مكتبه ٠٠ وحين لم تجده تملكتها الهواجس : انه لا يكترث بها ! ولامت نفسها على ضعفها ٠٠ وقضت ما بعد ظهر ذلك اليوم وهى ملصقة وجهها بزجاج النافذة (فى غرفتهما بالفندق) ٠٠ أما هوميه وليون ، فكانا حتى الساعة الثانية جالسين الى احدى الموائد ٠٠ وكانت القاعة الكبيرة قد بدأت تخلو ٠٠ كما كانت ثمة مدفأة على شكل نخلة ، تنتشر أوراقها ـ المصنوعة من المعدن البراق ـ بعرض السقف الأبيض ٠٠ وخارج النافذة القريبة منهما قامت ـ تحت أشعة الشمس الساطعة ـ نافورة تنفث الماء فى حوض أبيض ، حيث كانت ثلاث من جراد البحر (الجمبرى) الكبير تتمطى بين نباتات الرشاد والهليون ، محاولة أن تصل الى بعض طيور السمان المتجمعة فى أحد الاركان ٠٠ وكان « هوميه » مغتبطا ، وان كانت نشوته قد انبعثت عن الترف أكثر منها عن النفقات الباهظة ٠٠ ومع ذلك فان نبيذ التفاح شحذ كل براعته وذكائه ، فلما ظهر البيض المطهو بالروم على المائدة ، شرع يعرض نظرياته غير الخلقية عن النساء ٠٠ كان الشىء الذى يستهويه أكثر مما عداه فى المرأة هو : الأناقة ! ٠٠ كان يعجب بالزينة المتقنة الانيقة ، فى مسكن حسن الرياش ٠٠ أما من الناحية البدنية ، فلم يكن يكره الفتيات اللائى فى صدر الشباب ! ٠٠ واخذ « ليون » يرقب الساعة فى قنوط ، والصيدلى ماض فى الشرب ، والأكل ، والحديث ٠٠

وفجاة ، قال هوميه : « لابد انك تعانى وحدة قاسية فى (روان) ٠٠ ولو ان عشيقتك لا تقيم على بعد كبير » ٠٠ فتضرج وجه الآخر ٠٠

ـ هيا ، كن صريحا ٠٠ هل تنكر ان فى (ايونفيل) ٠٠

وتمتم الشاب متلعثما ٠٠ بينما استطرد الصيدلى :

ـ فى منزل مدام بوفارى ٠٠ كنت تغازل ٠٠

ـ من ؟ ـ الخادم !

ولم يكن مازحا ، ولكن الغرور يغلب كل حكمة ، لذلك راح « ليون » يحتج على الرغم منه ، زاعما أنه لم يكن يحب سوى السمراوات ٠٠ فقال الصيدلى : « اننى أقرك على هذا ، فهن أشد شهوة ! » ٠٠ وهمس فى أذن صديقه ، مشيرا

الى بعض الأعراض التى يستطيع بها المرء أن يعرف ما اذا كانت المرأة شهوانية. بل انه أوغل فى الحديث عن بعض الصفات الشاذة لدى الأجناس .. فالالمانية غوائية ، والفرنسية متطرفة فى الخلاعة ، والايطالية متقدة العاطفة .. وتساءل الكاتب : « والزنجية ؟ » فقال هوميه : « انها مزاج الفنان ! .. أيها الساقى ، الينا بقدحى قهوة ! » .. فتساءل « ليون » أخيرا ، وهو نافد الصبر : « هل ننصرف ؟ » .. فأجابه بالانجليزية : « أجل ! »

على انه رغب - قبل الانصراف - فى ان يقابل صاحب المكان وأن يقدم اليه بعض التحيات .. واذ ذاك زعم الشاب - كى يخلو الى نفسه - أن لديه بعض أعمال .. فقال هوميه : « آه ، سأصحبك » .. وظل طيلة سيرهما فى الشوارع، يتحدث اليه عن زوجته ، وأطفاله ، ومستقبلهم ، وأعماله .. وبين له كيف كانت تلك الاعمال فى أسوأ حال فى الماضى ، والى أية درجة من الكمال ارتقى بها .. واذ بلغا فندق «بولونى» ، تركه «ليون» فجأة ، وركض طاويا درجات السلم، فالفى عشيقته فى انفعال بالغ ، وما أن ذكر اسم الصيدلى ، حتى انفجر غضبها .. على انه راح يسرد لها مبررات مقنعة .. فلم يكن الذنب ذنبه .. أوليست تعرف «هوميه» ، فهل تصدق انه يؤثر صحبته ؟.. بيد انها أشاحت عنه ، فاجتذبها اليه ، وركع على ركبتيه مطوقا خصرها بذراعيه ، فى تهالك مفعم بالشبق والضراعة

وكانت واقفة ، وعيناها الواسعتان المتوقدتان ترقبانه فى عبوس ، بل فى قسوة .. ثم غامت عليهما الدموع ، وهبط جفناها الورديان ، وأسلمته يديها . وفيما كان « ليون » يلصقهما بشفتيه ، أقبل خادم ينبىء السيد بأن ثمة من يسأل عنه ، فسألت « ايما » صديقها وهو يهم بالخروج : « أعائد أنت ؟ »

- أجل - ولكن ، متى ؟ - فى الحال !

* * *

◊ قال الصيدلى حين رأى ليون : « لقد أرسلت اليك الخادم لاقطع حبل الزيارة ، التى لاح لى أنها تضايقك .. لنذهب فنتناول زجاجة من « الجارو » (١) عند بريدو » .. فاقسم « ليون » أن لا بد له من العودة الى مكتبه ، واذ ذاك راح الصيدلى يمازحه معلقا على مذكرات المحامين التى تقلب الباطل حقا ، وعلى الدعاوى .. قائلا : « دع كوجا وبارتول (٢) وشأنهما برهة .. يا للشيطان ! من الذى يمنعك ؟ كن جريئا ! هيا الى حانة بريدو ! .. سترى هناك كلبه .. انه عجيب جدا » .. ولكن الكاتب ظل يصر على الانصراف ، فقال له :

---

(١) «الجارو» شراب هو مزيج من القرفة والزعفران وجوز الطيب

(٢) اثنان من فقهاء القانون

« سأذهب معك ، فأطالع الصحيفة فى انتظارك ، أو أقلب صفحات مجموعة القوانين ! » ٠٠ واحتار ليون بين غضب ايما ، وثرثرة هوميه ٠٠ ولعل الغداء اتخمه ، فلم يقو على أن يبت ، لا سيما وقد راح الصيدلى يغريه قائلا : « لنذهب الى بريدو ٠٠ انه قريب من هنا ٠٠ فى شارع مالبالو » ٠٠ وما لبث الشاب ـ تحت تأثيرالجبن أو الغباء ، أو تأثيرذلك الشعور الذى يعز وصفه والذى يجرنا الى ادعى التصرفات للاستهجان ـ ما لبث أن ترك نفسه يقاد الى حانة «بريدو»، الذى ألفياه فى الساحة الصغيرة يشرف على ثلاثة من العمال راحوا يلهثون ، وهم يديرون عجلة ضخمة فى آلة من آلات تحضير ماء سلتزر (كماء الصودا) ٠٠ والقى اليهم « هوميه » ببعض الارشـــادات ، ثم احتضن « بريدو » ، وتناولوا بعض « الجارو » ٠٠ وحاول « ليون » عشرين مرة ان يفلت ، ولكن صاحبه كان يمسك بذراعه قائلا : « سأنصرف حالا ! ٠٠ سنذهب الى صحيفة « فنال دو روان » لنرى الزملاء ٠٠ سأعرفك بتوماسان » ٠٠

على أن ليون ما لبث ان وفق الى التخلص منه ، فانطلق مسرعا الى الفندق ٠ ولم تكن « ايما » هناك ٠٠ كانت قد انصرفت لتوها ساخطة ٠٠ لقد أصبحت تكرهه ، وبدا لها هذا الاخفاق منه فى الوفاء بموعدهما الغرامى اهانة ، فراحت تحاول ان تنقب عن أسباب أخرى لتنفصل عنه ٠٠ كان عاجزا عن الاتيان بأية بطولة ، كما كان ضعيفا ، مبتذلا ، يفوق المرأة فى الاستخذاء ! ٠٠ فضلا عن أنه كان بخيلا ، جبانا !٠٠ ثم هدأت ثورتها ، فتبينت أنها ولا ريب قد افترت عليه فى غيبته ٠٠ بيد أن اقدامنا على النيل ممن نحب ، لا بد أن يباعد بيننا وبينهم بعض الشىء ، فينبغى أن لا نمس أصنامنا المعبودة ، لأن طلاءها لابد أن يعلق باصابعنا !

* * *

◆ وبمضى الايام ، اخذحديثهما يزداد اتجاها الىالموضوعات الخارجةعن نطاق غرامهما ، وأصبحت «ايما» تتحدث ـ فى الخطابات التى ترسلها اليه ـ عن الازهار، والأشعار ، والقمر ، والنجوم ٠٠ موارد ساذجة لوجد منطفىء يناضل للبقـاء مشتعلا ، مستعينا بكافة الأسباب الخارجية !٠٠ وكانت لا تفتأ تمنى نفسها بهناءة غامرة فى رحلتها التالية ، ثم لا تلبث أن تعترف لنفسها بعـــد الرحلة بأنها لم تشعر بشىء غير عادى ٠٠ ولكن سرعان ما أدت خيبة الرجاء الى أمل جديد ! ٠٠ فعادت «ايما» الىفتاها أشد وقدة ،واعتى لوعة مما كانتفى أى يوم !٠٠ صارتتخلع ثيابها فى عنف ، ممزقة أربطة مشدها (الكورسيه) الرفيعة ، التى كانت تحيط بردفيها كثعابين متسللة ! ٠٠ وكانت تسير على أطراف أصابع قدميها ، حافية ، لتستوثق مرة أخرى من أن الباب مغلق ، ثم تنطرح على صدره فى رجفة طويلة ،

وهى شاحبة ، واجمة ، لا تتكلم ، ولا تحير حراكا .. ومع ذلك ، فقد ظل «ليون» يرى فى ذلك الجبين المتفصد عرقا باردا ، وفى تلكما الشفتين المرتعشتين ، وفى العينين الضاريتين ، وفى توتر هاتين الذراعين ، شيئا غريبا ، غامضا ، رهيبا ، يقوم جامدا بينه وبينها ، وكأنه يفصل كلا عن صاحبه !

ولم يجرؤ على أن يسألها ، ولكنه كان – اذ يرى فنونها البارعة – لا يملك الا أن يشعر بانها ولا بد قد خاضت كل تجربة من تجارب الألم واللذة ! .. وما كان يفتنه من قبل ، بات يخيفه الآن بعض الشىء ! .. فضلا عن انه بدأ يتمرد على ما كان يزداد كل يوم ظهورا ، من انطوائه فى شخصيتها .. اصبح ينقم على « ايما » بسبب هذه الغلبة المستمرة عليه .. بل انه راح يجاهد ليكف عن حبها، ولكنه كان لا يلبث – اذا سمع صريف حذاءيها – أن يتحول الى جبان هياب ، كمدمنى الخمر اذا ما رأوا شرابا قويا ! .. والحق انها لم تهن فى اضفاء كافة ألوان الاهتمام عليه ، من أطايب الغذاء ، الى خـــلاعة الرداء ، الى النظرات المستضعفة المتذللة .. وكانت تدس ورودا من (ايونفيل) بين ثدييها ، لتلقيها فى وجهه .. وكانت قلقة بصدد صحته ، تنصحه دائما بما ينبغى أن يفعل .. ثم عمدت – لكى تزداد اطمئنانا الى احتفاظها بسلطانها عليه ، وأملا منها فى ان تنحاز السماء لصفها – عمدت الى احاطة عنقه بصورة للعذراء !! .. وكانت تسائله – كأم تقية – عن أقرانه ، وتقول له : « لا تلقهم ! .. لا تخرج ! .. لا تفكر الا فى كلينا فقط ! .. احبنى ! » .. وكم ودت لو انها استطاعت أن تراقب حياته كلها .. بل لقد خطر لها أن ترسل وراءه من يتتبع خطاه فى الطرقات.. فقد كان بجوار الفندق دائما شريد متسكع يتمسح فى المســـافرين ، وما كان ليرفض القيام بمثل هذه المهمة .. ولكن كبرياءها تمردت ، فقالت لنفسهـــا : « باه ! وما اهمية هذا الأمر ! .. فلينصرف عنى ! .. ما الذى يهمنى ؟ .. كأنما أنا مبقية عليه ! »

* * *

◆ وفى ذات يوم ، افترقا فى ساعة مبكرة .. وفيما كانت تسير وحدها فى الطريق ، لمحت جدران الدير الذى تعلمت فيه ، فسارعت تجلس على مقعد عام تحت احدى شجرات الدردار . ما كان أهدأ الفترة التى قضتها فى الدير ، وما كان أنعمها ! .. كم كانت تتوق الى تلك العواطف الجياشة التى كانت تحاول ان تتصورها على ضوء الكتب ! ثم تذكرت أول عهدها بالزواج ، وتلك النزهات فى الغابة ، والفيكونت الذى راقصها على انغام « الفالس » ، و « لاجاردى » وهو يغنى .. كل هذه الرؤى تتابعت أمام ناظريها ، ثم رأت « ليون » فجأة بعيدا .. وهتفت لنفسها : « ومع ذلك فأنا احبه ! » .. لا بأس ! .. لم تكن سعيدة ،

وما كانت أبدا سعيدة !٠٠ فمن أين هذا الاجداب الذى يشيع فى حياتها ؟ ٠٠ هذا الانهيار العاجل لكل شىء تستند اليه ؟!

ولكن ، اذا كان يوجد ـ فى مكان ما ـ ذلك الكائن القوى ، الجميل ٠٠ كائن ذو فطرة جسورة ، زاخرة بالسمو والطهر معا ٠٠ قلب شاعر فى جسد ملاك ٠٠ قيثارة ذات أوتار رنانة ترفع الى السماء قصائد مشجية ٠٠ فلماذا لا يسوقها القدر الى هذا الكائن ؟ ٠٠ أواه ! ٠٠ ياله من مستحيل ! ٠٠ فضلا عن ان شيئا ما لا يستحق عناء البحث عنه ٠٠ فكل شىء ليس سوى زيف كاذب ! ٠٠ كل ابتسامة انما تخفى تثاؤبا ملولا ٠٠ وكل غبطة ليست سوى لعنة ٠٠ وكل لذة تنطوى على الشبع منها ٠٠ وأشهى القبلات لا تخلف على شفتيك سوى شوق الى غبطة أعظم ، لا سبيل اليها !

وانبعثت فى الجو رنات ثقيلة ٠٠ وسمعت أربع دقات من ساعة الدير ٠٠ الساعة الرابعة ! ٠٠ ومع ذلك فقد خيل اليها أنها مكثت فى مكانها ، على هذا الوضع ، دهرا ٠٠ فان المشاعر الفياضة التى تبدو كأن لا نهاية لها ، قد تضغط فى دقيقة ٠٠ كما يحشد جمع فى فضاء صغير !

☆ ☆ ☆

◆ وعاشت « ايما » بعد ذلك منطوية على نفسها ، وأصبحت ـ كالارشيدوقات ـ لا تحفل بشئون المال مطلقا ٠٠ على أنه لم يلبث أن جاء الى البيت ـ فى أحد الايام ـ رجل زرى الهيئة ، محمر الوجه ، أصلع الراس ، قال انه موفد من لدن السيد « فانكار » من (روان) ٠ وانتزع الدبابيس التى كانت تحكم الجيوب الداخلية فى سترته ، وبعد أن ثبتها فى كمه ، قدم اليها ورقة ، فاذا بها سند بسبعمائة فرنك ، يحمل توقيعها ، وقد حوله « لوريه » الى «فانكار» رغم عهوده ٠ واوفدت خادمها الى « لوريه » ، ولكنه لم يكن قادرا على المجىء ٠٠ واذ ذاك ؛ قال الغريب ـ الذى ظل واقفا ، يوزع نظرات فضولية ذات اليمين وذات الشمال ـ من تحت حاجبيه الكثيفين : « اى رد أحمله الى السيد فانكار ؟ » ٠٠ فاجابت ايما : « آه ٠٠ قل له اننى لا أملك المبلغ ٠٠ سأدفعه فى الاسبوع القادم ٠٠ فلينتظر ! ٠٠ اجل ، الى الأسبوع المقبل ! » ٠٠ وانصرف الرجل دون أن ينبس بكلمة ٠٠ بيد أنها تلقت فى الساعة الثانية عشرة من النهار التالى ، انذارا ٠٠ وازعجها منظر الورق الذى كان يحمل عدة أختام كتب عليها بحروف كبيرة : « الاستاذ هارنج ، محضر محكمة بوشى » ٠٠ فهرعت مندفعة الى بائع الاقمشة ، فوجدته فى متجره يعد طردا ٠٠

قال : « خادمك ! ٠٠ أنا تحت أمرك ! » ٠٠ ومع ذلك ، فقد استانف «لوريه» عمله ، تعاونه فتاة فى نحو الثالثة عشرة من العمر ، محدودبة الظهر قليلا ، كانت

تساعده فى عمله وفى تدبير منزله فى آن واحد .. وأخيرا تقدم مدام « بوفارى » ـ وقبقاباه يقرقعان على الارض الخشبية ـ صاعدا الى الطابق الاول ، وأدخلها حجرة ضيقة ، حيث قام مكتب ضخم من خشب صلب ، يحمل بعض سجلات ، يحتجزها قضيب عريض من حديد ، امتد فى وضع أفقى ، وثبت بقفل . والى جوار الحائط ـ تحت بعض « فضلات » من القماش الخشن ـ لمحت « ايما » خزانة حديدية ، ذات حجم يوحى بأنها تضم ـ الى جانب المستندات والنقود ـ شيئا آخر .. فقد كان السيد «لوريه» يمارس الاقراض مقابل رهون ، وفى هذه الخزانة أودع سلسلة مدام « بوفارى » الذهبية ، مع أقراط « تيلييه » ، الكهل المسكين، الذى اضطر فى النهاية الى بيعها له ، واشترى متجرا هزيلا للبدالة فى(كنكامبو)، حيث كان يحتضر ـ تحت وطأة الربو ـ بين الشموع التى كانت أقل صفرة من وجهه ! .. وجلس « لوريه » فى مقعد كبير من الخيزران وهو يقول : « هل من جديد ؟ » .. فهتفت : « اليك ! » وأطلعته على الورقة ، فقال : « حسنا ، وكيف أستطيع أن أساعدك ؟ » ، فاشتد غضبها ، وراحت تذكره بالوعد الذى قطعه على نفسه بأن لا يحول سنداتها .. واعترف بذلك قائلا : « ولكننى كنت مضطرا .. كانت السكين على عنقى » .. فقالت :« وما الذى سيجرى الآن ؟ »

ـ اه ، أمر سهل جدا .. حكم من المحكمة ، ثم توقيع الحجز ..

وقاومت « ايما » نفسها حتى لا تصفعه ، وتساءلت فى لطف عما اذا كانت ثمة وسيلة لاستمهال السيد « فانكار » ..

ـ آه ! .. بديع ! .. استمهال فانكار ! .. انك لا تعرفينه ، فهو أكثر شراسة من أى وحش كاسر !

ومع ذلك ، كان لا بد للوريه من أن يتدخل .. « اذن ، اسمعى ! .. يبدو لى أننى كنت مفرط الطيبة معك ، حتى الآن » .. وفتح أحد هذه السجلات ، قائلا : « أنظرى ! » .. وأجرى اصبعه فى الصفحة قائلا : « لنر .. لنر .. الثالث من اغسطس مائتا فرنك .. السابع عشر من يونيه : مائة وخمسون .. الثالث والعشرون من مارس : أربعة وستون .. فى ابريل .. » .. وامسك ، وكأنه خشى أن يخطىء ، ثم قال : « ولست أذكر السندين اللذين وقعهما السيد « بوفارى » ، أحدهما بسبعمائة فرنك ، والآخر بثلاثمائة .. أما حساباتك البسيطة ، مع الفوائد ، فلا نهاية لها .. ان الانسان ليتوه فيها .. ومن ثم لن أتورط أكثر من هذا » ! .. وبكت ايما .. بل راحت تلقبه بعزيزها السيد لوريه الطيب ! ولكنه كان دائما يلقى المسئولية على «ذلك الوغد فانكار» ، فضلا عن أنه لم يكن يملك سنتيما واحدا ، فان أحدا لم يعد يدفع له نقودا ، بل كانوا « يأكلون الصوف على ظهره » ! .. وما كان لتاجر فقير مثله أن يقرض الناس.. وصمتت « ايما » .. ولا ريب ان السيد لوريه ـ الذى كان يعض زغب ريشة

الكتابة ـ أحس بقلق لصمتها ، اذ استأنف كلامه قائلا : « وما لم أحصل فى يوم من هذه الأيام على ايراد ، فقد ... »
وقاطعته ايما قائلة : « ثم ان بقية ثمن عقار (بارنفيل) .. » ، فهتف : «ماذا ؟» .. وما ان سمع أن « لانجلوا » لم يدفع بعد ، حتى اشتدت دهشته ، ثم قال فى لهجة معسولة : « اذن ، اتفقنا .. أليس كذلك ؟ »
ـ آه ! .. على أى شىء تريد أن نتفق ؟!
فأغمض عينيه مستغرقا فى التفكير ، وكتب بضعة أرقام ، ثم أعلن أن المسألة ستكون جد عسيرة ، لأنها محفوفة بالشك ، وهو قد منى بخسائر فادحة .. ثم كتب أربعة سندات ، قيمة كل منها مائتان وخمسون فرنكا ، وتستحق فى أربعة أشهر متوالية ، وقال : « هذه هى سبيل التسوية ، لو أن « فانكار » قبل وساطتى .. ومع ذلك ، فاعتبريها قد سويت ، فأنا لا أراوغ .. اننى صريح للغاية ! » .. ثم عرض عليها ـ فى غير اكتراث ـ عددا من السلع الجديدة ، ولكن ايا منها لم يكن فى رأيه يليق بالسيدة ..
ـ كلما فكرت فى أن قماشا ـ كهذا ـ يباع المتر منه بسبعة سنتيمات ، وألوانه ثابتة ! .. ومع ذلك فهم يقبلون على شرائه بنهم ! .. انك بالطبع تدركين أن المرء لا يصارحهم بحقيقته ..
وكان يرجو بهذا الاعتراف بعدم أمانته مع الآخرين ، أن يقنعها بوفائه لها.. ثم ناداها ـ اذ انصرفت ـ ليريها ثلاث ياردات من قماش التقطه فى « أوكازيون » منذ عهد قريب .. وقال : « أوليس جميلا ؟ .. انه الآن رائج الاستعمال لصون ظهور المقاعد .. انه النوع الشائع ! » .. وبأسرع من « الحاوى » لف القماش فى ورق أزرق ، ودفعه الى يدى ايما ، فقالت : « ولكننى أريد أن أعرف على الأقل .. » فأجاب وهو يولى عنها : « آه ! .. فى وقت آخر »

* * *

◆ فى ذلك المساء ، استحثت « ايما » زوجها على الكتابة لأمه يسألها أن ترسل اليه بأسرع ما يمكن بقية ميراثه .. وأجابت الحماة بأنه لم يعد لديها باق، وان التصفية قد انتهت ، ولم يبق له ـ بعد (بارنفيل) ـ سوى دخل قدره ستمائة فرنك ، سترسله اليه فى موعده .. فسارعت مدام « بوفارى » الى الكتابة لاثنين أو ثلاثة من المرضى تذكرهم بحسابهم ـ قبل موعده ـ وتوسعت فى استغلال هذه الطريقة التى كانت دائما موفقة .. وكانت تحرص دائما على أن تردف المطالبة بهذه العبارة : « أرجو أن لا تذكر الأمر لزوجى ، فأنت تعرف مدى اعتداده بكرامته . ولا تؤاخذنى . المطيعة .. » .. وتسلمت بعض احتجاجات متذمرة ، فأخفتها عن زوجها .. وشرعت ـ كى تحصل على نقود ـ فى بيع قفازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثير من الأشياء المهملة . وكانت تساوم فى براعة ،

وقد اسعفها أصلها الريفى . وكانت ـ خلال رحلاتها الى المدينة ـ تبتاع بازهد الأسعار ، الاشياء المستعملة التى كانت واثقة من أن السيد « لوريه » سيشتريها منها ليغش بها الغير .. ابتاعت ريش نعام ، وخزفا صينيا ، وحقائب للسفر .. وأخذت تقترض من « فيليسيتيه » ، ومن مدام « لوفرانسوا » ، ومن صاحبة فندق « الصليب الأحمر » ، ومن كل شخص ، أينما كانت .. ودفعت ـ من النقود التى تسلمتها من (بارنفيل) اخيرا ـ قيمة سندين .. ثم حل موعد الالف وخمسمائة فرنك الاخرى ، فجددت السندين .. وهكذا ظلت السندات مستمرة ..

وكانت تحاول ـ فى الحق ـ أن تقوم بعمليات حسابية فى بعض الاحايين ، ولكنها كانت تتبين أن النتائج باهظة الى حد لم تكن تصدق انه ممكن ، فكانت تشرع فى الحساب من جديد ، فسرعان ما ترتبك ، ثم تنفض يديها من الأمر ، فلا تعود تشغل بالها به ! .. وأصبح البيت كئيبا جدا .. فكان الباعة يشاهدون ـ وهم يبرحونه ـ وعلى وجوههم امارات الغضب .. والمناديل ملقاة حول المدفأة ، و « بيرت » الصغيرة ترتدى جوارب مثقوبة ، الأمر الذى كانت مدام « هوميه » تستنكره .. وكانت « ايما » ـ اذا نبهها « شارل » فى تحرج وخجل ـ تجيب فى جفاء بأن الذنب ليس ذنبها .. فلم كانت هذه الثورات والفورات ؟ .. كان « شارل » يعزو كل شىء الى مرضها العصبى القديم ، ويندم لاحتسابه مظاهر علتها كأخطاء ، ويتهم نفسه بالانانية ، ويتوق الى ان يحتويها بين ذراعيه .. ولكنه كان يقول لنفسه : « آه ، لا ! .. اننى قد اضايقها ! » .. ويمسك عن ابداء عاطفته .. وكان بعد الغداء يتمشى فى الحديقة وحيدا ، ثم يجلس « بيرت » على ركبتيه ، ويبسط صحيفته الطبية ، محاولا أن يعلمها القــراءة .. ولكن الطفلة التى لم تتلق قط أى درس ، كانت لا تلبث أن ترفع اليه عينين واسعتين، حزينتين ، ثم تنخرط فى البكاء .. واذ ذاك كان يسرى عنها ، ويبادر فيحمــل اليها ماء فى دلوها لتنشىء به أنهارا فى الدرب الرملى بالحديقة .. أو يقطع بعض فروع من النباتات النامية على السياج ، لتغرسها فى الاحواض .. وما كان هذا ليلحق كثير ضرر بالحديقة التى انتشرت فيها ـ اذ ذاك ـ الأعشاب الفطرية .. اذ كانا مدينين لليستيبودوا باجر أيام كثيرة !

ولا تلبث الطفلة ان تشعر بالبرد ، فتطلب أمها . وكان « شارل » يقول لها : « نادى مربيتك يا صغيرتى ، فانت تعلمين أن امك لا تحب ازعاجا » !

وكان الخريف قد اقبل ، وتساقطت أوراق الشجر .. هاقد انقضى عامان منذ مرضت « ايما » ! .. ترى متى سينتهى كل هذا ؟ .. وكان « شارل » يذرع الحديقة مفكرا ، ويداه معقودتان خلف ظهره .. والسيدة فى مخدعها ، الذى لم يكن يدخله احد .. كانت تمكث فيه طيلة النهار ، فاترة الهمة ، تكاد تــكون

عارية ، تحرق من وقت لآخر بعض البخور المعطر ، الذى ابتاعته من متجر عربى باحدى جزائر (روان) • وكانت قد نجحت أخيرا - بحيل بارعة - فى اقصاء « شارل » الى الطابق الثانى ، حتى لا ترى « هذا الرجل » مستلقيا الى جوارها بالليل •• وأخذت تنصرف - حتى الصباح - الى قراءة كتب اباحية ، مليئة بالرسوم الخليعة والمواقف المثيرة •• وكثيرا ما كان الخوف يستولى عليها ، فتصرخ •• ويهرع اليها « شارل » ، فتقول له : « آه ! •• انصرف ! » •• او يشتد اكتواؤها بذلك اللهب الداخلى الذى كان الفسق يذكيه ، فتسرع الى النافذة تفتحها وهى تلهث ، وترتجف ، وقد استبدت بها الشهوة ! •• وتروح تستنشق الهواء البارد ، وتطلق خصلات شعرها الغزير للريح ، وتتأمل النجوم ، وهى تصبو الى ان يعشقها أمير ! •• وكانت تفكر فى « ليون » ، فتود اذ ذاك لو تنزل عن اى شئ فى سبيل لقاء من تلك اللقاءات التى كانت تروى ظماها !

واقبلت أيام المهرجانات ، فشاءت أن تنعم بها على أروع وجه • ولما كان «ليون» لا يملك ان يضطلع وحده بالنفقات ، فقد اخذت تسد النقص بسخاء ، فى كل مرة على وجه التقريب • وحاول ان يقنعها بأن فى وسعهما أن ينعما بصحبتهما فى مكان آخر •• فى فندق أكثر تواضعا من فندقهما ، ولكنها كانت تجد دائما حججا للمعارضة • وفى ذات يوم ، أخرجت من حقيبتها ست ملاعق فضية - كانت هدية « روو » الأب بمناسبة زفافها - وسألته أن يبادر برهنها بالنيابة عنها ، فاطاع « ليون » ، وان ساءته هذه المهمة ، اذ كان يخشى أن يورط نفسه •• وما لبث أن هداه التفكير الى أن تصرفات عشيقته كانت تزداد غرابة ، وان من المحتمل أن أصدقاءه لم يكونوا مخطئين حين أرادوا أن يفرقوا بينه وبينها •• اذ حدث أن أرسل بعضهم الى أمه خطابا طويلا - لا يحمل توقيعا - ينذرها بأنه « يدمر حياته مع امرأة متزوجة ! » •• فاسرعت السيدة الصالحة - اذ لمحت لفورها ذلك الشبح الذى يؤرق الاسرات •• ذلك الجنى •• الوحش الذى يسكن فى أعمق أغوار الحب ! وكتبت الى الاستاذ « ديبوكاج » - رئيسه - الذى تصرف خير تصرف ، اذ استبقاه ثلاثة أرباع الساعة يحاول أن يبصره ، وأن يحذره من الهوة التى يتردى فيها •• فان مثل هذه العلاقة غير المشروعة قد تلحق به أبلغ الضرر فيما بعد ، حين ينشئ لنفسه مكتبا •• وأخذ يرجوه أن يقطع صلاته بعشيقته ، واذا لم يشأ أن يقدم على هذه التضحية لمصلحته الخاصة ، فليفعلها على الأقل من اجله هو •• من أجل « ديبوكاج » !

★ ★ ★

◆ أقسم « ليون » فى النهاية بأن لا يعود الى لقاء « ايما » •• وكان لا يفتأ يلوم نفسه لأنه لم يف بوعده •• ويقدر مدى المتاعب والأقاويل التى تعرضه

لها هذه المراة ، فضلا عن الدعابات التى كان زملاؤه يتفكهون بها حين يجتمعون حول المدفاة فى الصباح ! ٠٠ ثم انه كان موشكا أن يغدو على رأس الكتبة عما قريب ، ومن ثم رأى أن الوقت قد حان ليستقر ٠٠ وانه يتعين عليه أن ينبذ موسيقاه ، وعواطفه المشبوبة ، والخيال ٠٠ فكل رجل من ابناء الطبقة المتوسطة ، يؤمن فى فورة صباه ـ ولو ليوم واحد او دقيقة واحدة ـ بانه قادر على العواطف العارمة ، وعلى جلائل الأعمال ٠٠ وأكثر العابثين اعتدالا ، يحلم بالسلطانات و (الحريم) ٠٠ وكل موثق للعقود يحمل فى أعماق شخصيته أطلال شاعر ! ٠٠ وأصبح « ليون » يضيق بايما ، حين تبكى فجأة ـ وهى منطرحة على صدره ـ وغدا قلبه شبيها بأولئك الذين لا يحتملون من الموسيقى الا قدرا معينا ، ثم يغالبهم النعاس ٠٠ غدا قلبه يغفو على صوت حب لم يعد يستمرىء لذاذاته ! ٠٠ فلقد أصبح كل منهما يعرف الآخر تماما ، ومن ثم لم يعد يهتز لتلك النشوة التى تترتب على المضاجعة فتضاعف بهجتها مائة مرة٠٠وكانت «ايما» من ناحيتها قد سئمته بقدر ما ملها ٠٠ فقد عادت تجـد فى الفسق كل ما فى الزواج من استرسال رتيب ! ٠٠ ولكن ، ترى كيف تتخلص منه ؟!

وكانت لا تلبث ـ رغم شعورها بالخسة لوضاعة هذه الغبطة ـ أن تتشبث بها ، نزولا على حكم العادة ، أو بدافع الفساد ٠ واخذت تزداد استنزافا لها فى كل يوم ، مرهقة كل متعة فى الرغبة ، الى أقصى الحدود ٠٠ وأخذت تلقى على « ليون » ذنب آمالها الخائبة ـ وكأنه كان يخونها ـ بل لقد راحت تتمنى كارثة تعجل بفراقهما ، ما دام قد عز عليها أن تجد الجراة للبت فى الامر ٠٠ ومع ذلك ، فقد ظلت تكتب له رسائل الهوى ، وفقا للرأى الذى يوجب على المرأة أن تكتب لعشيقها باستمرار ٠٠ ولكنها كانت ـ حين تكتب ـ تتمثل رجلا آخر ٠٠ طيفا تصوغه من أكثر ذكرياتهـا استعارا ، ومن أرق ما قرأت ، ومن أقـوى شهواتها ٠٠ وما لبث هذا الطيف أن أصبح يبدو لها حقيقة اليفة سهلة المنال ، بدرجة كانت تجعلها ترتجف مبهورة ، وان لم تستطع أن تتصور هذا الطيف فى صورة واضحة ، اذ كان أشبه باله يتوارى خلف صـفاته الضافية ! ٠٠ كان يعيش فى عالم لازوردى ـ تتدلى من شرفاته سلالم حريرية ـ بين أنفاس الزهور ، وفى ضياء القمر ٠٠ كانت تحسه قريبا منها ، ولن يلبث أن يوافيها ، فيحملها بعيدا فى قبلة ! ٠٠ وكانت لا تلبث أن تتهالك منهوكة القوى ، فان هـذه النوبات من الهوى المبهم كانت أشد ارهاقا لها من الفسق السافر !!

وأصبحت تشعر بآلام دائمة تشمل كل جسمها ٠٠ وكثيرا ما كانت تتسلم انذارات ، وأوراقا تحمل أختاما رسمية ، فلا تكاد تنظر اليها ٠٠ وباتت تتمنى أن لا تكون على قيد الحياة ، أو أن تروح فى سبات دائم ! ٠٠ وفى مساء اليوم الذى انتصف فيه الصوم الكبير ، لم تعد الى (ايونفيل) ، بل ذهبت الى حفلة

راقصة تنكرية ، وقد ارتدت سروالا (بنطلونا) من المخمل ، وجوربين أحمرين ، وشعرا مستعارا ، وقبعة ثلاثية الجوانب ، مائلة على احدى أذنيها .. وظلت ترقص طيلة الليل ، على أنغام الابواق الصاخبة ، وقد التف حولها القوم .. والفت نفسها - فى الساعات الاولى من الصباح - على درجات سلم المسرح ، مع خمسة او ستة من الراقصين المتنكرين فى ثياب حمالى الميناء ، والملاحين .. كانوا زملاء « ليون » . وأعربوا عن رغبتهم فى طعام .. وكانت المقاهى القريبة ممتلئة بالرواد .. ولكنهم عثروا فى الميناء على مطعم متواضع ،قادهم صاحبه الى غرفة صغيرة فى الطابق الرابع .. وأخذ الرجال يتهامسون فى أحد الاركان .. كانوا ولا ريب يتشاورون فى أمر النفقات .. وكانوا : كاتبا ، واثنين من طلبة الطب ، ومستخدما فى أحد المتاجر .. يا له من وسط تانس اليه !.. اما النساء ، فان « ايما » سرعان ما أدركت من لهجتهن أنهن ولا بد ينتمين الى أدنى طبقة فى الغالب .. واذ ذاك جزعت ، ودفعت بمقعدها الى الوراء ، وغضت بصرها ..

وشرع الآخرون يأكلون ، أما هى فلم تصب من الطعام شيئا .. كان جبينها متقدا ، وجفناها ملتهبين ، وبشرتها فى برودة الثلج .. وخيل اليها انها تحس بأرض المرقص تهتز تحت الضجيج المنتظم الناشىء عن آلاف الاقدام الراقصة .. وما لبثت الرائحة المنبعثة من الجماعة ، ودخان السجائر ، أن أصاباها بدوار ، ثم أغمى عليها ، فحملوها الى النافذة .. وكان النهار ينبثق ، وقد اخذت بقعة كبيرة من اللون الارجوانى تنتشر منبعثة من الافق الشاحب فوق تلال « سانت كاترين » .. وكان النهر يرتعش بفعل الريح ، وليس على الجسور عابر واحد ، ومصابيح الشوارع تخبو . واستردت «ايما» رشدها ، فشرعت تفكر فى «بيرت» النائمة

بعيدا ، فى غرفة الخادم ٠٠ ثم مرت عربة محملة بقضبان من الحديد ، محدثة صوتا معدنيا يصم الآذان ٠ وتسللت «إيما» فجاة الى الخارج ، فخلعت ثياب التنكر، وأنبأت « ليون » بأنها يجب أن تنصرف ٠٠

وخلت الى نفسها أخيرا فى فندق « بولونى » ٠٠ لقد أصبح كل شىء - حتى نفسها - لا يطاق ٠٠ وتمنت لو كان لها جناحان كالطيور ، فتنطلق طائرة الى مكان ما ٠٠ الى أصقاع بعيدة ، طاهرة ، ترتد فيها الى الشباب ثانية !

* * *

◆ وخرجت ، فاجتازت الطريق ، وميدان (كوشواز) ، والضاحية ، حتى بلغت أخيرا طريقا واسعة تفضى الى بعض الحدائق ٠٠ وكانت تمشى مسرعة ، وقد سرى عنها الهواء المنعش ، وأخذت وجوه الحشد ، والاقنعة ، والراقصون ، والأضواء ، والمائدة ، وتلك النسوة ٠٠ أخذت كل هذه تتلاشى رويدا كضباب يتشتت ٠٠ حتى اذا بلغت فندق « الصليب الاحمر » ، ألقت بنفسها على السرير فى غرفتها بالطابق الثانى ، حيث كانت ثمة صور تمثل مناظر (تور دو نك)

وأيقظها « هيفير » - سائق العصفورة - فى الساعة الرابعة ٠٠ فلما بلغت دارها ، أطلعتها « فيليسيتيه » على ورقة سمراء ، كانت خلف الساعة ٠ وقرأت فيها : « انذار بالحجز تنفيذا لحكم قضائى » ٠٠ أى حكم ؟ ٠٠ الواقع ان ورقة اخرى حملت اليها فى الليلة السابقة ، فلم تكن قد اطلعت عليها بعد ٠٠ وبهتت لهذه الكلمات : « باسم الملك ، والقانون ، والعدالة ٠٠ الى مدام بوفارى » ٠٠ ثم اغفلت بضعة أسطر وقرأت : « فى خلال اربع وعشرين ساعة ، لا غير ٠٠ » ماذا ؟ ٠٠ « أن تدفع ثمانية آلاف فرنك » ٠٠ ثم فى النهاية : « ٠٠ والا أجبرت بكافة الطرق القانونية ، وأخصها توقيع الحجز على اثاثها وممتلكاتها » ٠٠ ترى ما الذى يمكن عمله ؟ ٠٠ فى اربع وعشرين ساعة ٠٠ اى غدا ! ٠٠ وخطر لها أن « لوريه » ربما اراد أن يرهبها ، فقد خبرت كل حيله ، وأدركت الغاية التى كان يسعى اليها بما كان يبديه من اكرام ! ٠٠ وكان أكثر ما أكد لها ذلك ، ضخامة المبلغ ٠٠ على أنها بالاقتصار على الشراء دون الدفع ، وعلى الاقتراض ، وتوقيع السندات ، وتجديد هذه السندات التى كانت تزداد فى كل مرة ، قد انتهت الى تكوين رأس المال الذى كان السيد «لوريه» يرتقبه بصبر نافد لتحقيق مشروعاته !

وولجت داره ، وقد كظمت غيظها ، وبادرته قائلة : « لعلك تعرف بما جرى لى ؟ ٠٠ انها ولا شك حيلة ! »

- لا ٠٠ - وكيف ذلك ؟

فأشاح عنها ببطء ، وبسط ذراعيه قائلا لها : « أظننت يا سيدتى الشابة

اننى سأظل الى الأبد أقرضك وأقوم بمهمة الصراف لك ، لوجه الله ؟ •• من حقى أن استرد الآن ما قدمت •• ألا كونى عادلة ، منصفة ! » •• فعارضت فى قيمة الدين ، ولكنه قال : « آه ! •• على رسلك ! •• لقد أقرته المحكمة ! •• هناك حكم قضائى ! وقد أخطرت به ! •• ثم ان هذا ليس ذنبى ، وانما ذنب فانكار »

ـ أوليس فى وسعك ••• ـ آه ! •• ليس بوسعى شىء على الاطلاق

ـ ولكن هذا لا يمنع أن نتدبر ••

وشرعت تجس نبضه ، قائلة انها لم تكن تعرف شيئا عن الامر ، بل فوجئت به •• فقال « لوريه » منحنيا فى سخرية : « وذنب من هذا ؟ •• انك تستمتعين بأطيب الاوقات ، بينما أعمل أنا كالعبد المسخر ! »

ـ آه ! •• لا داعى للمواعظ •• ـ انها لا تضر أبدا

وأخذت تتذلل •• وتضرعت اليه •• بل انها ربتت بيدها الجميلة ، الغضة ، البيضاء ، ركبة التاجر ••

ـ الا دعينى ! •• ان من يرانا يقول انك تسعين الى اغوائى !

فصاحت : « انك لتعس ! »•• فاجاب ضاحكا : « آه ، آه ! •• هات ماعندك! »

ـ سأفضح أمرك •• سأقول لزوجى ••

ـ لا بأس ! •• وسأريه من ناحيتى شيئا ما ••

ثم أخرج « لوريه » من خزانته ايصالا بالالف وثمانمائة فرنك التى أعطاها اياها عندما خصم « فانكار » السندات ، وعقب قائلا : « أو تظنين انه لن يفهم سرقتك البسيطة هذه ؟ •• يا لهذا الرجل العزيز المسكين ! »

وانهارت، أكثر تداعيا مما لو كانت قد ضربت بفأس !•• بينما راح هو يسير بين المكتب والنافذة ، مرددا طيلة الوقت : «آه ! سأريه !»••ثم اقترب منها قائلا فى صوت متلطف : « اعرف انه ليس بالأمر السار •• ولكن المعركة بغير قتل ، على أية حال •• وبما أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى بقيت لك كى تدفعى مالى •• » فصاحت وهى تشد ذراعيها : « ولكن •• أين أجد لك مالا ؟ » •• قال : « آه ! باه ! •• عندما يكون لامرىء مثلك أصدقاء ! •• » •• وأخذ يتفرس فيها بنظرات حادة ، مزعجة ، أرسلت رجفة سرت الى أعماقها •• وعادت تقول : « اعدك بأن أوقع •• »

ـ عندى ما يكفينى من توقيعاتك ـ ولسوف أبيع أيضا ••

قال وهو يهز كتفيه : « دعك من هذا •• فليس لديك ما يباع »

ثم صاح خلال الكوة المطلة على المتجر : « آنيت •• لا تنسى الفضلات الثلاث المتبقية من القماش رقم ١٤ » •• وأقبلت الخادم ، فأدركت « ايما » اشارته ، وسألته عن المبلغ الذى يطلبه لوقف الاجراءات •• فقال : « لقد فات الاوان ! »

ـ ولكن ، اذا أحضرت لك عدة آلاف من الفرنكات •• ربع المبلغ •• ثلثه •• ربما كله ؟

ـ اه ! ‥ لا ‥ لا جدوى ‥

ودفعها برفق صوب السلم ، فقالت باكية : « اتوسل اليك يا سيد « لوريه » ‥ امهلنى بضعة أيام أخرى ! »

ـ آه ! ‥ جميل ‥ دموع ! ـ انك تدفعنى الى اليأس ‥

فقال وهو يغلق الباب : « ليس هذا من شأنى ! »

الفصل السابع

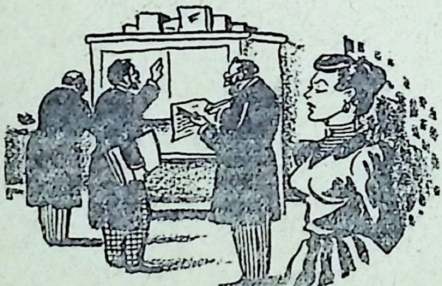

◆ تجلدت « ايما » فى اليوم التالى ، حين اقبل على دارها الاستاذ «هارنج» ـ المحضر ـ واثنان من الشهود، لتوقيع الحجز‥ وبدأوا بحجرة عيادة «بوفارى»، ولكنهم لم يثبتوا فى سجلاتهم الجمجمة التى اعتبرت من « أدوات المهنة » ‥ أما فى المطبخ فقد احصوا الصحاف واوعية الطهو ، والمقاعد ، والشمعدانات ‥ كما احصوا فى غرفة النوم كل التحف التى كانت على الرف ، وعاينوا أثوابها ، والملابس الداخلية ،وحجرة الزينة ـ الملحقة بالمخدع ـ بل وكل ما كان على جسمها ـ الى أدق الثياب الداخلية ! ـ وكأنها جثة تحت التشريح ، أمام عيون الرجال الثلاثة ! ‥ وكان الاستاذ «هارنج» ـ فى سترته السوداء المحكمة حول جذعه ، ورباط عنقه الأبيض ، وحذاءيه بسيورهما المحكمة حول قدميه ـ يردد بين آن وآخر : « أتسمحين يا سيدتى ؟ أتسمحين ؟ » ‥ وكان يهتف أحيانا : « ما أبدع هذا ! ‥ ما اجمله ! » ‥ ثم يعاود الكتابة غامسا ريشته فى محبرة جملها فى يده اليسرى ‥ حتى اذا فرغوا من الحجرات ، صعدوا الى

غرفة المخزن (التى تحت السقف المحدودب) .. كانت « ايما » تحتفظ فيها بمكتب اودعته خطابات « رودولف » .. وكان لا بد من فتحه .. وقال الاستاذ « هارنج » فى ابتسامة وقحة : « آه ! .. مراسلات ! .. ولكن ، اسمحى لى !.. اذ لا بد أن أتأكد من أن الصندوق لا يحتوى على شىء آخر ! » وطرق الأوراق بخفة ، وكأنما كان يرجو أن تسقط من بينها دنانير نابليونية .. واذ ذاك ، اشتد غضبها اذ رأت تلك اليد الغليظة ، ذات الأصابع الحمراء ، الرخوة ، تمس تلك الصفحات التى خفق لها قلبها !

وانصرفوا أخيرا ، وعادت « فيليسيتيه » ، التى كانت « ايما » قد أرسلتها لتعوق « بوفارى » عن المجىء .. وبادرتا الى حمل الرجل ـ الذى ترك للحراسة ـ على الصعود الى المخزن العلوى ، حيث أقسم أن يبقى ..

★ ★ ★

◆ بدا « شارل » فى تلك الليلة لايما مهموما ، فراحت ترمقه بنظرة خائفة ، متوجسة ، وهى تخال فى كل خط من تجاعيد وجهه اتهاما .. وكانت اذا طاف بصرها بالمدخنة المزدانة بحاجز صينى منقوش ، وبالستائر العريضة ، والمقاعد الوثيرة ، وكل تلك الأشياء التى خففت من مرارة حياتها ، لا تلبث أن تشعر بالندم .. أو بالأحرى ، بأسف بالغ ، يهيج عواطفها ، بدلا من أن يسحقها ! .. وراح « شارل » يحرك النار فى فتور وبعقل شارد ، مسندا قدميه الى حافتى المدفأة ..

وحدث أن صدرت عن الرجل ـ المختبىء فى المخزن ـ حركة طفيفة ، اذ ضاق ولا شك بحبسه ، فقال « شارل » : « هل هناك من يسير فى الطابق العلوى ؟ » .. فأجابت : « لا !.. انها نافذة تركت مفتوحة ، فأخذ الهواء يعبث بها ! »

وكان اليوم التالى من أيام الاحد ، فسعت الى (روان) لتطوف ببعض الصيارف الذين كانت تعرف أسماءهم ، فاذا بهم فى نزهات أو رحلات خارج المدينة . ولم يثبط هذا من عزيمتها ، فاستطاعت أن تقابل عددا منهم ، وتطلب منهم المبلغ ، قائلة انها فى حاجة اليه ، وانها لن تلبث ان تسده .. وضحك بعضهم منها دون حياء ، ورفضوا جميعا .. حتى اذا كانت الساعة الثانية ، هرعت الى منزل « ليون » وطرقت بابه ، فلم يفتح لها .. وما لبث أن ظهر فى النافذة !

ـ ماذا أتى بك ؟ ـ أفهذا ازعجك ؟ ـ لا ، ولكن ..

وصارحها بأن صاحب البيت لم يكن يحب استقبال « نساء » فى داره .. فقالت له : « لابد لى من أن أتحدث اليك » .. واذ هم بأن يدلى بالمفتاح اليها ، استوقفته قائلة : « آه ، لا .. هناك .. فى حجرتنا » .. ومن ثم ذهبا الى « حجرتهما » فى فندق « بولونى » .. وما أن وصلا ، حتى شربت كوبا كبيرا من الماء .. وكانت شديدة الشحوب .. وقالت له : « ليون ، هل تسدى لى

خدمة ؟ » .. وامسكت به فى قوة ، وهزته قائلة : « اسمع .. اننى بحاجة الى ثمانية آلاف فرنك »

ـ ولكنك مجنونة ! ـ لا ، لم اجن بعد !

وروت له قصة الحجز ، مبينة له محنتها ، فقد كان « شارل » يجهل كل شىء ، وحماتها تكرهها ، والأب « روو » لا يملك لها عونا ، ولكنه هو ـ ليون ـ يستطيع أن ينطلق بحثا لها عن هذا المبلغ الذى لم يكن عنه غنى ..

ـ كيف تريدين .. ؟ فصاحت : « ما أنذلك ! »

★ ★ ★

◆ وما لبث ليون أن قال مهونا : «انك تبالغين فى تصوير الشر ، فربما أمكن بالف دينار استمهال صاحبك » .. وكان هذا أدعى لأن يحاول أن يفعل شيئا، فمن المستحيل أن يعجزا عن العثور على ثلاثة آلاف فرنك .. فضلا عن أن «ليون» قد يستطيع ابرام الصفقة لأنه « أضمن » منها ..

ـ امض ! حاول ! يجب عليك ! .. اجر ! .. آه ، الا اسرع ، اسرع ! لسوف ازداد لك حبا !

وانصرف ، ثم عاد بعد ساعة ، فقال بوجه مكتئب : « ذهبت الى ثلاثة اشخاص، دون أن اوفق» .. وظلا بعد ذلك جالسين متقابلين ، الى جانبى المدفأة ،لا يحيران حراكا ، ولا ينبسان بكلمة .. وما لبثت « ايما » ان هزت كتفيها ، ودقت الأرض بقدمها .. وسمعها تغمغم : « لو كنت فى مكانك لاستطعت أن أجد المبلغ سريعا ! »

ـ ولكن من أين ؟ ـ من المكتب الذى تعمل فيه !

وحدجته بنظرة ، فاذا بجراة متهورة تطل من مقلتيها المتقدتين ، بينما استرخى جفناها فى اغراء داعر ، وتشجيع ، حتى أحس الشاب بنفسه يزداد عجزا امام ارادة هذه المرأة التى كانت تستحثه على ارتكاب جريمة .. على انه خاف . ولكى يتفادى اى حوار فى هذا الصدد ، ضرب جبينه براحته صائحا : « من المقرر أن يعود موريل الليلة ! .. وهو لن يرفض لى طلبا على ما ارجو !» (وكان هذا من اصدقائه، ابنا لتاجر عظيم الثراء) واستطرد قائلا : «وساحضر لك المبلغ هناك غدا »

ولم يبد على « ايما » اى استعداد لأن ترحب بهذا الأمل الذى صوره لها .. افتراها تحدس انه يكذب ؟ .. وعاد يقول متضرج الوجه : « وفى الوقت ذاته ، اذا لم ترينى خلال ثلاث ساعات ، فلا تمكثى فى انتظارى يا حبيبتى .. اذ لا بد لى من الانصراف ، فاسمحى لى .. وداعا ! »

وضغط يدها ، فأحس بها فاترة .. اذ لم تبق لايما قدرة على اية عاطفة

أو احساس ٠٠ وظلت حتى دقت الساعة مؤذنة بالرابعة ، فنهضت لتعود الى (ايونفيل) فى انصياع ، كجهاز آلى يعمل بدافع العادة ٠٠

* * *

◆ كان الجو بديعا ، اذ كان اليوم من أيام مارس الصافية ، الصحوة ، التى تتألق فيها الشمس فى سماء بيضاء ٠٠ وكان فريق من أهالى (روان) يتنزهون مغتبطين٠٠وبلغت «ايما» ميدان «بارفى» ، فاذا الناس منصرفون بعد صلاة الغروب ، وقد تدفقت جموعهم خلال أبواب الكاتدرائية الثلاثة ، كفيض ينساب تحت ثلاث عيون لأحد الجسور ٠٠ ووقف الحارس السويسرى فى الوسط لا يريم حراكا ، كأنه الجندل ! ٠٠ اذ ذاك ، تذكرت اليوم الذى أقبلت فيه مضطربة ، والأمل يملأ نفسها ، فولجت هذا الفناء الفسيح الذى بدا أمامها أقل اتساعا من حبها ٠٠

وواصلت سيرها وهى تبكى تحت قناعها ، مترنحة ، تحس بالأرض تميد تحت قدميها ، وتوشك أن تقع مغشيا عليها ٠٠ وصاح صوت انبعث من بوابة قصر فتحت لتنطلق خلالها عربة : « انتباه ! » ٠٠ فوقفت لتخلى الطريق لجواد أسود ، راح يصك الأرض ، بين ذراعى عربة خفيفة يقودها رجل فى فراء أسمر ٠٠ ترى من هو ؟ ٠٠ انها تعرفه ٠٠ ومرقت العربة كالسهم ، واختفت ٠٠ ولكن ، انه بعينه ٠٠ الفيكونت ! ٠٠ وانحرفت الى شارع مقفر ٠٠ واشتدت بها الحيرة اليائسة ، والحزن ، حتى اضطرت الى أن تستند الى جدار ، لتتلافى السقوط على الأرض ! ٠٠ وخيل اليها أنها ضلت طريقها ٠٠ والا ، فهى لم تكن تعرف شيئا ! ٠٠ كل ما فيها ، وكل من حولها ، كان يهجرها ٠٠ وأحست بأنها مضيعة ، تائهة ، تتخبط على غير هدى ، فى مفاوز لا نهاية لها ٠٠ وداخلها الفرح اذ لمحت ــ عند وصولها الى « الصليب الاحمر » ــ هذا الرجل الطيب «هوميه» ، يرقب رفع صندوق ملىء بالمواد الكيماوية والأدوية الى «العصفورة» ، وقد أمسك فى يده منديلا أودعه ستة أرغفة من النوع المستدير كالعجلة ، ابتاعها لزوجته ــ فقد كانت مدام « هــوميه » جد مشــغوفة بهذه الأرغفة الصغيرة ، الثقيلة ، الشبيهة بالعمامة ، التى تؤكل فى الصوم الكبير مع الزبد المملح ٠٠ آخر شكل لنوع من الوجبات القوطية التى قد يرجع العهــد بها الى عصر الصليبيين ، والتى كان المتعصبون من أهل نورمانديا يستعيدون بها الماضى ، ويوهمون أنفسهم بأنهم يرون على المائدة ــ تحت ضوء الشموع الصفراء ، وبين دنان « الهيبوكرا » (١) وكتل اللحوم الكبيرة الحجم ــ رؤوس

---

(١) « الهيبوكرا » صنف من الشراب يتألف من العسل المخمر والماء

الصرب معدة ليلتهموها •• وكانت زوجة الصيدلى تقضم هذا الخبز الجاف ، كما اعتاد القدامى أن يفعلوا ، رغم أسنانها المتداعية •• ولهذا لم يكن « هوميه » لينسى قط - كلما ذهب الى المدينة - أن يحضر لها عددا من هذه الأرغفة يبتاعها من المخبز الكبير فى شارع « ماساكر »

وقال الصيدلى : « يسعدنى أن أراك ! » • ومد لايما يدا يساعدها على الصعود الى « العصفورة » ، ثم علق أرغفته فى حبال الشبكة ، واستقر عارى الرأس ، معقود الذراعين ، فى وضع يوحى بالتفكير والعظمة ! •• ولكنه هتف، حين ظهر الرجل الأعمى عند بداية التل كالمعتاد : « لست أدرى لماذا تتساهل السلطات ازاء هذه الشعوذة الاجرامية ؟ •• يجب حبس المنكودين الذين على هذه الشاكلة ، واجبارهم على العمـــل •• لعمرى ، ان التقـدم ليحبو بخطى سلحفائية ! •• اننا نخوض حمأة من البربرية والتأخر ! » •• فبسط الرجل الأعمى قبعته التى راحت تهتز على حافة باب العربة ، كأنها جيب فى كسوة الباب الداخلية سقطت المسامير التى تثبته اليه •• وقال الصيدلى : « هذه عاطفـــة خنزيرية ! »

ومع أنه كان يعرف الشريد المسكين ، الا أنه تظاهر بأنه كان يراه للمرة الاولى ، وراح يتمتم ذاكرا شيئا عن « قرنية العين » ، و « القرنية المعتمة » ، و « تيبس العين » •• ثم سأله فى لهجة أبوية : « هل أصبت بهذا المرض الفظيع من زمن طويل يا صاحبى ؟ •• خليق بك أن تعنى بتغذية نفسك بدلا من أن تسكر فى الحانة ! » •• وراح ينصحه بأن يتناول النبيذ الطيب ، والجعة الجيدة ، واللحم المشوى ، والأعمى سادر فى أغنيته •• وكان فوق هذا يبدو معتوها •• وأخيرا ، فتح السيد «هوميه» كيس نقوده قائلا : « هاك (سو) (١) خذ نصفه ، وأعد لى النصف •• ولا تنس نصائحى ، فلن تلبث أن تشـعر بتحسن » •• فجهر السائق ببعض الشك فى جدواها ، ولكن الصيدلى قال انه على استعداد لأن يعالجه بنفسه ، ببلسم مسكن للالتهابات من تركيبه •• وأعطى الرجـــل عنوانه قائلا : « السيد هوميه ، بالقرب من الســـوق •• ستجـده معروفا » •• فقال « هيفير » : « الآن ، أرنا بعض العابك جزاء كل هذا » •• فهبط الأعمى على ردفيه ، ملقيا رأسه الى الخلف ، وهو يحرك عينيه الضاربتين للخضرة ، ويهز لسانه خارج فمه ، ويفرك بطنه بيديه ، مرسـلا نوعا من الصراخ الأجوف كعواء كلب جائع •• وفاض بايما التقزز ، فالقت اليه من فوق كتفها بقطعة من العملة ذات الخمسة الفرنكات •• كانت كل ثروتها ،

---

(١) السو جزء على عشرين من الفرنك ، أى أقل من مليمين بسعر العملة فى ذلك الوقت !!

فعن لها ان من المستحسن ان ترميها هى الاخرى ..

* * *

◆ كانت العربة قد استأنفت سيرها ، حين أطل السيد « هوميه » فجأة من النافذة وصاح : « لا تتناول أغذية تصنع من الدقيق أو الألبان .. والبس صوفا على الجلد مباشرة ، وعرض الأجزاء المريضة لدخان حبوب العرعر ! »

وما لبثت مناظر الأشياء المألوفة التى تتابعت أمام عينى « ايما » ان شغلتها رويدا عن همومها الراهنة . واستبد بها تعب لا قبل لها به .. وبلغت دارها مشتتة ، خائرة ، تكاد أن تكون نائمة .. فقالت لنفسها : « ليحدث ما لا بد من حدوثه ! » .. ثم ، من يدرى ؟ .. لم لا تتوقع أن يحدث بين لحظة واخرى حدث غير عادى ؟ .. بل ربما مات « لوريه » !

واستيقظت فى الساعة التاسعة من الصباح التالى ، على ضجيج أصوات فى الميدان .. كان ثمة حشد تجمع امام السوق لقراءة اعلان كبير ملصق على احد الأعمدة ، ورأت « جوستان » يتسلق على حجر ، ويجذب هذا الاعلان فيمزقه ، ولكن الحارس الريفى أمسك بتلابيبه فى تلك اللحظة . وخرج السيد «هوميه» من الصيدلية .. وبدت الأم « لوفرانسوا » وسط الزحام وكأنها تخطب فى القوم ..

واقبلت « فيليسيتيه » صائحة : « سيدتى ! سيدتى ! .. هذا شنيع ! » .. واسلمتها الفتاة المسكينة ــ وهى فى أبلغ حالات التأثر ــ ورقة صفراء انتزعتها لتوها من على باب الدار . وقرأت « ايما » بنظرة واحدة ان كل متاعها سيباع .. ثم رمقت كل منهما الاخرى فى صمت .. لم يعد بين الخادم والسيدة سر تكتمه احداهما عن الاخرى .. وقالت « فيليسيتيه » أخيرا ، وهى تتنهد : « لو كنت مكانك يا سيدتى ، لذهبت الى السيد جيومان » ، فقالت : « هل تظنين ... ؟ »

وودت بهذا السؤال أن تقول : « انك لتعرفين أسرار بيته عن طريق خادمه، فهل تكلم السيد عنى احيانا ؟ »

ــ اجل ، اذهبى اليه .. لسوف تحسنين صنعا !

فتهيأت للخروج ، مرتدية ثوبها الأسود ، وقلنسوتها المزركشة بالخرز . ولكى لا يراها أحد ــ اذ كان الميدان يعج بالناس دائما ــ سلكت الطريق المحاذية للنهر ، خارج القرية .. وبلغت باب دار موثق العقود ، وقد تقطعت انفاسها . وكانت السماء مكفهرة ، والجليد يتساقط رذاذا . وظهر « تيودور » ــ على رنين الجرس ــ عند السلم فى « صديرى » احمر ، ثم اقبل وفتح الباب فى غير ما دهشة أو كلفة ، وكأنه يفتحه لزائرة مألوفة .. وقادها الى قاعة المائدة .. وكانت ثمة مدفأة من القيشانى تتلظى النار فيها ، تحت فروع الصبار التى

ملأت فجوة فى الحائط كالمحراب ‥ وفى اطارين أسودين على الجدار المكسو بورق مموه بلون شجر البلوط ، كانت لوحتا ستيوبان : «ازميرالدا» ، وشوبان : « بوتيفار » ‥ وكانت المائدة المعدة ، وصفحتان فضيتان للمصطلى ، ومقابض الأبواب البلورية ، والأرضية الخشبية المصقولة ، وقطع الأثاث ‥ كانت كلها تلمع فى نظافة انجليزية أنيقة ٠ وكان زجاج النافذة مزدانا بقطع من الزجاج الملون فى الأركان ، فقالت « ايما » لنفسها : « ها هى ذى قاعة طعام من النوع الذى يليق بى ! »

* * *

◆ دخل الموثق الحجرة ، يضم « ثوب الغرفة » ـ الروب دو شامبر ـ الموشى برسوم النخيل ، الى صدره بذراعه اليسرى ، بينما أخذ بيده اليمنى يرفع ـ ثم يخفض بسرعة ـ قلنسوة بنية من المخمل ، كان يميلها ، من قبيل الأناقة، الى الجانب الأيمن من رأسه ، حيث كانت تنسدل ثلاث خصلات من الشعر شدت من مؤخر رأسه ، لتكسو حافة جمجمته الصلعاء ٠ وبعد أن قدم لها مقعدا ، جلس يتناول فطوره ، معتذرا عما فى هذا من مجافاة للذوق ‥ فقالت : «اننى أناشدك يا سيد جيومان ‥» ‥ وبادر مجيبا : «ماذا ياسيدتى؟ ‥اننى مصغ ! » ‥فراحت تصارحه بالموقف ‥ وكان السيد « جيومان »على علم به ، اذ كان يستتر وراء تاجر الأقمشة الذى كان يجد عنده المال للقروض التى كان يطلب اليه عقدها بضمان مرهونات ‥ ومن ثم كان يعرف ـ بل كان أكثر منها معرفة ـ قصة السندات التى بدأت صغيرة ، تحمل أسماء مختلفة لأشخاص كانت تحول اليهم ، وتواريخ طويلة الأجل، ثم كانت تجددباستمرار حتى جمعها التاجر كلها يوما، وسأل صديقه « فانكار » أن يتخذ عنهالاجراءات اللازمة ، رغبة منه فى أن لا يبدو كوحش ينهش لحوم بنى بلدته ‥

وكانت «ايما» تخلط قصتها بالشتائم تهيلها على «لوريه» ٠ شتائم كان الموثق يجيب عنها ـ بين وقت وآخر ـ بكلمات لا معنى لها ، وهو يمضغ قطعة من لحم الضان « الكوستليتة » ، ويحتسى الشاى ‥ مخفضا ذقنه حتى تستقر على ربطة عنقه ذات الزرقة السماوية ، التى كان يرصعها دبوسان ماسيان تصل بينهما سلسلة ذهبية صغيرة ‥ وكانت شفتاه تنفرجان عن ابتسامة غريبة ‥ ابتسامة معسولة ، ومبهمة ‥ واذ لمح أن قدميها كانتا مبتلتين ، هتف : « الا اقتربى من المدفأة ‥ ارفعى قدميك الى حافة القيشانى » ‥ ولكنها خشيت أن تلطخه، فصاح الموثق فى لباقة : « ان الأشياء الجميلة لا تتلف شيئا » ‥ واذ ذاك ، حاولت أن تؤثر على أوتار قلبه ، وقد جاشت أشجانها ، فشرعت تحدثه عن فقر دارها،وعن همومها ، وحاجاتها ‥ وقال انه يدرك ذلك،ورثى لها ! ‥ وبدون أن يكف عن الأكل ، استدار نحوها تماما ، حتى مست ركبتاه حذاءيها اللذين

تقلص نعلاهما فانثنيا بفعل حرارة الموقد.. ولكنه زم شفتيه حين سألته ان يقرضها الف دينار ، ومالبث ان صارحها بانه جد آسف لأنه لم يتول أمر ثروتها من قبل ، وقد كانت هناك مئات الطرق الملائمة - حتى للسيدات - لاستثمار الأموال .. وكان فى الوسع المساهمة بها فى مناجم (جروسفل) ، او فى اراضى (الهافر) ، دون ما مجازفة ، بل ربما كانا قد استطاعا ان يقدما على بعض المضاربات الرائعة .. وتركها تتحرق أسفا وحسرة على المبالغ الخيالية التى كان بوسعها أن تحصل عليها .. واستطرد قائلا : « كيف حدث انك لم تأتى الى؟» .. فقالت : « لم أكن أعرف »

- لماذا بالله ؟ .. أفكنت أخيفك الى هذا الحد ؟ .. على النقيض ، أنا الذى كان ينبغى أن يشكو .. اننا لا نكاد نكون متعارفين .. ومع ذلك فانا شديد الوفاء لك .. آمل أن لا ترتابى فى هذا ؟

ومد يده فتناول راحتها ، وغمرها بقبلات منهومة ، ثم استبقاها على ركبته ، وراح يعبث بأصابعها فى رفق ، وهو يغمغم بالف نجوى ناعمة .. وكان صوته الخافت ينساب كخرير جدول ، وقد راحت عيناه تومضان خلال عدستى نظارته اللامعتين ، وزحفت يده على كم « ايما » لتضغط ذراعها .. وشعرت بانفاسه المتهدجة تلفح خدها .. كان هذا الرجل يثقل عليها بدرجة فظيعة !.. فقفزت عن مقعدها وقالت له : « سيدى ، انى انتظر ! » ، فقال الموثق الذى اشتد شحوبه فجاة : « وماذا تنتظرين ؟ »

- هذا المبلغ - ولكن ..

ثم انصاع لجيشان شهوة عارمة ، فقال : « حسنا .. أجل ! » وجر نفسه نحوها على ركبتيه غير عابىء بثوبه ، واستطرد : « ألا امكثى بحق الرحمة .. اننى أحبك ! » .. وامسك بخصرها ، فاحتقن وجه مدام «بوفارى» ، وتراجعت وهى ترمقه بنظرة قاسية ، وصاحت : « انك تنتهز فرصة ضائقتى فتستغلها اشنع استغلال . سيدى .. اننى جديرة بأن يرثى لى .. لا بأن أباع ! » .. وانصرفت ! .. وظل الموثق مشدوها ، وقد علق بصره بخفيه البديعين الموشيين باشغال الابرة .. كانا هدية غرام ، وقد وجد فى رؤيتهما عزاء .. فضلا عن أنه فطن الى أن المغامرة التى كان مقدما عليها ، كانت خليقة بان تورطه الى حد بعيد

وراحت تقول لنفسها وهى تطوى درجات السلم فى خطى منفعلة . وتنطلق فى الطريق تحت أشجار الحور : « ياله من نذل » ! .. وأدى الاستياء المترتب على اخفاقها ، الى مضاعفة اعتزازها بعفتها المهانة .. وخيل اليها ان العناية الالهية كانت تلاحقها بما يثيرها ، فالتمست من كرامتها وكبريائها تقوية .. ابدا لم تشعر من قبل بمثل هذا التقدير لنفسها ، ولا بمثل هذا السخط على الغير . وأحست بروح الصراع تتملكها ، فودت لو انها صفعت جميع الرجال ، وبصقت فى وجوههم ، وسحقتهم جميعا .. ومضت فى طريقها مسرعة لا تلوى

على شيء ، شاحبة ، مرتجفة ، ثائرة ، تتطلع الى الافق بعينين مغرورقتين بالدموع .. وكانما وجدت فى ذلك الحقد الذى كان يخنقها ، نوعا من التسرية .. وما أن لمحت بيتها حتى غشيها خور ، فأحست بأن ليس فى وسعها أن تمضى اليه .. ومع ذلك كان من المحتوم أن تمضى .. فالى أين المفر ؟

★ ★ ★

◆ بادرتها « فيليسيتيه » التى كانت فى انتظارها لدى الباب : « حسنا ؟ » فأجابت « ايما » : « لا » .. وظلت كلتاهما ربع ساعة تستعرضان أسماء مختلف الأشخاص الذين قد يستطيعون أن يمدوا يد العون، من أهل (ايونفيل) . ولكن « ايما » كانت تعقب على كل اسم تذكره « فيليسيتيه » : « أمن الممكن ؟ لن يقبل ! »

ـ والسيد الذى لن يلبث أن يعود !

ـ أعرف هذا جيدا .. فدعينى أخلو الى نفسى !

وكانت قد بذلت كل محاولة ، فلم يبق ما تفعله .. واذا ما عاد « شارل » فعليها أن تقول له : « عد ! .. ان البساط الذى تطاه لم يعد لنا .. انك لا تملك فى بيتك قطعة أثاث .. ولا ابرة .. ولا قشة ! .. وأنا السبب فى خرابك أيها الرجل البائس ! » .. وتعقب ذلك دمعة كبيرة ، فيبكى فى غزارة، ثم .. تنقشع المفاجاة ، ويغفر لها ! .. وتمتمت وهى تصر على أسنانها : « أجل ، سيصفح عنى ، وهو الذى لو قدم لى مليونا لأغفر له كونه عرفنى ، لما غفرت ! .. أبدا ! أبدا ! » .. وغاظتها هذه الفكرة الموحية بسمو « بوفارى » عليها .. انه لن يلبث أن يعرف بالنكبة ، عما قريب ، أو فى الحال ، أو غدا ، وسواء اعترفت له أو لم تعترف..ومن ثم فعليها أن تنتظر هذا الموقف الرهيب، وأن تتحمل وطأة مروءته ونخوته(حين يدرك مافعلت به ثم يصفح عنها)..وتملكتها الرغبة فى أن تعود الى « لوريه » .. ولكن ما الجدوى ؟ .. هل تكتب لأبيها ؟ .. لقد تأخر الوقت كثيرا .. ولعلها كانت قد بدأت تندم على أنها لم تستسلم لذلك الرجل ـ « جيومان » ـ حين سمعت وقع سنابك جواد فى الحارة التى تقع خلف دارها .. كان هو : « شارل » .. كان يفتح البوابة .. ووجهه أشد بياضا من الجبس .. واندفعت تهبط السلم ، وهرعت الى الميدان..ولمحتها زوجة العمدة ـ التى كانت تتحدث الى « ليستيبودوا » أمام الكنيسة ـ وهى تدخل عند محصل الضرائب ، فأسرعت لتنبىء مدام « كارون » ، وصعدت السيدتان الى المخزن الذى يقع تحت سقف المبنى ، فكمنتا وراء قماش نشر على « المنور » ، وتهيأتا لتطلا على غرفة « بينيه » فى وضع يريانها فيه بأسرها ..

★ ★ ★

◆ كان «بينيه» وحيدا ، وقد انهمك في صنع تحفة من تلك التحف الخشبية

التى لا وصف لها ، والمؤلفة من اهلة (جمع هلال) ذات محيطات مجوفة يتداخل كل منها فى الآخر ، بحيث تستقيم القطع فى مجموعها كالمسلة ، وان لم يكن لها اى نفع ! •• وكان قد شرع فى آخر قطعة •• أوشك أن ينتهى الى هدفه• وفى الضوء الخافت الذى كان فى الورشة ، كان الغبـــار الابيض يتطاير من الآلات كرذاذ من الشرر ينبعث من تحت سنابك جواد يخب فى جـريه •• وكانت عجلتا المخرطة تدوران ، وتبعثان زئيرا •• و «بينيه» يبتسم ، وقد نكس ذقنه ، وتفتحت طاقتا انفه ، وبدا ـ بايجاز ـ مستغرقا فى احدى تلك المتع الكاملة التى لا تتأتى الا من الأعمال العادية ، والتى تجعل العقل يستعذب المصاعب البسيطة ! وتشيع سعادة اخرى ، فوق كل ما يمكن للعقول أن تحلم به!

وهتفت مدام توفاش : « آه •• ها هى ذى ! » •• ولكن ، كان من المتعذر ان تسمعا ما كانت تقوله «ايما» ، وسط ضجيج المخرطة • وحدست السيدتان فى النهاية انهما سمعتا كلمة « فرنكات » ، فهمست مدام « توفاش » بصوت خفيض: « انها ترجوه أن يمهلها فى دفع ضرائبها » ، فاجابت الأخرى : « هكذا يبدو!» •• وابصرتاها تروح وتغدو ، متفحصة مشاجب المنشفات ، والشـــمعدانات ، والأسيجة (الدرابزينات) الخشبية التى كانت مسندة الى الجدران ، بينما كان « بينيه» يتحسس لحيته فى رضى •• وقالت مدام توفاش : « أترينها تريد أن تكلفه بصنع شىء لها ؟ » ، فقالت الأخرى : « كيف ؟ •• انه لا يبيع شيئا »

ولاح ان محصل الضرائب كان يستمع وقد فتح عينيه ، كمن لايفقه، و«ايما» ماضية فى ضراعة ناعمة••واقتربت منه وصدرها يتهدج •• ولم يعودا يتكلمان •• وقالت مدام توفاش : « أترينها تعرض عليه بعض الأجر مقدما ؟ » ••وكان الدم قد تصاعد فى وجه « بينيه » حتى اذنيه ، فامسكت بيده ••

ـ آه •• هذا كثير جدا !

ولابد انها كانت تعرض عليه أمرا بشـعا منكرا ، فان محصل الضرائب كان رغم كل شىء ، عفيفا •• لقد حارب فى (بوزان) و (لوتزان) ، وخاض الحملة الفرنسية بأسرها ، ورشح للفوز بوسام « اللجيون دونير » •• ومن ثم ، فانه لم يلبث فجاة أن تراجع الى ابعد ما استطاع ، وكأنه رأى امامه حية ، وصاح : « سيدتى ، ماذا تعنين ؟ » •• وهمست مدام « توفاش » لصاحبتها : « ان امثال هذه المرأة يجب أن يضربن بالسياط » •• فقالت مدام « كارون » : « ولكن ، اين هى ؟ » •• اذ كانت «ايما» قد اختفت أثناءهذه الهمسات، ثم لمحتاها تمضى فى الشارع الرئيسى ، وتعرج الى اليمين وكأنها متجهة الى المقبرة •• وشغلتا عنها بالحدس والتخمين !

وقالت « ايما » اذ بلغت دار المربية : « دادة روليـــه •• اننى اختنق •• افتحى صدر ثوبى » •• وارتمت على السرير منتحبة •• وغطتها المربية «روليه»

ب « جونلة » وظلت واقفة الى جوارها ٠٠ ثم انسحبت المراة الطيبة اذ لم تتلق من الأخرى جوابا ، وتناولت مغزلها وراحت تغزل كتانا ٠٠ وغمغمت «ايما» اذ خالت انها تسمع صوت مخرطة « بينيه » : « آه ! ٠٠ هلا انتهيت ! » ٠٠ فقالت المربية لنفسها : « ترى ما الذى يزعجها ؟ ٠٠ لماذا جاءت هنا ؟ » ٠٠ كانت « ايما » قد اندفعت الى هناك ، مسوقة بنوع من الخوف كان يدفعها بعيدا عن دارها ٠٠ وفيما كانت مستلقية على ظهرها ، بلا حراك ، وقد جمدت مقلتاها، اخذت ترى الأشياء فى غير وضوح،وان حاولت أن تستبينها فى اصرار أبله!٠٠ وحدقت فى طلاء الحائط المتساقط ، وفى قطعتى الخشب اللتين كان طرفاهما المتقاربان يبعثان دخانا فى المدفاة ، وفى عنكبوت يزحف فوق راسها ، فى شق خلال الخشب ٠٠ واخيرا ، شرعت تجمع شتات افكارها ٠٠ تذكرت يوما كانت فيه مع « ليون » ٠٠ اواه ، ما أبعد ذاك اليوم!٠٠ وكانت الشمس تسطع متالقة على صفحة النهر ، ونبات « الداليا » يؤرج الهواء ٠٠ وما لبثت أن شرعت تتذكر اليوم السابق - الأمس - وكأنما جرفها سيل طاغ ٠٠ فتساءلت : « كم الساعة ؟ » ٠٠ وخرجت الأم « روليه » ، فرفعت أصابع يدها اليمنى فى وضع عمودى على ذلك الجانب من السماء الذى كان أكثر ضياء من سواه ، ثم عادت فى تؤدة ، قائلة : « حوالى الثالثة »

- آه ! ٠٠ شكرا ! شكرا !

٠٠ ان « ليون » ولا بد قد أتى ٠٠ انه لا بد آت طبعا ٠٠ ولا بد انه وفق الى بعض المال ٠٠ بل لعله هناك الآن فعلا ، فما كان ليحدس انها هنا ٠٠ ومن ثم أمرت المربية بأن تسرع الى دارها وتحضره ٠٠ واهابت بها : « اسرعى ! » ٠٠ فقالت : « ها أنذى ذاهبة يا سيدتى العزيزة ٠٠ ذاهبة ! »

★ ★ ★

◆ وعجبت «ايما» من نفسها ، كيف لم يخطر ببالها ان تفكر فيه من البداية؟! لقد وعدها بالأمس ، وما كان ليحنث بوعده ٠٠ وراحت تتمثل نفسها وقد ذهبت الى « لوريه » ، فبسطت ثلاث ورقات مالية على مكتبه ٠٠ ثم تعمل على ابتكار قصة تشرح بها الأمور لبوفارى ٠٠ ترى اية قصة ؟ ٠٠ وطال غياب المربية ٠٠ ولما لم تكن فى الكوخ ساعة ، فقد خشيت « ايما » أن تكون قد بالغت فى تقدير طول الزمن الذى انقضى ٠٠ واخذت تجوس خلال الحديقة فى تؤدة ٠٠ ويممت شطر الدرب المجاور للسياج ، ثم عادت مسرعة ، املا منها فى ان تكون المربية قد عادت من طريق اخرى ٠ وأخيرا ، اثقلها الانتظار ، واخذت تراودها المخاوف - التى جهدت فى أن تصدها عن نفسها - ولم تعد تدرى ما اذا كانت قد مكثت فى المكان قرنا او لحظة ، فجلست فى أحد الأركان ،

واغمضت عينيها ، وسدت أذنيها . وما لبث أن انبعث من البـــاب صرير ، فقفزت واقفة .. وقبل ان تتكلم ، قالت لها الأم « روليه » : « ليس فى دارك أحد ! » .. فهتفت : « كيف ؟ »

ـ آه ! لا أحد ! .. والسيد يبكى .. ويناديك .. انهم يبحثون عنك !

ولم تجب « ايما » ، بل شهقت وهى تجيل بصرها حولها ، بينما ارتدت الفلاحة الى الخلف بحركة غريزية ، وهى خائفة ، اذ توهمت انهـــا جنت .. وفجاة ، دقت « ايما » جبينها ، وصرخت .. فقد أومضت فى أعماقها ذكرى « رودولف » ، كلمح البرق فى ليلة مظلمة .. لقد كان مفرط الطيبة ، والرقة، والكرم ! .. وبجانب ذلك ، فانها خليقة بان تعرف ـ اذا تردد فى أداء هذه الخدمة ـ كيف توقظ فى لحظة واحدة غرامهما الضائع ! .. ومن ثم انطلقت صوب مزرعة (لاهوشيت) ، غير مدركة أنها انما كانت تسرع لتقدم نفسها الى ذاك الذى خيب آمالها من قبل .. وغير مرتابة أتفه ريبة فى تاثير خلاعتها !

الفصل الثامن

◆ وساءلت نفسها وهى منطلقة : « ماذا ترانى قائلة ؟ .. من اين أبدأ ؟ » واخذت فى طريقها تتذكر الأحراش ، والأشجار ، واعواد الخيزران البحرى النامية على السفح .. ثم القصر .. والفت نفسها تعود الى احاسيس حبهـــا الأول ، فتفتح قلبها المسكين ، النابض بالألم ، لهذا الحب .. ولفحتها نسمة دافئة .. وبدأ الجليد يذوب ويتساقط قطرة فقطرة من البراعم الى الأعشاب .. ودخلت ، كما اعتادت فى الماضى ، خلال باب البستان الصغير ، وســـعت الى الطريق المحفوفة بصفين من أشجار الزيزفون الوارفة ، التى كانت تهز اغصانها

الطويلة فى حفيف ٠٠ ونبحت الكلاب فى حظيرتها نباحا متواصلا ، فترددت ضوضاء نباحها ، دون ان يظهر احد ٠٠ وصعدت « ايما » السلم الأيمن ، ذا « الدرابزين » الخشبى ، المفضى الى ردهة مرصوفة ببلاط مغبر ، يمتد فيها صف من الأبواب المفتوحة ، وكانها تقوم فى دير ، او فى فندق ٠٠ وكانت غرفته فى النهاية ، فى الطرف الأقصى ، الى اليسار ٠٠

واذ وضعت أصابعها على مقبض الباب ، زايلتها قواها فجاة ، وغشيها خوف اوشكت معه ان تتمنى لو انها لم تكن هناك ٠٠ رغم ان هذا كان املها الأوحد ٠٠ فرصتها الأخيرة للنجاة ! ٠٠ واستجمعت شتات فكرها لحظة ، وتذرعت بالشعور بحاجتها الملحة ، ثم ولجت الغرفة ٠٠ فاذا به امام المدفأة ، وقد رفع قدميه الى حافتها ، واخذ يدخن غليونه ٠٠ وما ان رآها حتى نهض فى عجلة قائلا : « عجبا ! ٠٠ اهذه انت ؟ »

ـ اجل ، هذه انا يا رودولف ٠٠ احببت ان استعين برأيك

وعلى الرغم من كل جهودها ، فقد استحال عليها ان تفتح فمها ٠٠ وقال : « انك لم تتغيرى ٠٠ ما زلت فاتنة كالعهد بك ! » فاجابت بمرارة : « آه ٠٠ انها مفاتن حزينة يا صديقى ، مذ نبذتها ! » ٠٠ وعندئذ ، شرع فى شرح طويل لمسلكه ، مبررا تصرفه بعبارات مبهمة ، اذ عجز عن ان يبتكر مبررات افضل ٠٠ وتقبلت كلماته ، متاثرة بصوته وشكله ، فتظاهرت بانها صدقته ، او لعلها فعلا صدقت الحجة التى قالها معللا قطيعتهما ، اذ زعم أن فى الأمر سرا يتوقف عليه شرف ـ بل حياة ـ شخص ثالث !

وقالت متطلعة اليه فى اسى : « لا بأس !٠٠ لكم تالمت ! »٠٠ فاجاب متفلسفا : « هكذا هى الحياة ! » ٠٠ فعقبت قائلة : « أفتراها كانت مواتية لك ـ انت على الأقل ـ منذ فراقنا ؟ »

ـ لم تكن بالطيبة ٠٠ ولا بالرديئة

ـ لعله كان من الأفضل لو اننا لم نفترق !

ـ اجل ، ربما

ـ او تظن ذلك ؟

وازدادت منه اقترابا ، وزفرت قائلة : « اواه يا رودولف ! ٠٠ ليتك كنت تعرف ٠٠ كم احببتك ! » ٠٠ واذ ذاك ، تناولت يده ٠٠ ومكثا برهة وقد اشتبكت اصابعهما ، كما كانت فى اول يوم ، حين زارا المعرض ٠٠ واخذ يقاوم فى كبرياء جيشان عواطفه ، ولكنها تهالكت على صدره قائلة : « كيف اردتنى على ان احيا بدونك ؟ ٠٠ ان المرء لا يستطيع ان يسلو السعادة التى تعودها ! ٠٠ لقد كنت يائسة ٠٠ بل ظننت اننى لابد ميتة !٠٠ لسوف اروى

لك كل شىء ، ولسوف ترى بنفسك . اما انت..انت..فقد هربت منى! »..

كان قد تفاداها طيلة السنوات الثلاث فى حرص ، بسبب ذلك الخور الغريزى الذى يمتاز به الجنس الاقوى .. واستطردت « ايما » فى حركات مغرية من راسها ، وفى معابثة تفوق معابثات القطة العاشقة : « انك ولابد تحب اخريات .. اعترف ! .. أواه ! .. اننى لأدرك ذلك حقا ! ولكننى أعــذرهن ، فانت ولابد اغويتهن كما اغويتنى ! .. انك رجل .. فيك كل ما يجعــــل الأنثى تحبك ! .. ولكنا سنبدأ من جديد ، أليس كذلك ؟ .. سيحب كل منا الآخر .. الا انظر ! .. اننى أضحك .. اننى سعيدة ! .. كلمنى ! »

وكانت متعة للرائى ، بعينيها اللتين كانت الدموع ترتعش فيهما ، كماء مزن يسقط فى كاس زرقاء !..واجلسهاعلى ركبتيه، وراح يمسح بظهر يده ، فى تدليل، شعرها الناعم الذى انعكس عليه - فى العتمة الخفيفة التى شملت الغرفة - شعاع من فلول أشعة الشمس الغاربة ،فبداكما لو كان سهما ذهبيا..واحنت راسها .. وما لبث أخيرا أن قبل فى لطف جفنيها باطراف شفتيه .. وتساءل : « ولكنك كنت تبكين .. لماذا ؟ » .. وانبثق دمعها مدرارا ، فخيل لرودولف انها فورة من فورات الحب ، فلما لم تنبس ببنت شفة ، فسر هذا الصمت بانه آخر مظاهر التمنع والدلال ، فهتف : « أواه ! .. ألا اغفــرى لى ! .. أنت الوحيدة التى تروق لى .. لقد كنت غبيا وقاسيا .. اننى احبك .. وسأظل أحبك على الدوام .. فماذا بك ؟ .. الا قولى لى ! » .. وركع فى تلك الأثناء الى جوارها

- آه..لقد قضى على بالخراب يارودولف !.. هلا اقرضتنى ثلاثة آلاف فرنك؟

قال وهو ينهض فى تؤدة ، وقد استولى على أساريره وجوم : « ولكن .. ولكن .. » فبادرت قائلة بسرعة : « انك تعلم أن زوجى عهد الى موثق للعقود بكل ثروته ليستثمرها ، فهرب .. ومن ثم اضطررنا للاقتراض .. والمرضى لا يدفعون .. كما أن تصفية الميراث لم تتم بعد ، ولن نلبث أن نحصل على نصيبنا .. على أننا اليوم محجوز على متاعنا لعجزنا عن دفع ثلاثة آلاف فرنك .. لابد من دفعها فورا ، فى هذه اللحظة .. فجئت لائذة بصداقتك ! »

قال « رودولف » لنفسه وقد شحب وجهه : « آه ! اذن فلهذا جاءت ! »..

وقال أخيرا فى هدوء : « لست أملكها يا سيدتى العزيزة » ! .. ومضى يقول انه لم يكن يكذب .. لو انه أوتى المبلغ لما تردد فى أن يعطيه لها ، وان كان من غير المستحب - عادة - التورط فى مثل هذه الأمور الدقيقة ، فان المطالبة بالمال هى ابرد الرياح التى تهب على الحب واشدها قضاء عليه ! .. وظلت « ايما » تتطلع اليه لحظات ، وهى تردد : « ألست تملكها ؟! .. ألست تملكها ؟..كان خليقا بى أن اجنب نفسى هذا الخزى الأخير .. انك ما احببتنى ابدا .. انك

لست بافضل من الآخرين » •• كانت تفضفض عن نفسها ، وقد فقدت اتزانها •• وقاطعها « رودولف » قائلا انه هو الآخر فى « ضائقة » ، فقالت « ايما »: « آه !•• اننى ارثى لك •• اجل •• أرثى لك جـــدا ! » •• وراحت ترمق طبنجة موشاة بالفضة ، وقد اخذت مؤخرتها تلمع خارج قرابها •• واستطردت : « ولكن المرء اذا كان فقيرا الى هذا الحد ، لا يبدد نقوده فى كسوة كعب طبنجته بالفضة •• ولا يشترى ساعة مرصعة بالصدف » •• واشارت الى ساعة مطعمة بالنقوش الصدفية ، واستطردت : « ولا مقابض مطلية بالفضة لأسـواطه » ومست هذه المقابض •• « ولا تحفا يعلقها الى سلسلة ساعته •• اواه ! •• انه لا يحرم نفسه شيئا ! •• ولا رف الخمور فى حجرته ! •• انك تحب نفسك ، ولذا تعيش منعما •• لك قصر ، ومزارع ، وغابات •• وتخرج للصـــيد •• وتسافر الى باريس •• عجبا •• اى شىء من هذه •• » وصاحت وهى تتناول زرين من ازرار الأقمصة الذهبية المرصعة من فوق رف المدفاة : « ان اتفه هذه الصغائر تكبد المرء مالا •• أواه ! •• لست اريدهما •• احتفظ بهما ! » •• والقت بالزرين بعيدا ، فتفككت السلسلة الذهبية التى تتوسطهما ، اذ ارتطما بالجدار •• ثم اردفت « ايما » تقول :

ـ اما انا •• فقد كنت قمينة بأن اعطيك كل شىء •• ما كنت اتردد فى ان ابيع كل ما املك ، وأن أعمل بيدى من اجلك •• كنت استجـدى على قارعات الطرق ابتسامة ، نظرة •• كى اسمعك تقول : « اشــكرك ! » •• أما انت فتجلس هنا ناعما فى مقعدك الوثير ، كانك لم تسبب لى ما يكفينى من العذاب!•• لولاك ـ وانك لتعلم هذا جيدا ـ لعشت سعيدة •• ما الذى حملك عـلى ان تدخل حياتى ؟ •• أكان رهانا ؟ •• ومع ذلك فقد أحببتنى ، ولقد اعترفت بذلك •• بل قلتها منذ لحظة •• آه ! •• كان من الخير لو أنك طردتنى •• ان يدى لا تزالان ساخنتين من قبلاتك •• ولا يزال على البســاط آثار ركبتيك وانت تقسم على خلود حبك !•• جعلتنى اصدقك •• استبقيتنى عامين فى ابهى واحلى الأحلام ! •• اه ! •• أتذكر الخطط التى رسمناها لرحلتنا ؟ •• اواه ! •• وخطابك ! خطابك ! لقد مزق قلبى ! •• وبعد ذلك ، عندما أعود اليه ـ اليه ، وهو الغنى ، السعيد ، الطليق ـ أناشده معونة لا يحجم اى غريب عن تقديمها •• الآن اذ أضرع اليه ، وأعيد اليه كل حبى وحنانى ، يطردنى •• لأن كل هذا لا يساوى عنده ثلاثة آلاف فرنك ! »

قال «رودولف» ، بتلك الرزانة التامة التى يتوارى خلفها الغضب المكظوم ، كما لو كانت درعا : « لست أملك المبلغ ! » •• فخرجت « ايما » •• كانما كانت الجدران تترنح ، والسقف ينقض عليها •• ورجعت ادراجها ســالكة الدرب الطويل ، متعثرة فى أكوام ورق الشجر الجاف الذى كانت الريح تذروه ••

وبلغت أخيرا السياج النباتى الذى يقوم قبل الباب الخارجى ٠٠ واتلفت اظافرها وهى تعالج قفل الباب ملهوفة على فتحه ، ثم وقفت بعد مائة خطوة ، وقد تعثرت أنفاسها ، وأوشكت أن تنهار ٠٠ وما لبثت أن تلفتت خلفها ، وتطلعت مرة اخرى ، الى القصر المنيع ، مع البستان ، والحدائق ، والأفنية الثلاثة ، ونوافذ الواجهة ٠٠

ومكثت حائرة ، مذهولة ، لا تشعر بنفسها الا خلال نبض عروقها الذى خالته منبعثا فى قوة ، كموسيقى تصم الآذان ، وتنتشر فى الحقول جميعا ٠٠ وكانت الأرض تحت قدميها اكثر تداعيا من البحر ، وشقوق الحرث تلوح لها كأمواج تتكسر مزبدة ٠٠ وانطلق كل شىء فى رأسها - من ذكريات ، وآراء - كصواريخ نارية تتفتت فى الفضاء الى الف قطعة : تمثلت أباها ٠٠ وحجرة المكتب الضيقة بدار « لوريه » ٠٠ وحجرة نومها وزوجها فى البيت ٠٠ ومناظر اخرى ٠٠ كان الجنون يطبق عليها ٠٠ واشتد بها الخوف ٠٠ وجاهدت لتتمالك نفسها ، ولكنها فى الواقع كانت مرتبكة ! ٠٠ فما كانت لتذكر شيئا عن السبب الحقيقى فى حالها الرهيبة هذه ٠٠ وهو طلب المال ! ٠٠ اذ لم تعد تتعذب اذ ذاك الا من غرامها ، واحست بان روحها تفارقها فى هذه الذكرى ، كالجرحى اذ يشعرون - وهم يحتضرون - بحياتهم تتسلل خلال جراحهم ٠٠ وكان الليل يرخى سدوله ، والغربان تحوم ٠٠ وفجاة ، خيل اليها ان ثمة كرات ملونة من لهب تنفجر فى الهواء - كالصواريخ حين تنطلق - ثم تلف ، وتلف ، لتذوب فى النهاية فى الصقيع ، بين افنان الشجر ٠٠ وفى وسط كل كرة ، كان وجه « رودولف » يلوح ٠٠ وتكاثرت الكرات واخذت تقترب منها ٠٠ وتنفذ خلالها ٠٠ ثم تلاشت كلها ، اذ تبينت انها انما كانت تحملق فى اضواء البيوت المتالقة خلال الضباب !

اذ ذاك ، عاد موقفها يتجلى لها كهوة سحيقة ٠٠ وكانت تلهث وكانما قلبها يوشك ان ينفجر ٠ ثم ، وفى نوبة من نوبات البطولة - جعلتها فى شبه غبطة - اندفعت تهبط السفح ، وتجتاز معبرة البقر فوق النهر ، وتنطلق مجتازة الشارع ، والحارة ، والميدان ، حتى وصلت الى الصيدلية ، وكانت خالية ٠٠ وهمت بالدخول ، ثم خشيت ان يرن الجرس فيخف الى الحانوت احد ٠٠ وتسللت خلال الباب الجانبى للحديقة ، وهى تمسك انفاسها ، ثم تلمست سبيلها بجوار الجدار الى باب المطبخ ، حيث كانت ثمة شمعة مشتعلة فوق الموقد ٠٠ وكان « جوستان » هناك بدون سترته ، وقد حمل احدى الصحاف ، فقالت : « آه ! ٠٠ انهم يتناولون عشاءهم ٠٠ لننتظر ! »

★ ★ ★

◆ ورآته يعود الى المطبخ ، فطرقت النافذة فى رفق ٠ وخرج اليها ،فهمست

له : « المفتاح ·· مفتاح الحجرة العليا ·· حيث توجد ·· » ، فتساءل : «ماذا؟» ·· ورمقها مشدوها لفرط شحوب وجهها ، الذى بدا بياضه جليا وسط ظلمة الليل · وبدت له فى جمال وبهاء غير عاديين ، وكانها طيف ·· واحس بنذير مرعب ، وان لم يفهم ما كانت تبغى ·· ولكنها عادت تقول بسرعة ، فى صوت خافت ، عذب ، يذيب القلوب : « اننى اريده ·· اعطنيه ! »·· واذ كان الجدار الذى يفصل المطبخ عن بقية البيت رفيعا ، فقد كانت جلبة الشوكات على صحاف الطعام ـ فى غرفة المائدة ـ مسموعة · وزعمت «ايما» انها بحاجة الى قتل بعض الجرذان التى تحرمها النوم ··

ـ يجب ان استاذن السيد ·· ـ لا ! ·· انتظر !

ثم اردفت فى غير اكتراث : « آه ! ·· الأمر لا يستحق ·· لن البث ان اقول له ! ·· هيا ! ·· انر لى السلم ! » ·· ودلفت فى الردهة المفضية الى باب المعمل · وكان ثمة مفتاح معلقا على الجدار ، يحمل بطاقة كتب عليها « كفر ناحوم » ·· وفى تلك اللحظة صاح الصيدلى بصبر نافد : «جوستان!» ·فهتفت « ايما » : « لنصعد ! » ·· وتبعها ·· ودار المفتاح فى القفل ·· وسارت فورا نحو الرف الثالث ، مهتدية بذاكرتها ، فتناولت القنينة الزرقاء ، وانتزعت سدادتها عنها ، ودست فيها يدها ، ثم اخرجتها ممتلئة بمسحوق ابيض ، شرعت تلتهمه !·· وصاح الفتى وهو ينقض عليها : « توقفى !»

ـ صه ! ·· والا جاء احد ··

وتولاه الياس ، فود لو يصرخ ، ولكنها قالت له : « لا تقل شيئا ، والا وقعت المسئولية على مخدومك ! » ·· ثم عادت الى دارها وقد غشيتها سكينة مفاجئة ، وداخلتها طمانينة من ادى واجبه

★ ★ ★

◆ عندما عاد « شارل » الى بيته مهموما لأنباء الحجز واعلان البيع ، كانت « ايما » قد خرجت ، فطفق يبكى مجهشا ، واغمى عليه . ولكنها لم تعد ! ترى أين يحتمل أن تكون ؟ .. أوفد « فيليسيتيه » الى دار آل « هوميه » ، والى دار السيد « توفاش » ، ودار « لوريه » ، و « الفندق الذهبى » ، وكل مكان .. وفى فترات الهدوء التى تخللت احزانه ، كان يتمثل سمعته المضيعة ، وثروتهما المبددة ، ومستقبل « بيرت » المضعضع .. باى سبب ؟ .. لم تكن ثمة كلمة واحدة تهديه !.. وظل ينتظر حتى الساعة السادسة مساء ، واخيرا لم يعد يطيق صبرا .. خيل اليه انها ذهبت الى (روان) ، فانطلق فى الطريق المفضية اليها ، وقطع ميلا ، دون أن يلتقى باحد .. ومرة اخرى ، اخذ ينتظر .. ثم عاد الى البيت .. وكانت قد عادت

ـ ماذا جرى ؟ .. لماذا ؟ .. اخبرينى ..

وجلست الى مكتبها فكتبت رسالة ، ثم أحكمت اغلاقها فى بطء ، واثبتت عليها التاريخ والساعة .. ثم قالت فى صوت ينذر بالجلل : « لك ان تقرأ هذه غدا .. وحتى ذاك الوقت ، ارجو أن لا تسألنى .. ولا سؤال واحد ! »

ـ ولكن .. ـ أواه .. دعنى !

واستلقت « ايما » على فراشها .. وانتابتها غفوة استيقظت منها على طعم مرير فى فمها .. ورأت « شارل » ، فعادت تغمض عينيها .. واخذت تدرس نفسها فى فضول ، لتستبين ما اذا كانت بمنجى من الألم .. ولكن لا ! .. لم يكن ثمة ألم بعد..وسمعت دقات بندول الساعة ، وأزيز النار فى المدفأة ، وانفاس « شارل » وهو واقف الى جوار السرير معتدل القامة ، وقالت لنفسها : « آه ! .. ما اهون الموت ! .. لن البث أن استغرق فى النعاس ، ثم ينتهى كل شىء ! » .. وتناولت جرعة من الماء ثم أدارت وجهها نحو الحائط..وعاودها الطعم البغيض .. كانه طعم المداد ! .. وتنهدت قائلة : « اننى ظامئة .. آه ! لشد ما أنا عطشانة ! » .. فقال « شارل » وهو يناولها كوبا من الماء : « ماذا بك ؟ » .. فقالت : « لا شىء !.. افتح النافذة .. اننى أختنق ! » .. ودهمها غثيان مفاجىء حتى انها لم تكد تجد وقتا لتسحب المنديل من تحت الوسادة .. وقالت فى عجلة : « خذه بعيدا .. القه بعيدا » .. وراح يحدثها ، ولكنها لم تجب ، وظلت راقدة بلا حراك ، تخشى أن تؤدى أتفه حركة الى التقيؤ من جديد .. ولكنها ما لبثت أن احست ببرودة جليدية تزحف من قدميها نحو قلبها وغمغمت : « آه ! .. هذه هى البداية ! » .. فقال : « ماذا قلت ؟ » .. فاخذت تحرك رأسها من جانب الى آخر فى حركة خفيفة مفعمة

بالألم ، وهى لا تنى تفتح فمها ، وكأن شيئا ثقيلا يجثم على لسانها .. وفى الساعة الثامنة ، عاودها القىء .. ولاحظ « شارل » فى قاع الحوض قطعا من مادة بيضاء ، لاصقة بجوانب القيشانى ، فأخذ يردد : « هذا غريب..جد غريب!» .. ولكنها قالت فى صوت حازم : « لا .. انك تخطىء » .. ومالبث أن مد يده فى رفق ، بل وفى تلطف ، متحسسا بطنها ، فأرسلت صرخة حادة .. وتراجع مذعورا !

وما لبثت أن أخذت فى الأنين ، بصوت خافت فى البداية .. وتولتها رجفة شديدة كانت كتفاها تهتزان لها .. واخذت تزداد شحوبا حتى فاقت فىالبياض تلك الأغطية التى كانت أصابعها تتشبث بها وتغوص فيها . ومالبث نبضهاغير المنتظم ان وهن حتى أوشك أن لا يكون محسوسا .. وتفصدت قطرات العرق من وجهها الذى غدا أزرق اللون ، والذى بدا كما لو كان جامدا تحف به غلالة من أبخرة معدنية .. واخذت اسنانها تصطك ، وعيناها الواسعتان تجولان فيما حولها بنظرات مبهمة .. ولم تكن تجيب عن أى سؤال الا بهزة من راسها .. بل انها ابتسمت مرة أو اثنتين .. وأخذ أنينها يشتد ارتفاعا شيئا فشيئا ، ثم انبعثت منها صرخة جوفاء .. وتظاهرت بأنها أحسن حالا ، وانها لن تلبث أن تنهض .. بيد أنها ما لبثت ان اخذت تختلج فى تشنج وصرخت : « آه ! يا الهى ! هذا فظيع ! »

وهبط راكعا الى جوار سريرها قائلا : « نبيئنى ! ماذا أكلت ؟ .. أجيبى بحق السماء !» .. واخذ يتأملها وعيناه تفيضان بحنان لم تر مثله قط ، فقالت بصوت واهن : « حسنا !.. هناك .. ! » وانقض على المكتب ، وفض الرسالة ، وقرأ بصوت مرتفع : « لا تتهموا أحدا » .. وامسك ، وفرك عينيه ، ثم عاد يقرأ من جديد ، ومالبث ان صاح : « ماذا ؟ .. النجدة ! النجدة ! » .. ولم يتمالك أن راح يردد كلمة « مسمومة ! مسمومة ! » .. وهرعت « فيليسيتيه » الى « هوميه » الذى أعلن النبأ بصياحه فى الميدان ، حتى سمعته مدام « لوفرانسوا » فى « الفندق الذهبى » .. وقام البعض من أماكنهم ليحملوه الى جيرانهم ، وظلت القرية مستيقظة طيلة الليل ..

وكان « شارل » يطوف بالحجرة مخبولا ، مضطربا ، مترنحا .. يتخبط فى قطع الاثاث ، ويشد شعره .. وما كان الصيدلى ليصدق قط أن سيقدر له أن يرى مثل هذا المنظر الرهيب .. فعاد الى داره ليكتب الى السيد « كانيفيه » والى الدكتور « لاريفيير » .. وكان مشتت الفكر ، حتى انه كتب أكثر من خمس عشرة مسودة .. وذهب « هيبوليت » الى (نيوشاتل) ، وراح « جوستان » يلكز جواد «بوفارى» ، حتى تركه متقطع الأنفاس ، بل شبه ميت ، بجوار غابة (جيوم) .. وحاول « شارل » أن يستشير قاموسه الطبى ، ولكنه لم ير شيئا،

اذ كانت السطور تتراقص ٠٠ وقال الصيدلى : « اهدأ ٠٠ ليس أمامنا سوى أن تعطيها جرعة قوية مضادة للسم ٠٠ أى سم كان ؟ » ٠٠ فاراه « شارل » الخطاب ٠٠ كان زرنيخا ٠٠ وقال هوميه : «حسنا ٠٠ لابد من ان نجرى تحليلا»٠ فقد كان يعلم أن لابد من اجراء تحليل فى حالات التسمم ٠٠ وأجاب الآخر وهو لا يفقه شيئا : « آه ٠٠ فليكن ! ليكن ! انقذها ! ٠٠ »

ثم عاد اليها ، فتهالك على البساط ، وظل مستلقيا هناك مسندا راسه الى حافة السرير ، وهو يبكى ٠٠ فقالت له : « لا تبك ! ٠٠ لن اعود ازعجك عما قريب !»

ــ لماذا ؟ ٠٠ من الذى دفعك الى هذا ؟

فاجابت : « كان لا بد منه ياعزيزى »

ــ أفلم تكونى سعيدة ؟٠٠ أكان هذا ذنبى ؟٠٠ لقد بذلت كل مافى وسعى !

ــ أجل ، هذا صحيح ٠٠ انك طيب !

ومسحت بيدها على شعره ببطء ٠٠ وضاعفت عذوبة هذا الشعور من حزنه ٠٠ احس بكل كيانه يذوب فى القنوط اذ خطر له انه سيفقدها ولا بد ، فى الوقت الذى كشفت فيه عن حب له يفوق كل ما أبدت من قبل ٠٠ ولم يجد فى راسه فكرة ٠٠ كانما لم يكن يعرف شيئا ، أو يملك شيئا ٠٠ كانت الحاجة الماسة الى قرار عاجل ، ضربة قاضية أكملت اضطراب فكره ٠٠

وفكرت «ايما» فى نفسها : اذن فقدقضت على كل الخيانة ، والخسة ، والشهوات التى لا حصر لها ، والتى كانت تعذبها ٠٠ لم تعد تكره أحدا ٠٠ وبدأت تخيم على افكارها عتمة مضطربة ٠٠ ولم تعد « ايما » تميز من كل ضجيج الحياة شيئا سوى النحيب المتقطع المنبعث من ذلك المسكين الطيب ، والذى بدا لها كاصداء لحن يموت فى الفضاء ٠٠ فقالت وهى ترفع جسمها مستندة الى مرفقها : « أحضر لى بيرت ! » ٠٠ فسألها «شارل» :« انك لم تعودى مريضة ٠٠ أليس كذلك ؟ » فقالت : « لا ، لا !»

وجاءت الطفلة على ذراع الخادم ، وقدماها العاريتان تبرزان من تحت ذيل ثوب النوم الطويل ٠٠ واجمة المحيا ، ولا تزال شبه نائمة !٠٠ وتاملت الحجرة المرتبكة فى دهشة ، وطرفت اهدابها اذ بهرها ضوء الشموع التى كانت مشتعلة على المنضدة ٠٠ ولا بد ان هذا ذكرها بأيام راس السنة ، أو منتصف الصيام الكبير عندما كانت تستيقظ من نومها مبكرة على ضوء الشمعة ٠٠ وقد اعتادت اذ ذاك ان تسعى الى سرير أمها لتتلقى هداياها ٠٠ ومن ثم هتفت فجاة : « اين ماما اذن ؟ » ٠٠ واذ وجم الجميع ، قالت : « ولكنى لا ارى جوربى الصغير ! »٠٠ وحملتها « فيليسيتيه » الى السرير ، وهى لا تزال تنظر الى رف المدفأة،وتساءلت: « هل اخذته المرضعة ؟ »

وكانما أثار ذكر «المرضعة » فى نفس مدام « بوفارى » ذكرى فسـقها

ومصائبها ، فأشاحت وكانما غثيت نفسها بمفعول سم اقوى من ذاك الذى أخذته ٠٠ وكانت « بيرت » فى تلك الاثناء قد جلست على السرير ، فهتفت : « آه ! ٠٠ ما أكبر عينيك يا ماما !٠٠وما اشد اصفرارك !٠٠ياحرارتك ! » ونظرت اليهاأمها، فاذا بها تنكمش قائلة : « اننى خائفة ! » ٠٠ وتناولت « ايما » يد الصغيرة لتقبلها ، فتملصت ٠٠ وعندئذ صاح «شارل » الذى كان يبكى عند رأس السرير: « كفى !٠٠ انصرفوا بها !»

وما لبثت الأعراض أن توقفت قليلا ، وبدت « ايما » أقل تململا من ذى قبل ٠٠ وأخذت تبدو أهدأ حالا عند كل كلمة غير ذات قيمة ، أو كل نفس يتهدج به صدرها ، فعاود الأمل « شارل » ٠٠ وما ان وصل « كانيفيه » أخيرا، حتى ارتمى على صدره باكيا ، وهو يقول : « آه ! أهذا أنت ! شكرا ! ما أطيبك! على أن كل شيء يسير نحو التحسن ٠٠ الا انظر اليها ٠٠ » على أن الزميل لم ير رأيه ، ولم يشأ ـ كما عبر بنفسه ـ ان « يسير على غير هدى » ، بل وصف دواء مقيئا ، ليفرغ المعدة تماما ٠٠ وما عتمت أن أخذت تتقيأ دما ٠٠ واشتد التصاق شفتيها ، وراحت أطرافها تتلوى متشنجة ، وامتلأ جسمها كله ببقع سمراء ، وتوتر وريدها تحت أصابعها كخيط مشدود ، أو كوتر قيثارة يوشك أن ينقطع ٠٠ ثم شرعت فى صراخ منكر ٠٠ وراحت تلعن السم وتسبه ، ثم تتوسل اليه أن يعجل بقضائه ، وتدفع عنها بذراعين متصلبتين كل ماكان « شارل » يحاول أن يحملها على تناوله ، وهو أكثر منها توجعا وعذابا ٠٠ وكان يقف ، ضاغطا منديله الى شفتيه ، باكيا ، ينشج فى بكائه بدرجة تهز كل جسمه ، وقد تحشرج صوت أجش فى حلقه ٠٠ وكانت « فيليسيتيه » تجرى فى الغرفة ، هنا وهناك ٠٠ و « هوميه » لا يحير حراكا ، ويرسل زفرات ثقيلة ٠٠ وظل السيد «كانيفيه» متمالكا جاشه ، ثم بدأ يشعر بقلق ٠٠

ـ يا للشيطان ! ٠٠ لقد تقيأت كل ما فى بطنها ٠٠ ومن اللحظة التى يكف فيها السبب ٠٠

فأكمل « هوميه » : « يجب أن يكف المفعول ٠٠ هذا جلى »

وهتف بوفارى : « الا انقذوها ! »

وهم « كانيفيه » بأن يعطيها ترياقا ، غير منصت للصيدلى الذى كان لايزال يقترح افتراضات : « لعل الأزمة تشتد لتزول » ٠٠ واذا بهم يسمعون فرقعة سوط ، واهتزت كل النوافذ ٠٠ واقبلت من خلف السوق عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياد لطخت بالوحل حتى آذانها ٠٠ ووصل الدكتور « لا ريفيير » ٠٠ ولو أن الها تجلى ، لما أحدث مثل الأثر الذى حدث اذ ذاك ٠٠ رفع « بوفارى » يديه ، وأمسك « كانيفيه » عما كان يهم به ، وخلع « هوميه » قلنسوته الاغريقية قبل أن يصل الطبيب بفترة طويلة ٠٠

كان «لاريفيير» ينتمى الى المدرسة العظيمة للجراحة ، التى أخذت عن «بيشا» .. الى ذلك الجيل الذى لم يعد له وجود .. جيل الأطباء المتفلسفين ، الذين احبوا فنهم فى شغف متهوس ، ومارسوه فى تحمس وحكمة .. كان كل شخص فى مستشفاه يرتجف فرقا اذا غضب ، وكان تلاميذه يكبرونه الى درجة أنهم كانوا - بمجرد أن يشرعوا فى ممارسة مهنتهم - يحاولون أن يقلدوه ما وسعهم .. حتى أنهم كانوا يشاهدون - فى كل المدن - مرتدين ، على شاكلته ، معاطف طويلة من صوف « المارينوس » الخفيف ، مبطنة ، وسترات « فراك » سوداء ، تستطيل أكمامها ذات الأزرار حتى تمس الأكف .. وكانت يداه بديعتين ، لم تعرفا القفازات قط ، وكأنما كانت متاهبة دائما لتغوص فى الآلام .. وكان يزدرى الأوسمة ، والألقاب ، والدرجات العلمية ، كواحد من أولئك الفرسان الأطباء الذين كانوا يقفون حياتهم فى الماضى على تخفيف آلام الجرحى .. كما كان كريما ، يعطف كالأب على الفقراء ، ويفعل الخير دون ما رجاء .. حتى لقد كان من الممكن أن يعتبر قديسا ، لو لم يكن ارهاف روحه قد جعله مهيبا وكأنه طاغية ! .. وكانت نظراته أكثر نفاذا من مبضعه ، فهى تنفذ فى نفسك مباشرة الى الأعماق ، وتشرح كل أكذوبة تتوارى وراء المزاعم والأسرار التى يكتمها الحياء .. وهكذا مضى فى حياته ، مفعما بتلك الهناءة الجليلة التى تنبعث من الشعور بعظمة مواهبه ، وبمكانته ، وبحياة دامت أربعين عاما حافلة بالدأب والجد ، خالية من كل شائبة

وعبس بمجرد أن اجتاز الباب ، اذ رأى وجه « ايما » فى شحوب الموتى ، وهى مستلقية على ظهرها ، فاغرة الفم ، وبينما كان ينصت الى « كانيفيه » فى اصغاء ، راح يمر بسبابته تحت طاقتى أنفه ، مرددا : « هذا حسن .. حسن ! » على أنه هز كتفيه فى حركة بطيئة ، لمحها « بوفارى » .. ونظر كل منهما الى الآخر ، فاذا هذا الرجل - الذى ألف رؤية الألم - لا يملك أن يحبس دمعة سقطت على ياقة قميصه .. وحاول أن يصحب كانيفيه الى الغرفة المجاورة ، ولكن « شارل » تبعه قائلا : « انها جد مريضة ، أليست كذلك ؟ لو وضعت « لزقة خردل » ؟ .. أى شىء ! .. ألا فكر لها فى شىء ، فكم أنقذت من نفوس ! »

وطوقه « شارل » بذراعيه ، وراح يحملق فيه فى حيرة وتوسل ، حتى ليكاد يرتمى على صدره مغمى عليه ، فقال له الدكتور « لاريفيير » : « تجلد يا زميلى المسكين .. تشجع ! .. لم يعد هناك شىء فوق الذى عمل من قبل » .. وتحول ، فهتف شارل : « أمنصرف أنت ؟ » قال : « سأعود » .. وخرج ليلقى أمرا الى حوذيه ، ومعه السيد « كانيفيه » الذى لم يعد يحفل اذا ما ماتت « ايما » تحت يديه ! .. ولحق بهما الصيدلى فى الميدان ، فما كان بطبعه ليقوى على أن يكون بمنأى عن العظماء ! ومن ثم رجا السيد « لاريفيير » أن يوليه الشرف فيقبل

تناول الفطور على مائدته . وبادر فأرسل الى « الفندق الذهبى » فى طلب بعض الحمام ، والى القصاب فى طلب كل ماكان عنده من لحم افخاذ الضأن ، والى « توفاش » يطلب قشدة ، والى « ليستيبودوا » يطلب بيضا ، وتولى بنفسه المساهمة فى اعداد المائدة ، بينما كانت مدام « هوميه » تقول وهى تشد رباط سترتها : « آلا اعذرنا ياسيدى ، ففى بلدتنا التعسة ، اذا لم يخطر المرء فى الليلة السابقة ..»

وهمس « هوميه » : « أقداح النبيذ ! »

ـ لو اننا كنا فى المدينة ، لوجدنا على الاقل موردا لدى الباعة المتجولين

ـ اسكتى !.. الى المائدة يادكتور !

ورأى ـ بعد اللقمات الأولى ـ أن من المناسب أن يدلى ببعض تفصيلات الفاجعة .. فقال : « لقد ظننا فى البداية انه تصلب فى الحلق .. ثم آلام لا تطاق فى أعلى المعدة ، ثم قىء واسهال .. ثم غيبوبة .. »

ـ ولكن ، كيف سمحت نفسها ؟

ـ لست أدرى يادكتور .. بل اننى لا أعرف كيف استطاعت أن تحصل على حامض الأرسنيك (الزرنيخ)

★ ★ ★

◆ وكان « جوستان » قد اقبل اذ ذاك يحمل صفا من الاطباق ، فانتابته رعشة ، وقال له الصيدلى : « ماذا بك ؟ »..وترك الفتى ـ عند هذا السؤال ـ الأطباق تهوى الى الارض ، متهشمة فى ضجيج ، فصاح «هوميه» : «غبى ..! شرير !.. مغفل !.. حمار ! » .. ولكنه تمالك نفسه توا ، واستأنف حديثه الأول : « لقد أردت يا دكتور أن اجرى تحليلا ، فبدأت بايلاج أنبوبة .. » فقال الجراح : « كان من الأفضل أن تدك أصابعك فى الحلق » .. وكان زميله مخلدا الى الصمت ، اذ تلقى قبل ذلك ـ على حدة ـ درسا قاسيا عن دوائه المضاد للسم .. وبقدر ماكان « كانيفيه » مهتاجا ، لاذع النقد يوم جراحة قدم الأعرج ، بدا اليوم متواضعا للغاية ، وراح يبتسم دون انقطاع ، معلنا موافقته على طول الخط ..

واستغرق « هوميه » فى نشوة الشعور بانه صاحب الوليمة .. كما ساعدت صورة « بوفارى » المحزون على سروره ، بطريقة مبهمة .. بتأثير انانى ! .. وما لبث وجود «الدكتور» أن رده الى الواقع،وراح يعرض مدى علمه ، متحدثا ـ فى غير ما تناسق ـ عن الذباب الهندى ، والاشجار السامة ، والافاعى . ثم استطرد قائلا : « بل اننى قرات أن أشخاصا عديدين وجدوا انفسهم يعانون من أعراض التسمم ، وظهر للدهشة البالغة ، ان ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد التسمم .. وظهر ، للدهشة البالغة ، ان ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد

٠٠ لقد ورد هذا على الأقل فى تقرير جديد بديع ، وضعه واحد من اقطابنا فى الصيدلة ، واحد من أساتذتنا : « كاديه دو جاسيكور » المبرز ٠٠ »

وظهرت مدام « هوميه » مرة أخرى ، تحمل موقدا يشعل بالكحول الأحمر ، اذ كان « هوميه » يحب أن يعد قهوته على المائدة ، فيحمص البن ، ويصحنه ، ويمزجه بنفسه ٠ وقال مقدما السكر : « سكر يا دكتور ؟ » ٠٠وتعمدان ينطق اسم السكر باللاتينية !٠٠ ثم دعا كل ابنائه الى الهبوط ، تواقا الى ان يعرف رأى الطبيب فى تكوينهم البدنى ٠٠ واذ هم السـيد « لاريفيير » بالانصراف - اخيرا - طلبت مدام « هوميه » رايه فى حال زوجها ، اذ كان يحرص فى كل مساء على أن ينام بعد العشاء ، مما يجعل دمه كثيفا ٠٠ فقال الطبيب : « آه ! ٠٠ليس الكثيف هو دمه ! »٠٠وفتح الباب وهو يبتسم ابتسامة خفيفة للنكتة التى لم ينتبه اليها احد ٠ على أن حانوت الصيدلى كان قد ازدحم بالناس ٠٠ وعانى كثيرا حتى تخلص من السيد « توفاش » الذى كان يخشى أن تصاب زوجته بالتهاب الرئتين ، اذ اعتادت أن تقعد على رماد نيران المدفاة ٠٠ ثم من السـيد « بينيه » الذى يشعر احيانا بنوبات جوع شديد ٠٠ ومن مدام « كارون » التى شكت من التهاب فى الجلد ، و « لوريه » المصاب بالدوار ، و «ليستيبودوا» الذى يعانى من روماتيزم ، ومدام « لوفرانسوا » التى شكت من حموضة فى المعدة ٠٠ واخيرا ، انطلقت الجياد الثلاثة تجر «لاريفيير» ، واجمع القوم بعد رحيله على أنه لم يكن لطيفا !

واسترعى انتباه الجمع ظهور الأب « بورنيسيان » الذى كان يجتاز الميدان حاملا الزيت المقدس ٠٠ وشبه « هوميه » القساوسة - وفقا لمبادئه - بالصقور التى تجتذبها رائحة الموت ٠٠ كان منظر اى واحد من رجال الدين من الأمور التى لا تروقه ، اذ كان المسوح يذكره بالكفن ، وكان يكره الواحد منهما خشية ان يجلب له الآخر ! ٠٠ ومع ذلك ، فانه لم يحجم عما اسماه « رسالته » ، فعاد الى دار « بوفارى » بصحبة « كانيفيه » الذى عنى السـيد « لاريفيير » - قبل رحيله - بحثه على أداء هذه الزيارة ٠٠ولولا معارضة زوجته، لاصطحب « هوميه » ولديه الصغيرين ، ليالفا المناسبات الكبيرة ، وحتى يكون هذا لهمـا درسا ٠٠ مثالا ٠٠ صورة لحدث يبقى فى ذهنهما طويلا !

وكانت الغرفة - حين ولجاها - مفعمة بوجوم حزين ٠ وعلى نضد التطـريز - الذى غطى بمفرش أبيض - كانت ثمة خمس او ست كرات صغيرة من القطن ، فى طبق فضى ، على مقربة من صليب كبير بين شمعتين موقدتين ٠٠ وكانت ذقن « ايما » ملصقة بصدرها ، وعيناها مفتوحتين فى اتسـاع غير عادى ، ويداها الكليلتان تتحركان على الأغطية تلك الحركات الرهيبة ، الخفيفة ، التى تصدر عن المحتضرين ، وكانهم يودون ان يعجلوا بسحب الأكفان على اجسـادهم ٠٠

وكانت فى شحوب التمثال ، وعيناها فى حمرة اللهب •• ووقف « شارل » عند مؤخرة السرير ، فى مواجهتها ، وقد كف عن البكاء ، بينما ركع القس على ركبة واحدة ، واخذ يتمتم بكلمات خافتة ••

★ ★ ★

◆ وأدارت وجهها فى بطء ، وبدا أن فرحا تولاها حين رأت فجاة الجلباب الكهنوتى (البطرشيل) البنفسجى ، اذ وجدت من جديد ولا شك ـ فى غمرة السكينة غير العادية التى غشيتها ـ البهجة التى افتقدتها ، والتى تولدت من نزواتها التصوفية الروحية الاولى •• مع رؤى التطويب الأبدى الذى ابتدأ •• فقد نهض القس ليتناول الصليب ، واذ ذاك ، اشرأبت بعنقها كشخص برح به العطش •• والصقت شفتيها بتمثال المسيح ـ على الصليب ـ وبكل قواها المضمحلة ، طبعت أعظم قبلة غرامية صدرت عنها فى حياتها • ثم اخذ القس يتلو مزمور الرحمة ، وغمس ابهام يده اليمنى فى الزيت ، وشرع يقوم بعمليات الدهان •• فبدأ بالمسح على العينين اللتين غرب عنهما كل زهو دنيوى •• ثم على طاقتى الأنف ، اللتين كانتا تنشقان فى نهم النسائم الحارة ، وأريج الهوى •• ثم على الفم الذى كان ينطق بالاكاذيب ، والذى كان يقلب شفتيه فى غرور ، ويصرخ فى شبق •• ثم على اليدين اللتين كانتا تستمتعان باللمسات الشهوانية •• ثم ـ أخيرا ـ على باطنى القدمين اللتين كانتا فيما مضى سريعتين اذا ما هرعتا لارضاء شهواتها ، واللتين لم تعودا تسيران ••

ومسح القس اصابعه ، ثم ألقى بقطعة القطن المبللة بالزيت الى النار ، وتحول فجلس الى جوار المرأة المحتضرة ، ليوصيها بان تخلط آلامها بآلام يسوع المسيح ، وان تسلم نفسها الى رحمة الرب •• واذ فرغ من وصاياه ، ومواعظه، حاول أن يضع فى يدها شمعة مباركة ، رمزا الى المجد السماوى الذى لن تلبث ان تحاط به •• ولكن « ايما » فى ضعفها البالغ ، لم تستطع ان تطبق اصابعها ، فكادت الشمعة ان تقع على الأرض لولا أن تداركها الأب « بورنيسيان » •• على أنها لم تعد شديدة الشحوب ، واكتسى وجهها بسكينة مطمئنة ، وكان المسح بالزيت قد شفاها •• ولم يغفل القس ان يشير الى ذلك، بل انه راح يذكر لبوفارى أن الرب احيانا يطيل أعمار الأشخاص اذا راى ذلك ملائما لخلاصهم••وتذكر « شارل » اليوم الذى تناولت فيه القربان المقدس حين كانت قد اوشكت على الموت ، فعلل نفسه قائلا : « لا داعى للياس » ••

والواقع ان « ايما » اخذت تجول ببصرها فيما حولها ببطء ، كمن يستيقظ من حلم ، ثم طلبت بصوت واضح مرآتها ، فظلت برهة منحنية عليها ، الى أن تساقطت من عينيها دموع غزيرة ، فتحولت عنها ، متنهدة ، وتهالكت على

الوسائد • وسرعان ما أخذ صدرها يتهدج بسرعة ، وبرز لسانها بأكمله من فمها ، وراحت عيناها تزدادان شحوبا ، وهما تجولان فى محجريهما ، كلهب مصباح يحتضر ، حتى لقد كان يخيل للمرء أنها ماتت ، لولا الحركة العنيفة التى انتابت ضلوعها بتأثير تنفسها الشاق المتعسر •• كأنما كانت الروح تناضل كى تتحرر ••

وركعت « فيليسيتيه » أمام الصليب ، وتطلع السيد « كانيفيه » بنظرات شاردة الى الميدان ، وشرع « بورنيسيان » فى الصلاة من جديد ، وقد انحنى وجهه على السرير ، وانتشر مسوحه الاسود خلفه فى الحجرة •• وكان «شارل» جاثيا فى الجانب الآخر من السرير ، باسطا ذراعيه نحو « ايما » ، وقد تناول يديها وأخذ يضغطهما ، مرتجفا لكل خفقة من قلبها ، وكأنه يرتعش لخراب منقض •• واذ اشتدت حشرجة الموت ، ازداد اسراع القس فى صلاته •• وأخذت دعواته تمتزج بشهقات « بوفارى » المكتومة • وكان كل شىء يغيب أحيانا فى التمتمة المختنقة بالمقاطع اللاتينية التى بدت كأصداء متلاشية لجرس •• وفجأة، سمعت على رصيف الشارع جلبة نعلين خشبيين ، ودقات عصا • وانبعث صوت •• صوت مبحوح يغنى : « العذارى فى قيظ أيام الصيف يحلمن بالحب •• والحب دائما » •• ورفعت « ايما » جسمها وكأنها جثة سرت فيها نسمة عابرة من الحياة ، وقد تهدل شعرها ، وجمدت عيناها محملقتين •• بينما واصل صوت المغنى الذى يتسكع فى الشارع غناءه المبحوح : « لكى تجمع سريعا •• السنابل التى حصدها المنجل •• سارت حبيبتى نانيت ، منحنية نحو الأرض التى منحتنا اياها » •• وصاحت « ايما » : « الأعمى ! » •• ثم انطلقت فى ضحكات نابية ، متهوسة ، قانطة •• وهى تتمثل الوجه البشع الذى أوتيه ذلك التعس المسكين ، وقد انتصب فى الظلمات الأبدية كنذير بالشؤم •• بينما كان الرجل ماضيا فى أغنيته : « كانت الريح تهب قوية فى ذلك اليوم •• فطارت « الجونلة » القصيرة ! » •• وتهالكت « ايما » على الفراش •• واختلج جسمها •• واقتربوا جميعا منها •• ولكنها كانت قد فارقت الحياة !

الفصل التاسع

◆ يعقب وفاة أى امرىء ـ عادة ـ نوع من الذهول ، يتعذر معه ادراك هذا العدم الوافد ، وحمل النفس على تصديقه •• على أن « شارل » لم يكد يتبين أن « ايما » لم تعد تتحرك ، حتى ألقى بنفسه عليها صائحا : « وداعا ! استودعك الله ! » •• وجره « هوميه » و « كانيفيه » الى خارج الغرفة قائلين : « تجلد ! » •• فقال : « نعم ، ساكون هادئا ، ولن أفعل شيئا •• ألا اتركانى ! •• أريد أن أراها ! •• انها زوجتى ! » • وأخذ يبكى ، فقال الصيدلى : « ابك •• دع

نفسك على فطرتها ، فان هذا يسرى عنك ! » ٠٠ وتركهما يقودانه الى قاعة الجلوس وقد غدا اضعف من طفل ٠ وما لبث السيد « هوميه » أن انصرف ٠ والتقى فى الميدان بالأعمى الذى تلمس طريقه الى (ايونفيل) املا فى الحصول على البلسم الذى يقضى على الالتهاب ، وراح يسأل كل مار عن مسكن الصيدلى، فقال هذا له : « ألا اغرب الآن ! ٠٠ كأننى لا اجد مشاغل سواك ! ٠٠ الا دعنى الآن ، وعد فيما بعد ! » ٠٠ ثم ولج الصيدلية على عجل ٠ كان عليه أن يكتب رسالتين ، وأن يعد جرعة مهدئة لبوفارى ، وأن ينسج أكذوبة للتستر على التسمم ، ويصوغ النبأ فى مقال لصحيفة « الفانال » ، غير حافل بالأشخاص الذين كانوا فى انتظاره ليتلقوا منه النبأ ٠ وعندما استوثق من أن اهل (ايونفيل) جميعا سمعوا قصته عن الزرنيخ الذى ظنته «ايما» سكرا ، وهى تصنع « كريمة بالفانيليا » ، عاد مرة أخرى الى « بوفارى » ٠٠ فالفاه وحيدا ـ اذ كان السيد كانيفيه قد انصرف ـ جالسا فى مقعد مريح الى جوار النافذة ، محملقا بذهول فى بلاط الحجرة ٠٠ فقال الصيدلى : « يجب أن تحدد الآن ، وبنفسك ، موعد الطقوس » ٠٠ فتساءل : « ماذا ؟ ٠٠ اية طقوس ؟ » ، ثم استدرك فى لهجة متلعثمة ، جزعة : « اواه ! لا ! ٠٠ ليس هذا ٠٠ لا ! ٠٠ اننى أحب أن اراها هنا » ٠٠

ولكى يتمالك « هوميه » نفسه ، تناول ابريقا من الرف ليروى زهور « الجيرانيوم » ، فقال « شارل » : « آه ! شكرا ٠٠ ما اطيبك ! » ٠٠ ولكنه لم يقو على اتمام عبارته ، اذ اختنق صوته تحت فيض الذكريات التى احياها فى ذهنه تصرف الصيدلى ٠٠ واذ ذاك رأى «هوميه» ـ ليشغله عن هذه الذكريات ـ ان يتحدث قليلا عن فلاحة البساتين ، فانواع النبات تحتاج الى بعض الرطوبة ٠٠

ونكس « شارل » رأسه فى موافقة صامتة ٠٠ وما لبث الصيدلى أن قال : « ان الايام البديعة لن تلبث أن تأتى ! » ٠٠ فقـال « بوفارى » : « آه ! » ٠٠ واذ نصب معين الصيدلى ، عمد الى ازاحة الستائر الصغيرة فى لطف عن الواح الزجاج ، ثم قال : « ها هو ذا السيد توفاش فى الطريق » ، فردد « شارل » كالآلة : « السيد توفاش فى الطريق » ٠٠

ولم يجرؤ « هوميه » على أن يحدثه ثانية عن اجراءات الجنازة ٠٠ وكان رجل الدين هو الذى هيأه لتقبلها ، فاحتبس نفسه فى غرفة العيادة ، وتناول ريشة الكتابة ، وبعد أن بكى فترة ، كتب : « ارغب فى ان تدفن فى ثوب عرسها ، وحذاءين أبيضين ، وطاقة ورد ٠٠ وأن ينشر شعرها على كتفيها ٠٠ وفى ثلاثة توابيت : أحدها من خشب البلوط ، والثانى من المهوجنى ، والثالث من القصدير ٠٠ ولا يقولن احد لى شيئا ، فلن البث ان استرد قواى ٠٠ ولتوضع – قبل كل شىء – على قطعة كبيرة من المخمل الأخضر ٠٠ هذه رغبتى ، فلتنفذ ! »

وذهل السيدان للأفكار الشاعرية التى أبداها « بوفارى » ، فبادر الصيدلى اليه قائلا : « يبدو لى أن المخمل زيادة لا داعى لها ٠٠ ثم أن النفقات ٠٠ » فصاح « شارل » : « وهل يعنيك هذا ؟ ٠٠ دعنى ! ٠٠ انك لم تكن تحبها ٠٠ أخرج ! » ٠ وتأبط القس ذراع شارل وخرج به الى الحديقة يتمشيان ٠ وراح يحدثه عما فى المظاهر الدنيوية من لغو باطل ، وعن ان الله كبير ، ورحيم ، فخليق بالانسان أن يتقبل قضاءه دون ما تذمر ، لا بل بالشكر والحمد ٠٠ فانفجر « شارل » مجدفا : « انى أكره الهك ! » ٠٠ وتنهد رجل الدين قائلا : « لا تزال روح التمرد مسيطرة عليك ! » ٠٠ وكان « بوفارى » قد ابتعد ، وراح يسير بخطى واسعة ، فى محاذاة الجدار ، على مقربة من الخميلة ، وهو يصر على اسنانه ، ويرفع بصره الى السماء بنظرات ساخطة ، ولكنها لم تحرك ورقة واحدة فى شجرة ! ٠٠ وتساقط المطر رذاذا ، فلم يلبث « شارل » – الذى كان عارى الصدر – ان اخذ يرتجف ، ودخل الدار ، فجلس فى المطبخ ٠٠ حتى اذا كانت الساعة السادسة ، سمعت ضوضاء ، كقطع من حديد تصطك ٠٠ كانت « العصفورة » عائدة ٠٠ وظل واقفا امام زجاج النافذة ، يشهد نزول الركاب واحدا بعد آخر ، ثم فرشت له « فيليسيتيه » حشية فى قاعة الجلوس ، فارتمى عليها ، ونام ٠٠

★ ★ ★

◆ كان « هوميه » يحترم الموتى ، رغم فلسفته ، ومن ثم لم يحقد على « شارل » ، بل عاد ثانية فى المساء ، ليسهر الى جوار الجثة ، حاملا معه ثلاثة

كتب ، ومفكرة ليدون فيها ما يعن له . وكان الأب « بورنيسيان » هناك ، وقد اقام عند راس السرير شمعتين كبيرتين موقدتين ، استجلبتا من مخزن الدار . ولم يلبث الصيدلى - الذى لم يكن ليحتمل الصمت - أن شرع يصـــوغ بعض عبارات الرثاء لتلك « الشابة المنكودة » ، فاجاب القس بانه لم يبق ما يفعل من اجلها سوى الصلاة ! .. فقال « هوميه » : « أحد امرين : اما انها ماتت وهى مستمتعة بالعفو الربانى - كما تقول الكنيسة - وفى هذه الحال لا حاجة بهــا الى صلواتنا .. واما انها رحلت حاملة خطاياها - واظن ان هذا ايضــا هو التعبير الدينى - وفى هذه الحال .. » فقاطعه « بورنيسيان » قائلا فى جفاء أن هذا لا يحول البتة دون الصلاة .. ومضى الصيدلى فى معارضته : « ولكن ، ما دام الله يعلم كل حاجاتنا ، فما جدوى الصلاة والدعاء ؟ » فصاح رجل الدين: « كيف ! .. الصلاة ! .. او لست اذن مسيحيا ؟ »

قال هوميه : « عفوا ! .. اننى أكبر المسيحية ، فهى اولا قد حررت الرقيق، وادخلت على الدنيا قانونا خلقيا .. »

- ليس هذا موضوع النقاش .. كل الكتب الدينية ..

- آه ! .. آه ! .. اما عن كتب الدين ، فارجع الى التاريخ .. من المعروف انها زيفت على ايدى الجزويت ..

ودخل « شارل » ، فتقدم صوب السرير ، وازاح الستائر فى بطء .. كان راس « ايما » مائلا صوب كتفها اليمنى ، وقد بدا ركن فمهــــا - الذى كان مفتوحا - كثغرة سوداء فى القسم السفلى من وجهها..وكانت اصبعاها السبابتان مطويتين فى راحتيها ، وقد تناثر على اهدابها شىء من غبـــار ابيض ، وبدات عيناها تغيبان فى تلك الطبقة الشاحبة اللزجة المائعة التى رانت عليهما ، وكانها نسيج العنكبوت .. وكان الغطاء ينخسف فيما بين صدرها وركبتيها ، ثم يعلو فوق اصابع قدميها .. وخيل لشارل أن كتلا لا نهاية لها .. ان حملا ثقيــلا كان يجثم عليها ..

ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثانية .. وكان بوسعهم أن يسمعوا خرير النهر المنساب فى الظلام ، عند اقصى الحديقة .. واخــذ الأب « بورنيسيان » يمخط بين آن وآخر ، بصوت مسموع .. وصرير قلم « هوميه » على الورق ينبعث .. وقال اخيرا : « هيا يا صديقى الطيب ! .. انصرف فان هــذا المنظر يفتت كبدك ! » . وما ان انصرف « شارل » ، حتى استانف الصيدلى والقس نقاشهما .. قال احدهما : « اقرا فولتير .. اقرا دولباش .. اقرا دائرة المعارف ! » ، فقال الآخر : « بل اقرا « رسائل بعض اليهود البرتغاليين » .. اقرا « معانى المسيحية » بقلم نيكولا .. المامور القضائى السابق » .. واشتد الجدل حرارة واحتداما ، واخــذا يتكلمان معا ، دون ان ينصت احــدهما للآخر .. وكان

« بورنيسيان » يستنكر هذه الجراة ‥ و « هوميه » فى دهشة من هذا الغباء ‥ واوشكا أن يسب كل منهما الآخر ، واذا بشارل يظهر فجاة ، كانما كان ثمة سحر يجتذبه ‥ فكان كلما غادر المخدع لا يلبث أن يعود اليه ‥

★ ★ ★

◆ وقف « شارل » فى الطرف المقابل لها ، ليراها بجلاء ‥ واستغرق فى أفكار نسى فى عمقها الألم ‥ تذكر قصص داء التصلب ، ومعجزات الاستهواء المغناطيسى ، فخيل اليه أنه ربما وفق الى احيائها من جديد ، لو انه ركز كل قواه فى هذه الرغبة ‥ بل لقد انحنى مرة نحوها ، وناداها بصوت خافت : « ايما ! ايما ! » ‥ وكانت انفاسه القوية تدفع لهب الشمعتين نحو الحائط ‥

ووصلت مدام « بوفارى » الأم مع مطلع النهار ، وما أن احتضنها « شارل » حتى انفجر بسيل جديد من الدموع ‥ وحاولت ـ كما حاول الصيدلى من قبل ـ أن تعلق على نفقات الجنازة ، فاذا به يغضب الى درجة جعلتها تصمت‥ بل انه أوفدها الى المدينة فورا لتبتاع ما كان لازما ‥ وبقى وحيدا طيلة عصر ذلك اليوم ، اذ كانت « بيرت » قد حملت الى دار « هوميه » ، بينما لاذت «فيليسيتيه» ـ مع الأم «لوفرانسوا» ـ بالحجرة التى فى الطابق العلوى ‥ وفى المساء ، وفد اليه بعض الزوار ، فنهض وصافحهم وهو عاجز عن الكلام . ثم جلسوا متقاربين ، مؤلفين نصف دائرة أمام المدفاة ، بوجوه منكسة ، وقد راح كل منهم يؤرجح احدى ساقيه على ركبة الساق الأخرى ، وهو يرسل الزفرات الحرى على فترات ‥ كان كل منهم يشعر بسام غير معهود ، ومع ذلك فلم يشأ أى منهم أن يكون الأول فى الانصراف ‥

وعندما عاد « هوميه » فى الساعة التاسعة ـ ولم يكن يشاهد سواه فى الميدان منذ يومين ـ كان مثقلا بكميات من الكافور ، والبنزين ، والاعشاب العطرية ‥ كما كان يحمل جرة مليئة بماء الكلور ، للتخلص من اية رائحة عفنة ‥ وكانت الخادم ، ومدام « لوفرانسوا » ، والأم « بوفارى » يتحركن حول « ايما » وهن يلبسنها آخر ثيابها ‥ ثم نشرن عليها خمارا من قماش متيبس ، غطاها من راسها حتى آخر حذاءيها الحريريين ‥ وكانت « فيليسيتية » تردد منهنهة : « أواه ، يا سيدتى المسكينة ! يا سيدتى المسكينة ! » ‥ فتنهدت ربة الفندق قائلة : « ألا انظرا اليها ‥ انها لا تزال جميلة !‥ من ذا الذى لا يقسم على أنها لن تلبث أن تهب ناهضة بعد دقيقة ! » ‥ ثم انحنين عليها ليضعن اكليل الزهور ‥ واضطررن الى أن يرفعن راسها قليلا ، واذا بسائل اسود ينساب من فمها ، وكانها تتقيا ‥ وصاحت مدام «لوفرانسوا» : « آه ! يا الهى !‥ حذار أن يتسخ الثوب ! » ‥ وقالت للصيدلى : « تعال لتساعدنا !‥ أم تراك

خائفا ؟ » •• فهز كتفيه قائلا : « أنا أخاف ؟ •• آه ! •• صحيح !؟ •• لقد شهدت الكثير فى المستشفى حين كنت ادرس الصيدلة ! •• لقد كنا نصنع شرابا مسكرا فى قاعة التشريح •• ان العدم لا يخيف فيلسوفا •• بل اننى - كما اعتدت أن اقول - أعتزم أن أوصى بجثتى للمستشفيات ، لتكون - فيما بعد - فى خدمة العلم ! »

واذ وصل القس سأل عن صحة السيد ، وما أن أجابه الصيدلى حتى قال : « لعلك تدرك أن الصدمة لا تزال قريبة العهد » •• اذ ذاك غبطه الصيدلى على انه ليس معرضا كسواه لفقد شريكة الحياة الحبيبة ، وتبع ذلك نقاش حول عزوبة القساوسة •• فقال الصيدلى : « الواقع أن من المجافاة للطبيعة أن يعيش القس بدون امرأة ! كم من جرائم •• » فصاح رجل الدين: «ولكن، كيف بالله تتوقع من قس متزوج أن يصون أسرار الاعتراف مثلا ؟ » •• فهاجم « هومبه » الاعتراف ، وانبرى « بورنيسيان » للدفاع عنه ، متوسعا فى سرد آثار الاصلاح والارشاد التى تترتب على الاعتراف •• وذكر قصصا مختلفة عن لصوص انقلبوا فجأة رجالا أمناء •• وعن رجال عسكريين انقلبت القيم والمقاييس فى نظرهم منذ مثلوا أمام محكمة التوبة •• « ففى (فريبور) مثلا ، كان ثمة وزير »••وتبين القس فجأة أن زميله قد نام •• ثم لم يلبث ان احس انه يوشك ان يختنق فى جو الحجرة الراكد ، ففتح النافذة ، واذ ذاك استيقظ الصيدلى فقال له : « اليك قبضة من السعوط •• خذها فانها تنعشك » !•• وسمع نباح متواصل عن بعد ، فقال الصيدلى : « أتسمع كلبا يعوى ؟ » •• فقال القس : «يقال ان الكلاب تشم رائحة الموتى •• انها كالنحل تترك خلاياها عند وفاة الأشخاص » ••

★ ★ ★

◆ لم يعلق « هومبه » على هذه الترهات ، اذ كان قد عاد للنعاس •• أما السيد «بورنيسيان » فكان أقوى منه احتمالا ، ومن ثم ظل بعض الوقت يحرك شفتيه فى تمتمة خفيفة ، وما لبث - دون ما شعور منه - أن خفض ذقنه ، وافلت كتابه الأسود الضخم ، وشرع يغط •• وكانا يجلسان متقابلين ، وقد برز بطناهما ، وانتفخ وجهاهما ، وعبست أساريرهما ، وقد وحد بينهما - بعد كل هذه الخلافات - نوع واحد من أنواع الضعف البشرى ، ولم يعودا يتحركان ، تماما كالجثة التى كانت الى جوارهما ، والتى لاحت هى الاخرى نائمة •• ولم يوقظهما دخول « شارل » •• وكانت هذه آخر مرة ، فاقبل يودعها •• وكانت الأعشاب العطرية لاتزال تحترق ، ودخانها المائل الى الزرقة ، والمتصاعد فى خيوط حلزونية ، يمتزج عند حافة النافذة بالضباب الوافد •• وكانت ثمة نجوم قلائل •• والليل لطيف الجو •• والشمع الذائب يسيل من الشمعتين متساقطا على أغطية الفراش فى قطرات كبيرة •• وتأملهما « شارل » وهما تحترقان ،

حتى غشى بصره لطول تحديقه فى لهبهما الأصفر ..

وكانت تموجات الثوب الحريرى تلمع بيضاء كضوء القمر ، وقد اختفت «ايما» تحت وميضها ، فلاح له انها اذ تحــررت من كيانها ، قــد امتزجت بكل شىء حولها .. بالسكون ، وبالليل ، وبالهواء العابر ، وبعبير الرطوبة المتصاعدة من الأرض .. ثم راح يتمثلها بغتة فى حديقة دارهما فى (توست) ، على مقعـد خلف السياج الشوكى .. أو فى (روان) ، فى الطرقات ، أو على عتبة دارهما فى الفناء فى (برتو) .. وخيل اليه انه يسـمع ضحكات الأولاد السـعداء يرقصون تحت أشجار التفاح فرحين ، وقد امتلأت الغرفة باريج شعرها ، واحتك ثوبها بذراعيه فى حفيف بعث فى كيانه مسا كهربائيا (كما حـدث ليلة الزفاف) .. انه عين الثوب الذى ترتديه الآن ! .. وهكذا ظل فترة طـويلة يستعرض افراحه الضائعة ، وتصرفاتها ، وحركاتها ، وجرس صوتها .. وكل أسى يعقبه آخر ، متتابعة ، لا تكف ولا تهن ، كانها امواج بحر مزبد .. وتولته رغبة قاسية ، فرفع الوشاح فى بطء ، باطراف اصابعه ، وهو يلهث .. ولكنه سرعان ما اطلق صرخة ايقظت الآخرين .. وجرى الى قاعة الجلوس .. وسرعان ما جاءت « فيليسيتيه » تقول انه يريد بعضا من شعرها .. فقال لها الصيدلى : « قصى بعضه ! »

ولما لم تجرؤ ، تقدم بنفسه والمقص فى يده .. وكان يرتجف حتى انه شق جلد الجبهة فى عدة اماكن .. واخيرا ، قاوم « هـــوميه » مشاعره ، واقتطـع خصلتين أو ثلاثا على غير هدى ، فتركت رقعا بيضاء خلال هـــذا الشعر الفاحم الجميل ..

★ ★ ★

◆ وعاد الصيدلى والقس يستغرقان فى حوارهما ، وان لم يحل هذا دون أن ينعسا بين آن وآخر ، وكل منهما يتهم الآخر بالنعاس كلما استيقظ هو ، على التوالى ! .. ثم نثر السيد « بورنيسيان » الماء المقــدس فى الحجــرة ، فنثر « هوميه » بعضا من ماء الكلور على الأرض ! .. وكانت «فيليسيتيه » قد عنيت بأن تضع لكل منهما على صوان الملابس الداخلية زجاجة « براندى » ، وبعض الجبن ، ورغيفا كبيرا ، فتنهد الصيدلى - الذى لم يعد يحتمل الجوع - فى حوالى الساعة الرابعة من الصباح ، وقال : « لعمرى ! اننى لأسر بتناول (تصبيرة) » .. ولم يحتج القس الى الحاح . ولكنه خرج لصلاة الصباح ، ثم عاد . واذ ذاك أكلا ، وشربا ، وهما يضحكان قليلا ، دون أن يدريا لذلك سببا ، وانما حملتهما على الضحك تلك الغبطة المبهمة التى تتولانا بعد فترات الحزن .. وعند الكاس الأخيرة ، قال القس للصيدلى وهو يضربه على كتفــه : « لســوف ننتهى الى تفاهم ! »

وفى ردهة الطابق السفلى ، التقيا باعوان ناقل الموتى ، الذين وصلوا اذ ذاك. وما لبث شارل ان قضى ساعتين يعانى العذاب وهو يسمع المطرقة تدق الخشب. وفى النهار الذى تلا ذلك ، وضعوا الجثة فى التابوت البلوطى ، الـذى هيىء ليوضع فى التابوتين الآخرين . واذ كان التابوت الخـارجى واسعا ، فقـد اضطروا الى ان يملأوا الفراغ بصوف من حشو احدى الحشيات .. واذ سحجت الأغطية الثلاث بالمسحاج (الفارة) ، ووضعت فوق التـوابيت ، وثبتت بالمسامير ، ولحمت بالقصدير ، حملت التوابيت الى خارج الغرفة .. ثم فتح البيت ، فبدأ اهل (ايونفيل) يتدفقون ..

وما لبث الأب « روو » ـ والد « ايما » ـ ان وصل .. فاغمى عليه فى الميدان حين راى اشارة الحداد السوداء

الفصل العاشر

◆ لم يكن قد تسلم رسالة الصيدلى الا بعد انقضاء ست وثلاثين ساعة على الوفاة .. وكان السيد « هوميه » ـ ترفقا بمشاعره ـ قد صاغها بحيث يتعذر عليه ان يدرك حقيقة الأمر .. ومع ذلك ، فان الشيخ المسن وقع فى بداية الأمر ، وكانما اصيب بالسكتة القلبية .. وعندما قرأ الرسالة ثانية ، فهم ان ابنته لم تمت ، ولكنها ربما كانت موشكة .. واخيرا ، اسـتطاع ان يرتدى قميصه ، وان يتناول قبعته ، ويثبت المهمازين الى حذائيه ، ثم انطلق على جواده فى اقصى سرعة . وكان الأب « روو » طيلة الطريق نهبة للهواجس ، يلهث ، بل لقد اضطر مرة الى ان يترجل اذ غشيه دوار ، وخيل اليه انه يسمع أصواتا حوله ، فخشى ان يكون موشكا على الاختبال

واذ طلع النهار ، رأى ثلاث دجاجات سوداء نائمة فوق احدى الاشجار ، فارتجف منزعجا من هذا النذير المشئوم • ثم نذر للعذراء المباركة ثلاث حلل من ثياب الكهنة للكنيسة ، وان يسير حافيا من مقبرة (برتو) الى كنيسة (فاسونفيل) •• واذ دخل قرية (ماروم) راح يصيح فى أهل فندقها ، ودفع الباب بكتفه فانفتح ، ثم انقض على كيس من الشوفان لجواده ، وافرغ له زجاجة من شراب التفاح الحلو فى المذود • وما لبث أن عاد يمتطى الحصان الذى أخذ الشرر يتطاير تحت سنابكه • وراح يعلل نفسه بانهم ولابد سينقذون ابنته ، وان الاطباء سيهتدون الى دائها بالتأكيد •• وتذكر كل المعجزات العلاجية التى كانت تحكى له •• ثم تمثلها أمامه ميتة••كانت موجودة،تحت عينيه، مستلقية على ظهرها فى عرض الطريق ، فشد عنان جواده •• واذا الطيف يختفى !

واحتسى فى (كينكامبوا) ثلاثة اقداح من القهوة تباعا ، كى يشدد عزمه •• وصور له الوهم أنهم أخطأوا فى الاسم الذى كتبوه ، فبحث عن الرسالة فى جيبه ، وتحسسها ، ولكنه لم يجرؤ على فتحها •• واخذ يفكر ـ اخيرا ـ فى ان الامر كله مزاح •• وسيلة من شخص ما للانتقام •• او دعابة من سمج •• ولو انها كانت قد ماتت ، لعرف •• ولكن ، لا ! •• لم يكن فى الريف شيء غير عادى •• فالسماء زرقاء ، والاشجار تتمايل •• ومر بقطيع من الغنم •• ثم لمح البلدة •• وشوهد مقبلا وقد انحنى على جواده ، يكيل له الضربات بعصاه ، والدم يقطر من سيور ركابه ••

★ ★ ★

◆ واذ عاد الى وعيه ، سقط بين ذراعى « بوفارى » باكيا ، وهو يردد : «يا ابنتى!•• ايما !••ياطفلتى!••ارو لى ما حدث••» ،فاجابه الآخرمنهنها بالبكاء: «لست ادرى! لست أدرى!••انها نقمة ! » ••وفرق بينهما الصيدلى قائلا : «هذه التفصيلات المؤلمة لا تجدى • سأطلع السيد على كل شيء •• اما الآن ، فها هم أولاء القوم مقبلون •• شيئا من الوقار ! •• هيا ! •• شيئا من الفلسفة ! » •• فحاول « شارل » المسكين أن يتجلد ، وراح يكرر مرارا : « أجل ! •• الجلد ! •• الشجاعة ! » •• اما الشيخ فصاح : « آه ! •• سأتجلد !•• سأرافقها حتى النهاية ! »

وبدا جرس الكنيسة يدوى •• وتأهب الجميع، اذ آن لهم ان يشيعوها ••وفى الكنيسة ، جلسوا جنبا الى جنب فى احدى المقصورات •• ورأوا المرتلين الثلاثة ـ الذين اخذوا يرددون المزامير ـ يمرون امامهم جيئة وذهابا باستمرار ، وراح الارغن يرسل انغامه باقصى قوته •• وكان الأب « بورنيسيان » فى كامل زيه يرتل بصوت حاد ، ويحيى بيت القربان المقدس ، ويرفع يديه ، ويبسط

ذراعيه . وراح « ليستيبودوا » يطوف بالكنيسة حاملا عصاه المصنوعة من عظام الحوت . وكان التابوت قد وضع على مقربة من منبر قراءة الكتاب المقدس ، بين أربعة صفوف من الشموع .. واحس «شارل» برغبة تحفزه على أن ينهض فيطفئها . وحاول ان يشغل نفسه فى تلك الاثناء ، باذكاء الشعور بالتقوى فى نفسه ، وان يستغرق فى الأمل فى حياة مقبلة يجتمع فيها بايما ثانية .. واخذ يصور لنفسه انها سافرت فى رحلة طويلة ، بعيدة ، لأمد طويل .. ولكنه كان اذا ما تذكر انها موجودة هناك ، وان كل شيء قد انقضى ، ولن يلبثوا ان يغيبوها فى الأرض ، تولاه سخط مهتاج ، حـــزين ، يائس .. وكان احيانا يخال انه لا يشعر بشيء على الاطلاق ، فيستمرىء فتور ضناه هذا ، ويروح - فى الوقت ذاته - يلوم نفسه !

وسمع على البلاط وقع عصا ذات نهاية حديدية ، تدق الأرض فى فترات متساوية ، منسابة من الطرف الأقصى للكنيسة ، وما لبثت ان توقفت عند نهاية مقاعد المصلين .. وركع فى عناء ، رجل فى سترة بنيةخشنة ..كان«هيبوليت» سائس « الفندق الذهبى » .. وقد استخدم ساقه الجديدة

ودار أحد الشمامسة يجمع التبرعات ، فاخذت قطع العملةالنحاسية يرتطم بعضها ببعض على الصفحة الفضية . وصاح « بوفارى » مغضبا وهو يلقى اليه بقطعة من فئة الفرنكات الخمسة : « الا أسرع ، فاننى اتعذب ! » .. فشكره رجل الكنيسة بانحناءة طويلة .. وانشدوا ، وركعوا ، ثم وقفوا .. كانما هذه الطقوس لا تنتهى ! .. وتذكر انه و « ايما » حضرا الصلاة فى هذه الكنيسة مرة - فى باكورة استقرارهما فى القرية - وانهما جلسا فى الجانب الآخر ، الى اليمين ، بجوار الحائط .. وشرع الجرس يدوى من جديد ، وانبعثت جلبة من المقاعد .. ودفع حاملو التابوت عصيهم الثلاث تحته .. وغادر كل امــرىء الكنيسة

وظهر « جوستان » اذ ذاك لدى باب الحانوت ، ثم دخل ثانية ، فجاة ، وهو يترنح ، وقد شحب وجهه .. وكان الناس فى النوافذ يشهدون الجنازة ، وقد سار «شارل» فى المقدمة منتصبالقامة، متظاهرا بالجلد ، محييا بهزةمن راسه اولئك الذين كانوا يخرجون من الحوارى ، ويقفون وسط الجمع .. والى جانبى التابوت ، سار ستة رجال - ثلاثة الى كل جانب - فى خطى وئيدة ، لاهثين قليلا .. وكان القساوسة ، والمرتلون ، واثنان من الشمامسة يرددون الكلمات الأولى من مزمور الرحمة (المزمور ١٣٠) ، فتتردد اصواتهم فوق الحقــول ، مرتفعة ومنخفضة فى تماوج . وكانوا احيانا يتوارون فى منعرجات الطريق ، ولكن الصليب الفضى الكبير كان يظهر دائما بين الاشجار

وكانت النساء يسرن بعد هؤلاء ، فى معاطف سوداء ، ذات قلنسوات مقلوبة،

وقد حملت كل منهن فى يديها شمعة كبيرة موقدة ٠٠ واحس « شارل » بقواه تزداد وهنا لاستمراره فى ترديد الصلوات ، وبسبب اللهب ، ورائحة الشمع الطاغية ، ومسوح الرهبان ٠ واخذت نسمة عليلة فى الهبوب ٠٠ وكانت نباتات الجويدار واللفت مخضوضرة ، وعلى الأسيجة الشوكية - على حافة الطريق - كانت قطرات الندى المحمرة ترتجف ٠٠ وكانت كافة الأصوات المرحة تملأ الهواء ٠٠ قعقعة عربة تجرى بعيدا ، فى الأخاديد ، وصياح ديك اخذ يتردد مرارا ، وصهيل فرس صغيرة ترتع تحت اشجار التفاح ٠٠ وكانت السماء الصافية موشاة بسحب وردية ، وعلى الأكواخ المغطاة بالسوسن ، ران ضباب ضارب للزرقة ٠٠ وكان « شارل » وهو مار بافنية الدور يتعرف على كل منها ٠٠ وتذكر أياما كان يعود فيها من زيارة أحد مرضاه فى صباح كهذا ، فيمر بهذه الدور فى طريقه ٠٠ اليها !

وكان الغطاء الاسود ، الموشى بالخرز الأبيض ، يطير من مكانه - بين وقت وآخر - فيكشف التابوت ٠٠ وتباطأ حاملو التابوت وقد تعبوا ، فكان التابوت يتقدم فى هزات مستمرة ، كسفينة ترتج على كل موجة ٠٠ ووصلوا الى المقبرة، فيمم الرجال مباشرة الى مكان بين الحشائش حفر فيه قبر ٠ واصطفوا حوله ، وبينما كان القس يتكلم ، كانت التربة الحمراء المكومة على جوانب القبر تنهار عند الأركان ٠٠ حتى اذا أعدت الحبال الأربعة ، وضع التابوت عليها ٠٠ وراقبه وهو يهبط ، وخيل اليه انه سيظل يهبط الى الأبد ، ثم سمع صوت ارتطام ، وازيز انبعث عن احتكاك الحبال وهى تشد الى أعلى ٠٠ وما لبث «بورنيسيان» أن تناول المعول الذى أسلمه له «ليستيبودوا» ، وبينما كانت يده اليسرى لا تكف عن نثر الماء ، اهالت اليد اليمنى كومة كبيرة من التراب بقوة ، فلما ارتطم الحصى بخشب التابوت ، سمع ذلك الصوت الرهيب الذى يلوح لنـــا كنبرات الأبدية !

وناول القس ناثرة الماء المقدس الى جاره ، وكان السيد هوميه ، فهـزها فى وجوم ، ثم ناولها الى « شارل » الذى جثا على ركبتيه فى التراب ، وملأ يده بالماء يلقيه صائحا : «استودعك الله !» ٠٠ وبعث اليها بقبلات ، ثم جر نفسه الى القبر ، ليدفن نفسه معها ٠٠ ولكنه حمل بعيدا ، ولم يطل به الوقت حتى هدأ ، ولعله شعر كالآخـرين ، بارتياح مبهم اذ انتهى كل شىء ٠٠ اما الأب «روو» فقد مضى - فى عودته - يدخن غليونه فى هدوء ، الأمر الذى جعل «هوميه» يحس - فى أعماق نفسه - بأنه لايناسب المقام٠٠ كما لاحظ انالسيد «بينيه» لم يكن حاضرا ، وان « توفاش » قد تسلل بعد القداس ، وان «تيودور» - خادم موثق العقود - كان يرتدى سترة زرقاء ٠٠ « كانما ليس بوسع المرء أن يحصل على سترة سوداء ، ما دامت هذه هي التقاليد ٠٠ يا للشيطان ! » ٠٠

ولكى يشرك الآخرين فى ملاحظاته ، راح يتنقل من جماعة الى اخرى .. كانوا آسفين على موت « ايما » ، لاسيما «لوريه» الذى لم يفته حضورالجنازة ، والذى راح يقول : « يا للشابة المسكينة ! .. ما اشد الم زوجها ! » .. فقال الصيدلى : « هل تعلم انه لولاى لأقدم على محاولة خطرة لنفسه ؟ »

ـ ما كان أطيبها من امرأة ! .. من يصدق اننى رأيتها يوم السبت الماضى ، فقط ، فى متجرى ؟

قال الصيدلى : « لم اجد وقتا لأنظم كلمة القيها على قبرها »

★ ★ ★

◆ ما ان ولج «شارل» داره حتى بادر الى خلع ثيابه .. أما الأب «روو» ، فقد عاد الى ارتداء قميصه الازرق ، وكان جديدا . ولما كان قد جفف دموعه به مرات كثيرة أثناء الرحلة ، فقد تركت الصبغة أثرا على وجهه ، كما تركت الدموع خطوطا بين طبقات التراب التى تراكمت عليه ..

وكانت مدام « بوفارى » الأم معهما . وساد الصمت ثلاثتهم . واخيرا ، تنهد الشيخ قائلا : « أتذكر يا صديقى اننى زرتك مرة فى (توست) عقب فقدك زوجتك الأولى ؟ .. لقد واسيتك اذ ذاك .. وجدت ما اقوله ! .. اما الآن .. » وفى انين عال هز صدره ، قائلا : «آه !.. هذه نهايتى.. أترى ؟ .. لقد شهدت رحيل زوجتى..وابنى بعدها .. وها هى ذى ابنتى اليوم !» .. ورغب فى أن يعود توا الى (برتو) قائلا انه لا يقوى على المبيت فى هذا البيت .. كما رفض أن يرى حفيدته ، قائلا : « لا ، لا ! .. ان هذا يسبب لى حزنا بالغا ! .. ساكتفى بان تقبلها كثيرا عنى ! .. وداعا ! .. انك ولد طيب ! .. ثم اننى لن أنسى قط هذا » .. وربت فخذه ، وقال : «لا تبتئس ! .. ستتلقى دائما الديك الرومى ! »

ولكن ما ان بلغ قمة التل ، حتى التفت وراءه ، كما التفت مرة من قبل ، فى طريق (سان فيكتور) حين ودعها وهى ترحل مع زوجها .. وكانت نوافذ القرية تعكس أشعة الشمس الغاربة وراء الحقول ، فتلوح وكان النار شبت فيها .. ووضع يديه على عينيه ، فرأى عند الافق سدا من الجدران ، وقد قامت الأشجار هنا وهناك ، كانها عناقيد سوداء بين الاحجار البيضاء .. وما لبث ان واصل سيره فى خطوة معتدلة ، اذ كانت دابته قد أصيبت بعرج ..

★ ★ ★

◆ ظل « شارل » وأمه ساهرين طويلا يتكلمان ، فى تلك الليلة ،رغم تعبهما .. تحدثا عن أيام الماضى ، وعن المستقبل .. لقد عولت على ان تاتى فتقيم فى (ايونفيل) ، تعنى ببيته ، ولا يضرب بينهما فراق قط .. كانت لبقة ، لطيفة ،

وقد ابتهجت فى قرارة نفسها اذ استردت ثانية ذلك الحب الذى ضل عنهـا سنوات عديدة ٠٠ ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل ، والقرية ساكنة كالعهد بها ٠٠ أما « شارل » فكان مستيقظا ، لا يكف عن التفكير فيها ٠٠ فى «ايما» ٠٠

وكان « رودولف » نائما بسلام فى قصره ، بعد أن قضى اليوم كله يضرب فى الغابة ليشغل باله عنها ٠٠ أما « ليون » ، فكان كعادته ٠٠ نائما ٠٠ فى المدينة ! ٠٠ على أن ثمة شخصا آخر ، لم يكن نائما فى تلك الساعة ٠ فعلى القبر ، بين شجرتى الصنوبر ، كان ثمة فتى جاثيا يبكى ، وقلبه الذى أضناه البكاء ، يخفق فى الظلام تحت عبء حزن هائل ، ولكنه أعذب من القمر ، ومن الليل الذى لا قرار له ! ٠٠ وفجأة ، سمع صرير باب المقبرة ٠٠ كان « ليستيبودوا » قادما ليبحث عن معوله الذى نسيه ٠٠ فلمح « جوستان » يتسلق السياج منصرفا ٠٠ وعرف أخيرا من هو الشرير الذى كان يسرق بطاطسه !

الفصل الحادى عشر

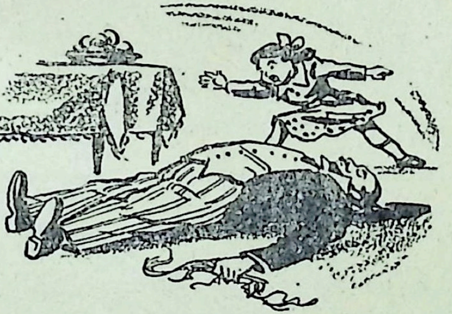

◆ استرد « شارل » فى اليوم التالى طفلته ٠ وراحت تسأل عن أمها ، فكان يقال لها انها سافرت ، وانها ستجلب لها فى عودتهـا بعض اللعب ٠٠ وعادت « بيرت » تتكلم عنها عدة مرات ، ثم لم تعد ـ فى النهاية ـ تفكر فيها ٠٠ وكان مرح هذه الصغيرة يفتت قلب « بوفارى » ٠ وكان عليه بجانب ذلك ، أن يتحمل مواساة الصيدلى الملحاحة التى لم تكن تطاق ٠٠

وسرعان ما عادت المتاعب المالية تثار ، اذ عاد السيد « لوريه » يحرض صديقه

« فانكار » .. وتورط « شارل » فى سندات بمبالغ متزايدة ، اذ ما كان ليرضى ابدا بان يباع اتفه متاع كان لايما يوما .. وانتقدت امه حله ، فغضب كما لم يغضب من قبل ـ اذ كان قد تغير تغيرا تاما ـ ولم تلبث امه ان هجرت البيت

واذ ذاك ، بدا كل امرىء يستغله .. فطالبته مدموازيل « لامبرير » بحساب دروس لمدة ستة شهور ، مع ان « ايما » لم تتلق عليها درسا واحدا .. (رغم ذلك الايصال الزائف الذى اطلعته « ايما » عليه) .. كان ثمة اتفاق بين المراتين! وطالب صاحب المكتبة ـ الذى اعتاد ان يعير الناس كتبه ـ باشتراكات السنوات الثلاث الاخيرة .. وطالبته الام «روليه» باجور البريد عن عشرين خطابا ، فلما استفسرها « شارل » ، الهمتها لباقتها ان تجيب : « آه ! .. لست ادرى ! .. كان ذلك من اجل شئونها ! »

وكان « شارل » كلما دفع دينا ، ظن انه الاخير ، ثم لا يلبث ان يفاجا بديون اخرى لا تنقطع .. وارسل لمرضاه يسالهم اتعابه ، فعرضت عليه الخطابات التى كانت زوجته قد كتبتها لهم .. فكان يضطر الى ان يعتذر ! .. واصبحت « فيليسيتيه » ترتدى ثياب السيدة .. اكثرها على الاقل ، فقداحتفظ هو بالبقية، كان يذهب ليتاملها فى مخدعها ، بعد ان يغلق الباب خلفه .. وكانت الخادم فى مثل طولها ، فكثيرا ماكان«شارل»ـ حين يراها مدبرة ـ يتولاه الوهم بانها هى، فيصيح : « اواه ! .. الا امكثى .. امكثى » .. ولكنها فى عيد العنصرة هربت من (ايونفيل) مع « تيودور » بعد ان سرقت من صوان الملابس كل ما كان قد تبقى .. وفى حوالى ذلك الوقت ، تلقى من الارملة « ديبوى » رسالة تتشرف فيها باخطاره : « بزواج ابنها السيد « ليون » ـ موثق العقود فى (ايفيتو)ـ الى الآنسة ليوكاديه ليبوف من بوندفيل » .. وقد جاء فيما كتبه « شارل » ليهنئه : « ما كان احرى زوجتى المسكينة بان تسعد بهذا » !

* * *

◆ واذ كان يهيم يوما فى البيت على غير هدى ، صعد الى غرفة المخزن ، فاحس تحت نعله بكرة من ورق رقيق ، بسطها فاذا فيها : « تشجعى يا « ايما » تشجعى ! .. ما كنت لاحيل حياتك الى شقاء » .. كانت رسالة « رودولف » وقد وقعت على الارض بين الصناديق ، حيث بقيت .. حتى طوح بها الهواء الوافد من الكوة نحو الباب .. ووقف « شارل » جامدا ، محملقا ، فى نفس المكان الذى وقفت فيه « ايما » من امد طويل ، يائسة ـ اشد شحوبا مما هو الآن ـ وقد اخذت فكرة الموت تراودها .. واكتشف اخيرا حرف « ر » صغير فى نهاية الصفحة الثانية .. ما هذا ! .. وتذكر ما كان يبديه « رودولف » من اهتمام بزوجته ، ثم اختفاؤه المفاجىء ، وما كان يلوح عليه من ضيق وحرج حين التقيا مرتين او ثلاثا بعد ذلك .. ولكن اللهجة الوقورة التى سادت الخطاب خدعته ،

فقال لنفسه : « لعل كلا منهما احب الآخر حبا عذريا » ! .. ثم ان « شارل » لم يكن ممن يتعمقون وراء الأشياء ، بل انه اجفل من ان يعثر على ادلة ، وتبددت غيرته المبهمة فى حزنه الهائل .. وراح يعلل نفسه بان كل امرىء لا بد كان يعبدها ! .. بل من المؤكد ان كل الرجال كانوا يشتهونها !! وزادها هذا جمالا لديه !!! واستولت عليه شهوة باقية هوجاء نحوها ، اذكت من قنوطه الذى لم يكن له حد ، اذ لم يعد من سبيل اليها ..

ولكى يرضيها ـ وكانها كانت لا تزال على قيد الحياة ـ اعتنق ميولها ، وآراءها .. وابتاع احذية من الجلد الطرى .. واغرم بارتداء ربطات العنق البيضاء ، واستعمل الدهون فى تنسيق شاربيه ، واصبح يوقع ـ مثلها ـ سندات تحت الطلب .. كانت « ايما » تقوده الى الخراب ، من اعماق قبرها !

واضطر الى ان يبيع التحف الفضية قطعة بعد اخرى .. ثم باع اثاث حجرة الجلوس .. وتعرت كل الغرف ، عدا غرفة النوم .. غرفتها ، فقد بقيت كما كانت من قبل . وكان « شارل » يصعد اليها بعد عشائه ، فيدفع المنضدة المستديرة امام المدفاة ، ويجذب مقعدها ـ ذا المسندين ـ ثم يجلس امامه ، وفى احد الشمعدانات المذهبة شمعة تحترق .. و « بيرت » الى جواره ، تطبع بعض الصور باستخدام اختام محفورة .. وكان الرجل البائس يتعذب اذ يراها سيئة الملبس ، فحذاءاها بغير رباطين ، والثقوب التى تخللت ذراع قميصها امتدت فى تمزق وصل الى ردفها ، فان المراة التى كانت تفد للعناية بالبيت ، لم تشغل نفسها بها .. على ان الصغيرة كانت لطيفة جدا ، رقيقة للغاية ، وكان راسها الصغير ينحنى الى الأمام فى رشاقة ، تاركا شعرها الأشقر الغزير ينسدل على خديها ، فيحس « شارل » بغبطة لانهاية لها تغمره ، وسعادة ممزوجة بمرارة ، كتلك الخمور الرديئة الصنع التى يكون لها طعم زيت الخروع .. وكان يصلح لها لعبها ، او يصنع لها اشكالا من الورق المقوى ، او يخيط لها الدمى الممزقة .. وكان اذا وقعت عيناه ـ اذ ذاك ـ على صندوق الحياكة ، او على شريط ملقى ، او حتى ابرة مستترة فى احد شقوق المنضدة ، يستغرق فى الاحلام ، ويتجلى عليه الحزن ، حتى تبدو الصغيرة بدورها حزينة مثله

ولم يعد يفد لزيارتهما احد .. فقد هرب « جوستان » الى (روان) حيث اصبح صبيا لدى بقال ، واخذت زيارات اطفال الصيدلى للصغيرة تقل شيئا فشيئا ، اذ لم يعد السيد « هوميه » يعنى باستمرار الود ، وهو يرى الفارق فى المكانة الاجتماعية بينهم وبينها ..

وكان الأعمى ـ الذى اخفق علاجه بذلك البلسم ـ قد عاد الى تل غابة (جيوم) حيث راح يخبر المسافرين بمحاولة الصيدلى الفاشلة .. حتى اصبح « هوميه » ـ اذا ذهب الى المدينة ـ يتوارى خلف ستائر « العصفورة » ليتفادى

الالتقاء به .. بل انه اصبح يكرهه ، ويتمنى - من اجل سمعته - ان يتخلص منه باى ثمن .. فشن عليه حملة مستترة ، كشفت عن عمق ذكائه ، وعن خسة غروره .. فكان المرء يقرأ فى « الفانال دى روان » - طيلة ستة شهور متتابعة - نبذا ، راح يردد فيها :

« كل قاصد الى سهول بيكاردى الخصيبة ، لاحظ ولابد على مقربة من تل غابة (جيوم) متسولا مصابا بجرح فظيع فى وجهه . وهو يزعجك فى لجاجة ، ويطاردك ، ويفرض على المسافرين جميعا جزية حقيقية . فهل ما زلنا نعيش فى العصور الوسطى البشعة ، حين كان يباح للأفاقين ان يعرضوا فى المحال العامة ماعادوا به من الحملات الصليبية من جذام وداء الخنازير ! » .. او « على الرغم من القوانين المكافحة للتشرد ، فان مشارف مدننا الكبرى لا تزال موبوءة بعصابات من المتسولين . ويشاهد من هؤلاء من يطوفون فرادى ، ومن يحتمل ان لا يكونوا اقل خطرا من سواهم . فما راى اعضاء مجالسناالبلدية ؟ »

ثم اخذ « هوميه » يبتكر الأقاصيص .. « جمح بالأمس جواد عند تل غابة (جيوم) .. » ثم يردف هذا بقصة حادث نشأ عن وجود الرجل الأعمى .. وقد احكم حملته ، حتى حبس الرجل ، ولكنه مالبث ان سرح ، وعاد من جديد .. فعاد « هوميه » الى حملته ! .. كانت معركة ، قدر لهوميه ان يكسبها ، اذ قضى على غريمه بالبقاء فى ملجا طوال عمره

* * *

◆ وجراء هذا النجاح ! ومنذ ذلك اليوم لم يعد كلب يدهس ، او مخزن للغلال يحترق، او امراة فى الأبرشية تضرب، الا وكان يبادر للتو الىنشر النبا للراى العام ، يحدوه دائما حب الرقى وكراهية القساوسة ! .. وكان لايفتا يقارن بين المدارس الأولية والمدارس الكنسية ليوقع الضرر بهذه ، واعاد الى الاذهان مذبحة « سان بارتليمى » .. من اجل منحة قدرها مائة فرنك قدمت للكنيسة ، وحمل على المساوىء ، وكشف عن آراء جديدة ، كما كان يقول ! .. كان « هوميه » يحفر ويهدم .. ومن ثم اصبح خطيرا !.. على انه احس بانه يختنق فى حدود الصحافة الضيقة ، ولم يلبث ان وجد ان لابد له من كتاب يؤلفه . واذ ذاك وضع مؤلفا فى « احصاءات عامة لمنطقة (ايونفيل) ، تتبعها ملاحظات عن المناخ » .. ودفعته الاحصاءات الى الفلسفة ، فشغل بمسائل كبيرة : المشكلة الاجتماعية ، والتهذيب الخلقى للطبقات الفقيرة ، وتربية الأسماك ، والمطاط ، والسكك الحديدية ، الخ . بل انه اخذ يخجل من انتمائه الى الطبقة المتوسطة ، فاتخذ لنفسه مظهر اهل الفن ، واقبل على التدخين ! .. وابتاع تمثالين بديعين من طراز «بومبادور» ليزين بهما غرفة جلوسه .. بيد انه لم يهجر الصيدلية على الاطلاق ، بل انه - على النقيض - ظل مواظبا على

متابعة الاكتشافات ، فتتبع الحركة الكبرى التى اثيرت بصددانواع «الشيكولاته» .. وكان اول من ادخل « الكاكاو » و «الريفالنسيا » الى حوض (السين) الأدنى .. وتحمس لأطواق « بولفرماشيه » الكهربائية وارتدى بنفسه منها ، فكان اذا خلع قميصه الداخلى (الفانيلا) ، ذهلت زوجته لرؤية الوهج الذهبى الحلزونى الذى كان يختفى وراءه .. وشعرت بشوقها يتضاعف لهذا الرجل ، الملتف فى الأطواق كانه ساحر مجوسى ..

وكانت له آراء طريفة بصدد قبر « ايما » .. فاقترح فى البداية ان يقام عليه عمـود ابتر مكسو بالجوخ .. ثم اقترح هرما ، ثم معبدا ، ثم صرحا ذا قبة ، او « ركاما من الاطلال » .. وكان « هوميه » فى جميع هذه المشروعات ، لايتحول عن اضافة نبات الصفصاف الباكى ، الذى كان يعتبره رمزا لابد منه للحزن ..

ورحل « شارل » معـه الى (روان) لمشـاهدة بعض القبـور ، لدى احد صانعى التوابيت ، وصحبهما فنان يدعى « فوفريلار » ـ من اصدقاء « بريدو » ـ ظل طيلة الوقت يتكلم بالالغاز . واخيرا ، وبعد ان فحصوا حوالى مائة رسم ، طلبوا تقديرا للنفقات . ثم قام الصيدلى مع «شارل» برحلة اخرى الى (روان) ، قررفيها الاخير انه يؤثر الاكتفاء بضريح مزخرف ، يقام على كل من جانبيه الرئيسيين « تمثال لجنى يحمل مشعلا لايخمد » .. اما الكتابة التى تنقش عليه ، فلم ير « هوميه » اجمل من « استريحى أيتها المسافرة » باللاتينية .. ولم يزد . واخذ يعصر ذهنه ، ويردد باستمرار « استريحى ايتها المسافرة » .. ثم خطرت له عبارة « خفف الوطء انها زوجة محبة » باللاتينية .. فاستقر الراى عليها .

وكانت ثمة ظاهرة غريبة .. فبينما كان « بوفارى » يفكر باستمرار فى « ايما » ، اخذ ينساها .. واشتد به الأسى اذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التى كان يبذلها للاحتفاظ به .. ومع ذلك فانه كان يحلم بها فى كل ليلة .. نفس الحلم .. كان يقترب منها ، حتى اذا هم باحتضانها ، هوت متعفنة بين ذراعيه ! .. وشوهد يتردد على الكنيسة كل مساء ، لمدة اسـبوع .. كما ان الأب « بورنيسيان » زاره مـرتين او ثلاثا ثم اهمله ، لاسيما وان القس المسكين اصبح لايطاق ، وازداد تهوسا ، كما قال « هوميه » . كان يرغى ويزبد ضد روح العصر ، ولم يكف عن ان يذكر فى مواعظه ـ مرة كل اسبوعين ـ الآلام التى عاناها « فولتير » عند احتضاره ، ثم موته بعد عذاب مرير ـ نتيجة لالحاده ـ كما يعرف كل امرىء !

* * *

وعلى الرغم من الاقتصاد الذى انتهجه «بوفارى» فانه كان اعجز من

ان يسد ديونه القديمة ٠٠ ورفض « لوريه » أن يجدد السندات بعد ذلك ، واصبح الحجز على داره متوقعا ٠٠ فتوسل الى امه ، التى وافقت على أن ترهن عقارها من اجله ، ولكن ٠٠ بعد أن ابدت كثيرا من اللوم البالغ لما فعلته « ايما » ٠٠ وسالته فى مقابل هذه التضحية ، شالا كان لايما وافلت من عدوان خادمتها، فاباه عليها « شارل » ٠٠ ومن ثم تخاصما ٠٠ على انها كانت البادئة بالسعى الى الصلح ، فعرضت ان تكفل البنت الصغيرة ، لتساعدها فى البيت وتعيش معها ٠ ووافق « شارل » على هذا ، ولكن شجاعته خانته عندما حان الفراق ٠٠ واذ ذاك حدثت قطيعة نهائية ، كاملة ٠

وكان كلما تبدد وجـده لايما ، ازداد تعلقا بحب ابنته ٠٠ على انها كانت تسبب له قلقا ، اذ كانت تسعل فى بعض الأحيان ، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها ٠٠ وفى البيت المقابل ، كانت اسرة الصيدلى مزدهرة ، مرحة ٠٠ كل شىء لديهـا فى نمـاء ٠٠ فاصبح « نابليون » يسـاعد أباه فى العمل ، ونسجت له « اتالى » قلنسوة ، وكانت « ايرما » تقص له اقراصا من الورق لتغطية المواد التى يختزنها ، واصبح « فرانكلين » يقرأ جدول « فيثا غورس » عن ظهر قلب ، فى نفس واحد ٠ كان «هوميه» اسعد الآباء ، واكثر الرجال حظا!

ولكن ، لا ! ٠٠ كان يقض مضجعه مطمع تكتمه ! ٠٠ كان يتوق الى وسام صليب الشرف (اللجيون دونير) ٠ ولم تكن المبررات تعوزه ، فاولا : برز فى أيام الكوليرا بما كان يبديه من تفان لا حد له ٠٠ وثانيا : نشر ـ على حسابه الخاص ـ عدة مؤلفات ذات نفع عام (وكان يذكر كامثلة عليها : كتيبا اصدره بعنوان « شراب التفاح : صناعته ومفعوله » ، وكذلك ملاحظات عن الحشرة الوبرية ارسلها الى « الأكاديمية » ، ومؤلفه الاحصائى ، ويمضى فى سرد مؤلفاته حتى يذكر الرسالة التى قدمها للحصول على شهادته فى الصيدلة !) ، ثم يضيف : « هذا عدا اننى عضو فى جمعيات عديدة للعلماء » ـ وماكان عضوا الا فى واحدة !٠٠ وكان يصيح وهو يدور على رجل واحدة : « بالايجاز ٠٠ اننى اهل للوسام ، ولو لبلائى فى الحرائق فحسب ! »

ومالبث « هوميه » ان مال الى صف الحكومة ، فاسدى لمدير الأقليم ـ فى السر ـ خدمات كبـيرة فى الانتخابات ٠٠ باع نفسـه فى النهـاية ٠٠ بغى وفجر ! ٠٠ بل انه رفع ملتمسا الى العاهل يناشده فيه أن « ينصفه » ، وخاطبه فيه بـ « مليكنا الصالح » ، وقارن بينه وبين هنرى الرابع ٠٠ واخذ الصيدلى ينقض على الصحيفة فى كل صباح ، ليرى نبأ الانعام ٠٠ ولكنه لم ينشر قط ! واخيرا ، عجز عن المضى فى الاحتمال ٠٠ وكانت فى حديقته بقعة معشوشبة صممت على شكل نجمة الوسام ويتصل باعلاها شريطان من الحشائش يمثلان شريط الوسام ، فاخذ يسير حولها عاقدا ذراعيه ، مفكرا فى غباء

الحكومة ، وعدم اعتراف البشر بالفضل لأهله •

ولم يكن « شارل » قد فتح بعد الدرج السرى فى المكتب المصنوع من خشب الورد ـ الذى كانت « ايما » تستخدمه عادة ـ بواعز من الاحترام لذكراها ، او بدافع من لون من اللذة كان يحمله على ان يبطىء فى ابحاثه •• على انه جلس ذات يوم امام المكتب ، فادار المفتاح ، وضغط الزر •• وكانت كل رسائل « ليون » هناك •• ولم يعد ثمة مجال للشك فى هذه المرة •• واخذ يلتهم الرسائل حتى آخرها ، ثم مضى ينقب فى كل ركن •• بل فى قطع الاثاث جميعا ، وفى كل الادراج ، وخلف الجدران ، وهو منهمر الدمع ، يجهش بالبكاء •• مختبلا ، مجنونا •• وعثر على صندوق ، ففتحه بركلة من قدمه ، واذا بصورة « رودولف » تقفز فى وجهه ، وسط خطابات عاطفية مكدسة

وعجب الناس لانطوائه •• فلم يعد يخرج ، ولم يعد يقابل احدا ، بل انه اصبح يرفض ان يعود مرضاه •• ومالبث ان تردد زعم بانه « يحبس نفسه ليعكف على الشراب » ! •• على ان بعض الفضوليين كانوا ـ احيانا ـ يتسلقون سياج الحديقة ، فكانوا يرون ـ مذهولين ـ ذلك الرجل الشارد الفكر ، الطويل اللحية ، الزرى الملبس ، الذى كان يجهش بالبكاء بصوت عال وهو يمشى

وكان فى المساء المبكر ـ فى الصيف ـ يصطحب ابنته ويقودها الى المقبرة ، ثم يعودان حين يرخى الليل سدوله ، ولا يبقى فى الميدان من ضوء سوى الضوء المنبعث من كوة « بينيه » •• غير ان لذة حزنه لم تكن كاملة ، اذ لم يكن بجواره من يشاطره اياها ، فاخذ يزور الأم « لوفرانسوا » راجيا ان يتحدث اليها ، ولكن ربة الفندق لم تكن تصغى اليه الابنصف اذن ، اذ كانت لديها متاعبها الخاصة ، فقد انشا « لوريه » اخيرا عربات لنقل الركاب ـ تنافس عربتها « العصفورة » ـ باسم « المفضلة للتجارة » ، واصر سائق «العصفورة» المدعو « هيفير » ـ الذى اكتسب شهرة كبيرة فى اداء عمله ـ على ان يرفع اجره ، واخذ يهدد بان يذهب الى « المنافس » !

★ ★ ★

◆ وفى ذات يوم ، ذهب « شارل » الى سوق (ارجوى) ليبيع حصانه ، آخر مورد لديه ـ فالتقى برودولف •• وشحب كل منهما اذ لمح الآخر •• وتمتم رودولف ـ الذى كان قد اكتفى بان يرسل اليه بطاقة للتعزية ـ ببضعة اعذار ، وهو متلعثم •• ثم واتته الجراة ، حتى انه مضى فى طمانينته الى حد دعوته الى تناول زجاجة من الجعة فى الحانة •• وكان الجو قائظا ، اذ كان الشهر اغسطس ••

ومال على المنضدة امامه ، واخذ يمضغ سيجاره وهو يتكلم ، بينما كان «شارل»

غارقا فى تامل ذاك الوجه الذى احبته .. هى ! .. وخيل اليه انه يرى فى هذا الوجه شيئا منها .. كان يثير عجبه .. حتى لقد ود لو كان هو هذا الرجل !

ومضى « رودولف » يتحدث عن الزراعة ، والماشية ، والمرعى ، وهو يملأ - بعبارات مبتذلة - الثغرات التى كان يعوزه فيها الايضاح .. ولم يكن «شارل» مصغيا اليه .. ولاحظ « رودولف » ذلك ، فتتبع مجرى الذكريات التى كانت تنعكس على وجهه .. اذ اخذ هذا الوجه يزداد احتقانا ، وراحت طاقتا انفه تختلجان بسرعة ، وشفتاه ترتجفان .. وحانت لحظة اتهم فيها « شارل » بغضب قاتم ، فثبت عينيه على « رودولف » ، الذى كف عن الحديث فى شىء من الخوف .. ولكن ، سرعان ما عاد الى وجه « شارل » ذلك الطابع المضنى الحزين ، وقال : « لست احقـد عليك ! » .. وبهت « رودولف » . ومضى « شارل » يقول - وراسه بين راحتيه - فى صوت متهدج ، وفى لهجـة مثقلة بحزن لا حد له : « لا .. لست احقد عليك ! » .. بل انه اضاف عبـارة رقيقة .. العبارة الوحيدة من نوعها .. « انها غلطة القدر ! »

ورأى « رودولف » - وهو الذى وجه هذا القدر - أن العبارة دمثة ، لا سيما من رجل فى مثل مركز « شارل » .. بل ومضحكة .. وخسيسة الى حد ما !

* * *

◆ فى اليوم التالى ، ذهب « شارل » فجلس على المقعد الطويل الذى كان فى الخميلة .. وكانت اشـعة الشمس تنساب خـلال الأفنان .. واوراق الكرمة تطبع ظلالها على الرمل ، والياسمين يضوع الهواء بعبيره ، والسـماء زرقاء ، والذباب الهندى يطن محموما حول الزنبق المزدهر .. واحس « شارل » بانه يختنق ، كما يفعل الشاب المراهق حين تفيض به تيارات الحب المبهمة التى يلمم بها قلبه ..

وفى الساعة السابعة ، اقبلت « بيرت » الصغيرة - التى لم تكن قد رأته قط طيلة ما بعد الظهر - تبحث عنه للعشاء .. فاذا راسه مسند الى الحائط خلفه ، والعينان مغمضتان ، والفم مفتوح ، وفى يده خصلة طويلة من شعر اسود .. وهتفت : « هيا يا ابت .. تعال ! » . واذ ظنته راغبا فى مداعبتها ، دفعته فى رفق ، فهوى الى الأرض .. كان قد مات !

وبعد ست وثلاثين ساعة ، اقبل السيد « كانيفيه » - برجاء من الصيدلى - فقام بتشريح الجثة ، ولم يجد شيئا ..

وعندما بيع كل شىء ، تبقى اثنا عشر فرنكا وخمسة وسبعون سنتيما ، استخدمت فى دفع نفقات سفر الآنسة « بوفارى » الى جدتها ..

ثم ماتت الجدة العجوز فى نفس السنة .. وكان الأب «روو» ـ والد ايما ـ قد أصيب بالشلل ، فكفلت الفتاة عمة لأمها ، كانت امرأة فقيرة ، فارسلتها لتكسب عيشها فى مصنع لنسيج القطن ..

ومنذ وفاة « بوفارى » تتابع على (ايونفيل) ثلاثة اطباء ، واحدا بعد واحد ، دون أن يوفقوا ، فقد كان « هـــوميه » يحمل عليهم فى عنف .. كان عــدد عملائه قد تضخم ، واغمضت السلطات اعينها عنه ، وتكفل الرأى العام بحمايته ..

وقد حصل لتوه على صليب الشرف .. « اللجيون دونير » !

« تمت »

محاكمة المؤلف

أمام محكمة جنح باريس

(الدائرة السادسة)

فى الجلسات من ٣١ يناير الى ٧ فبراير سنة ١٨٥٧

تلخيص : انطون العبيدى

« مدام بوفارى » .. فى ميزان العدالة !

◆ اثارت قصة « مدام بوفارى » ـ عندما نشرت لأول مرة مسلسلة على صفحات مجلة « ريفو دى بارى » ـ ضجة انتهت بها وبمؤلفها الى ساحة القضاء .. ولطرافة القضية واهميتها ، رايت ان الخصها لك فى الصفحات التالية .. فهى لم تكن قضية « جوستاف فلوبير » و « مدام بوفارى » وحدهما ، وانما هى قضية الكتاب ، والأدباء ، ورسالة الأدب فى كل عصر ، وكل بلد .. ! ولقد اعيد طبع الرواية بعد ذلك مرات فى حياة « فلوبير » ، فكان فى كل مرة يدخل عليها تعديلات وتنقيحات، هى السر فى وجود بعض الفوارق بين الطبعة النهائية المعتمدة التى ترجمناها ، وبين الفقرات التى اقتبستها النيابة واشار اليها الدفاع ، اذ اخذ هذان عن الاصل الاول الذى نشر فى المجلة ..

مرافعة النيابة العامة

◆ يا حضرات القضاة : تود النيابة العامة قبل الخوض فى موضوع هذه الدعوى ان تشير الى صعوبة مهمتها . هذه الصعوبة التى لاتتصل بطبيعة الاتهام ، وهو «خدش الآداب العامة والمساس بالدين» ، وانما تتصل بمدى الاتهام ونطاقه . ذلك ان هذه العبارة مرنة واسعة الحدود بحيث يتعين تحديد مرماها. فعندما يعرض على حضراتكم مقال او صفحة من كتاب يتضمن مساسا بالاخلاق العامة او العقيدة ، يكون الأمر محدود النطاق . اما اذا تعلق الاتهام بقصة كاملة ، فان الأمر يختلف كثيرا ، اذ من المستحيل ـ بطبيعة الحال ـ قراءة القصة برمتها . ولو اننا اقتصرنا على بعض الصفحات التى تتضمن فقرات معيبة،

فقد يقال بحق اننا لم نعرض القضية فى كافة اجزائها . اذ ان ما يسبق هذه الفقرات وما يتلوها ذو صلة وثيقة بموضوع الاتهام . من اجل هذا لاترى النيابة امامها سوى طريق واحد ، هو ان تقص عليكم القصة قصا دون ان تقرا او تخص بالاتهام فقرة واحدة من فقراتها . ثم تتلو العبارات موضوع الاتهام وتبين ما فيها من خروج على القانون .

عنوان القصة : « مدام بوفارى » ، ويليه عنوان آخر بين قوسين هو :«أخلاق الريف » ، وكلا العنوانين لا يدل على شيء . لم يشا الكاتب ان يتبع فى مؤلفه فلسفة معينة وانما اراد ان يرسم بعض اللوحات، ويا لها من لوحات..الزوج يبدا القصة وينهيها ، ولكن الدور الأول الذى يطغى على جميع الأدوار هو فى الواقع دور « مدام بوفارى » .

جيء بالطفل«شارل» الى المدرسة،وكان بليدا خجولا، تنم طفولته عما ستكون عليه رجولته .. فهو يواصل دراسته دون ما تقدم ، وهو اضحوكة فصله .. وحين اتم المرحلة الاولى من الدراسة ، جاء الى (روان) حيث اخذ يدرس الطب ..ولم يكن يعنى بالدراسة كثيرا وانما كان يغشى « الكباريهات » ويكلف بلعبة « الدومينو » . ذلكم هو السيد « شارل بوفارى » .

واراد ان يتزوج . فعثرت له امه على زوجة هى ارملة احد المحضرين . وكانت تناهز الخامسة والاربعين ولها دخل قدره ١٢٠٠ فرنك .. امراة دميمة على جانب من الورع والتقوى..ولكن الموثق الذى وكلت اليه مالها فر الى امريكا ، فماتت متاثرة بالصدمة .. ذلكم هو الزواج الأول وذلكم هو الجزء الأول من الرواية .

★ ★ ★

◆ اراد السيد « بوفارى » بعد ذلك ان يتزوج ثانية .. فاتجه نظره الى ابنة مزارع فى منطقة مجاورة ، هى : « ايما روو » .. وصار السيد «بوفارى» كلفا بزوجته .. كان اسعد الرجال ، واكثرهم عمى .. وكان جل همه ان يحقق رغباتها .. وهنا يتضاءل دور السيد « بوفارى » ويبرز دور مدام « بوفارى » كبطلة للقصة .

حضرات القضاة : ترى هل احبت مدام «بوفارى» زوجها او حاولت ان تحبه ؟ لا .. كان هناك منذ البداية ما يسمى بالانسياق للأحلام .. ومنذ ذلك الحين تمثل لها افق آخر .. حياة جديدة . اذ اوحت اليها حفلة فى قصر (مويسار) ـ حضرتها فى صحبة زوجها وجمع من علية القوم ـ بالنزوات المستهترة ..منذ ذلك الحين تبدلت حالتها واصبح كل ما يحيط بها ثقيلا لا يطاق .. واراد السيد « بوفارى » ان ينقذها مما تولاها من الملل والضيق ، فاصطحبها الى (ايونفيل) للاقامة فيها ، مضحيا بعملائه . وفى هذه البلدة تحدث الزلة الأولى ، اذ عرفت مدام « بوفارى » شابا صغير السن يعمل كاتبا عند موثق البلدة هو « ليون

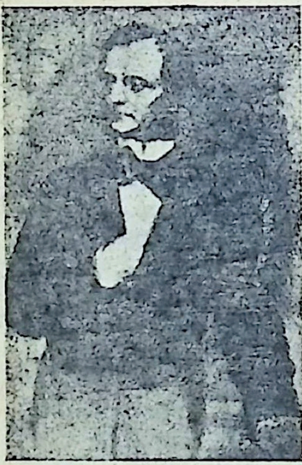
مسيو « بينار » ، ممثل النيابة
الذى ترافع ضد «جوستاف فلوبير»

ديبوى » ، الذى كان يدرس الحقوق ، ويزمع السفر الى العاصمة ..ولم يجد السيد «بوفارى» حرجا فى زيارة هذا الشاب لمنزله ، ايمانا منه بعفة زوجته . كذلك كان الشاب سليم النية . ومالبث ان سافر ، فافلتت الفرصة ، ولكن فرصا اخرى سنحت بسهولة .. اذ كان يقيم على مقربة من (ايونفيل) شاب يدعى «رودولف بولانجيه» ، كان له ماض مع بعض النساء . وما ان وقع نظره على مدام « بوفارى » ، حتى عقد العزم على ان يتخذها خليلة ! ولم يجد كبير عناء فى بلوغ غايته بعد ثلاث مقابلات .. وتعاقبت المقابلات فى قصر «رودولف» ، وبلغ العاشقان اقصى حدود الفسق .. ثم رغبت مدام «بوفارى» الى «رودولف» فى ان يختطفها ،ولكنه لم يجرؤ . وكتب اليها رسالة اوضح لها فيها عذره .. وكانت هذه الرسالة صدمة قاسية لها ، فاصيبت بحمى مخية ، قتلت الحب ، ولكن داء الفسق بقى .. ذلكم هو الجزء الثانى

★ ★ ★

◆ وفى الجزء الثالث يحدث فى نفس مدام بوفارى رد فعل لسقطتها مع « رودولف » فيستيقظ الشعور الدينى فى قلبها ، ولكن الى حين . اذ وجد السيد « بوفارى » أن يرفه عنها فى نقاهتها ، فصحبها ذات ليلة الى (روان) .. وفى المسرح صادفا « ليون ديبوى » ، وكان قد عاد من باريس وقد اكتسب علما ، وخبرة بالحياة .. فيتفق مع مدام « بوفارى » على لقاء ، تختار له الكاتدرائية مكانا .. ولكنه يغريها على أن تصحبه فى عربة..وتقع الزلة الثانية داخل العربة . وتتكرر المقابلات فى منزل الزوج ، ثم فى غرفة خاصة استأجراها فى (روان) .. الى ان تحس مدام بوفارى بالملل .. وهنا يبدأ فصل الكآبة والأسى .. اذ كانت مدام بوفارى قد بعثرت الأموال فى تقديم هدايا الى « رودولف » والى « ليون » ، وعاشت فى بذخ واسراف ، واضطرت الى التخبط فى الديون .. فيقاضيها المرابى ، ويوقع الحجز على منقولات منزل الزوجية ،

ويلصق اعلان البيع .. والزوج لا يعلم شيئا .. وتسعى مدام « بوفارى » للحصول على المال من اى شخص ، فلا توفق .. ويابى « ليون » ان يرتكب جريمة حاولت ان تغريه على ارتكابها .. وتلجا الى « رودولف » بعد ان اعياها المطاف فلا تجد عنده الثلاثة آلاف فرنك التى تنشدها . هل تفضى الى زوجها بما حدث ؟ .. انه بلا شك كان يغتفر لها كل ما فعلته ، ولكن هذا الغفران لا يرضى كبرياءها ، فتؤثر تناول السم ! وهنا تحدث مشاهد مؤلمة ، اذ يرتمى الزوج الى جانب جسد زوجه، يبكى وينتحب، ويطلب ان تدفن فى حلة عرسها، وفى ثلاثة توابيت .. ويقدر للزوج ان يعثر بعد ذلك على خطابات عاشقيها ، فهل تظنون ان الحب سيفارق قلب هذا الرجل ؟ .. على العكس ، فان هذه الذكريات الغرامية التى خلفتها له هذه المراة التى عبث بها اشخاص آخرون ، تلهب قلبه وتضاعف حبه . فيهمل شئون عملائه ، ويقاطع امه ، ويبدد البقية الباقية من ماله . ثم يعثر عليه فى احد الايام جثة هامدة فى حديقة منزله ، وقد امسك بيده خصلة كبيرة من شعر زوجته الأسود !

★ ★ ★

◆ هذه هى القصة .. وانتقل بعد ذلك الى سرد بعض النصوص التى وردت فى سياقها توطئة للحديث عن صلب الاتهام .. على اننى ارى لزاما على - قبل ذلك - ان اتحدث عن السيد « فلوبير » ، وعن المدرسة التى ينتمى اليها ، وعن اسلوبه فى رسم اللوحات التى كون منها قصته . كيف صور شخصية مدام « بوفارى » ؟ .. انها اول الأمر فتاة فى حوالى الثانية عشرة من العمر ، تتلقى تعليمها فى احد الأديرة ، ولا تعرف فى هذه السن شيئا عن الانفعالات والغرائز .. وهى حين تعترف بخطاياها للكاهن تبتكر هفوات بسيطة ، لتمكث بعض الوقت فى كرسى الاعتراف ، تستمع الى نصائح رجل الدين ، وهى تجد لذة فى تامل ما يردد فى الدير عن الخطبة والحبيب السماوى والقران الأبدى . هل هذا طبيعى ؟ اليس فى المزج بين ابتكار الخطايا التافهة والاحساس بهزة نفسية تحرك شعور فتاة فى هذه السن عند ذكر هذه الأمور ، وبين الاطالة فى مقابلة الكاهن والاستماع الى حديثه ، اليس المزج بين هذه الأمور مقصودا لرسم صورة داعرة من تلك الصور التى زخرت بها القصة ؟!

★ ★ ★

◆ تزوجت مدام « بوفارى » . وكان ينبغى لها ان ترقص . فانظروا حضراتكم كيف يصف الكاتب رقصها مع الفيكونت فيقول :

« وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة ، واخذا يدوران فيدور معهما كل ما حولهما من مصابيح ، وأثاث ، وجدران ، وأرض ! .. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ، فتداخلت أرجلهما .. وخفض

بصره نحوها .. ورفعت هى بصرها نحوه .. وعلى الفــور ، أحست بدبيب مخدر يسرى فى أعصابها !.. وتوقفت عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه ، واذا الفيكونت يقود ايما بحركة رشيقة الى نهاية البهو ، حيث اختفى معها . وكانت قد اوشكت أن تسقط لاهثة الأنفاس ، فأسندت رأسها هنيهة الى صدره »

انظروا الى مدام « بوفارى » فى أبسط افعالها . انكم تجدون فيها ريشــة المؤلف تصور هذه الافعال على نفس النحو الذى ترسم به شتى اللوحات المنثورة بين دفتى الكتاب . فهذا « جوستن » خادم الصيدلى المجاور ، كم كان يذهل اذ يلمح اسرار غرفة زينة هذه السيدة . انه يتامل فى نهم اشياءها المبعثرة عـلى منضدة الكى ، ومن بينها السراويل الواسعة فى اعلاها ، الضيقة فى اسفلها .. وكم تساءل الزوج عن رائحة العطور التى كان يشمها من هذه المرأة :

« أهى منبعثة من قميصها أو من جسمها ؟ .. »

اكتفى بهذا القدر من النقل ، فلعلكم عرفتم الآن اللون الذى اضفاه المؤلف على لوحاته التى صور بها شخصية مدام « بوفارى » فى صلاتها بعشيقيها ، بل وبزوجهـا .. كل ما عنى به الكاتب هو الصــورة البدنية ، الجمـال الفاتن ، الاستسلام للغريزة الجنسية ، واشباع الشهوات ، والجسم الناعم الذى يغـرى كل ما فيه بالمتعة الآثمة .

★ ★ ★

◆ اليكم بعد هــذا بعض العبارات عن صــلات « رودولف » و « ليون » الغرامية ببطلة القصة ، وعن عودة الوازع الدينى ، وعن الموت :

« ان تفاهة الأثاث المنزلى تدفعها الى نشدان الترف فى مكان آخر . وعطف الزوج يدفعها الى الخيانة الزوجية » .. ما الذى اغرى بها « رودولف » ؟ .. انه « ثوبها ينفرد وينثنى وفق تقاسيم جسمها .. وكانت صورة « ايما » دائما فى خياله يراها فى أوضاع شتى وينزع عنها ملابسها ويأخذها الى صدره .. ويلتقيان أول لقاء وتلتهب شفاههما ، فيرطبها الانفعال النفسانى .. وتتحرك لأيدى لينة رخوة !»

تلك مقدمات السقطة ، ويجب ان تقرأ السقطة نفسها .. لقد اسلم «شارل» زوجته الى « رودولف » ليدربها على ركوب الخيل ، فخرجا الى الغابة ..

« واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته ، فمالت الى الخلف بعنقها الأبيض ، الذى انتفخ بزفرة ..وفى اضطراب ، ودموع ،ورعشة طويلة ، حجبت وجهها.. وأسلمت نفسها ! » .. وبعد ان اشبعا شهوتهما ، تعود الزوجة الى بيت الزوجية حيث الزوج الذى تحتقره .. ترى هل هى نادمة بعد سقطتها الاولى ؟ كلا بل انها تعود عالية الراس ، فخورة بالفسق الذى ارتكبته ، مرددة :«اصبح لى عشيق ! » .. وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة « فكانها تحظى بفترة المراهقة

والاحلام مرة أخرى ! .. اذن فقد قدر لها أخيرا أن تعرف مباهج الحب هذه ، وحمى الهناءة تلك التى كانت فى قنوط منها ! .. لقد ارتادت شيئا من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة ، والنشوة ، والألم »

* * *

◆ **واذن فهى تمجد الخيانة وتتغنى بسقطتها الاولى ! وهذا - يا حضرات القضاة - اشد فى رايى خطرا من السقطة نفسها . كل شىء تافه الى جانب هذا التمجيد لتلك الزيارات الليلية التى تتوالى بعد هذا الذى حدث بأيام قلائل .. كان « رودولف » يوافيها فى حديقة دارها ، فتتحايل حتى ينام الزوج ، ثم تتسلل الى العشيق وقد تجردت من ملابسها ، فيلفها فى معطفه :**

« كان برد الليل يضطرهما الى أن يزدادا تلاصقا ، فتبدو التنهدات المنبعثة من شفاههما أحر من عادتها ، وتتراءى لهما عيونهما أكثر اتساعا .. وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافتة ، تقع علـى نفسيهما فى رنين بلورى ، ثم تتذبذب فيهما فى دوائر تطرد اتساعا »

هل تعرفون حضراتكم لغة اكثر بيانا ووضوحا ؟ هل رايتم صورة اغرق فى الدعارة من هذه اللوحة ؟ استمعوا ايضا الى هذه العبارات :

« ابدا لم تكن مدام « بوفارى » فى مثل ما بدت فيـه من جمال فى تلك الفترة ، اذ اوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم ، الذى يأتى نتيجة للفرح والتحمس والظفر .. كانت شهواتها ، وأشجانها ، وتذوقها للذة ، وأوهامها الدائمة الصبا ، أشبه بالتربة والمطر والريح والشمس اذ تنمى الزهـور .. وهكذا أخذت « ايما » تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تفعم به طبيعتها .. والفاها « شارل » شهية ، فتانة ، كما كان العهد بها فى الأيام الأولى لزواجهما »

الى هنا - يا حضرات القضاة - بدا لكم جمال هذه المراة من خلال قسمات جسمها وحركاتها وثيابها . لقد بدت لكم سافرة .. لقد عنى المؤلف باظهار بطلته اشد فتنة واروع جمالا بعد السـقطة ، وفى الأيام التى تلتها ، ليبرز شاعرية الخيانة الزوجية . وانى اسائلكم مرة اخرى : هل سمعتم عن صفحات اكثر خدشا للآداب من هذه الصفحات الداعرة ؟

* * *

◆ **اليكم ايضا العبارات المتصلة بعـودة الوازع الدينى .. كانت مـدام « بوفارى » قد مرضت واشرفت على الهلاك .. وخيل اليها انها تحتضر ، فطلبت ان تتناول القربان المقدس . ترى هل تستشعر شيئا مما استشعرته المجدلية النادمة التى يروى الانجيل قصتها ؟ لا ، بل انها ظلت المراة العابثة التى تنشد العبث اينما كان حتى فى اسمى الأمور واقدسها .. فبينما هى فى انتظـار**

القس « احست كان شيئا قويا يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس ٠٠ واذ تخفف جسدها من الفكر ، بدأت حياة أخرى ، فخيل اليها ان كيانها يرقى صاعدا الى الله ، حيث يتلاشى فى ذلك الحب ، كالبخور المحترق اذا ما انصهر وصار بخارا »

بهذه اللغة - يا حضرات القضاة - يعبر الكاتب عن صلاة المرأة المحتضرة ٠ فهل سمعتم قبل الآن عن صلاة يعبر عنها بكلمات الحب والغرام ؟ هل سمعتم عن امرأة فاسقة يوما ، متدينة يوما آخر ، تتجه الى الله بكلمات كالتى ترددها لعشيقها ؟

وبعد هذه العودة الوجيزة الى الدين تصبح مدام « بوفارى » مستعدة للسقوط من جديد ٠ انها تذهب الى المسارح فى « روان » ٠ انها الآن تعود الى ذكرياتها وتفكر : « آه ٠٠ لو أنها فى أوج جمالها قبل أن تعرف لوثات الزواج وصحوات الفسق ، (وهناك من يقولون صحوات الزواج ولوثات الفسق) ٠٠ لو أنها اعتمدت على قلب قوى ، اذن لامتزجت الفضيلة ،والعطف، والملذات ، والواجب ٠٠ ولما هبطت من سماء سعادة كهذه ! »

ذلكم هو كلام الكاتب عن «لوثات الزواج» ، وساكشف لكم عن الخيانة الزوجية فى ابشع صورها ، فلقد التقى «ليون» و « ايما » عند الكاتدرائية ، وحملها على ان تستقل معه عربة ٠ ونحن لا نقرأ الآن وصف وقوع السقطة داخل العربة المقفلة - فقد حذفت المجلة هذه الواقعة مشكورة - على أنها اذا كانت قد اسدلت استار العربة على ما وقع داخلها فقد فتحت لنا باب الغرفة التى كان يجتمع فيها العاشقان :

« ما كان فى الدنيا ما هو أجمل من شعرها البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى - الذى تضفيه الستائر - عندما تثنى ذراعيها العاريتين فى حركة مستحيية ، لتخفى وجهها فى راحتيها ٠٠ وكأنما خلقت الحجرة الدافئة - بستائرها السميكة ، وزخرفها البهيج،وضوئها الهادىء -للخلوات المشبوبة!»

★ ★ ★

◆ هذا ما كان يحدث فى الغرفة ٠ واليكم هذه الفقرة الهامة التى تصور لوحة أخرى من اللوحات الداعرة فى القصة :

« ما كان أقوى حبهما لهذه الغرفة الغالية ، المفعمة بكل هذه البهجة ، رغم روائها الخابى ٠٠ كان كل منهما ينتشى بقرب الآخر ، حتى ليخالا انهما فى بيتهما ، وانهما سيعيشان معا حتى الموت كقرينين كتب لهما الشباب أبدا ٠٠ وكانت اذا ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقاها فى الهواء » ٠٠

اليكم ايضا هذه العبارات - وكانت « ايما » قد بلغت حد الاعياء من اللذة : « كانت تمنى نفسها بسعادة بالغة فى الرحلة القادمة ، على أنها لم تكن تنتظر

أن تجد شيئا غير عادى ٠٠ ولكن خيبة أملها هذه كانت تتلاشى اذ يشع عليها أمل جديد ، فتعود اليه ملتهبة ، ومتعطشة أكثر من ذى قبل ، فتنزع ملابسها بحركة عصبية ، وتذهب على أطراف قدميها الحافيتين ، لترى مرة أخرى ان كان الباب مغلقا ، ثم تسقط بحركة واحدة كل ملابسها وترتمى على صدره فى ارتعاشة طويلة » ٠

انى اذكر هنا امرين : فهذه من الناحية الفنية لوحة رائعة ، ولكنها من الناحية الخلقية لوحة نابية ٠ اجل ان السيد « فلوبير » يعرف كيف يجمل لوحاته بكل ما يتيحه الفن من ادوات التجميل ، ولكن دون ان يتقيد بقيود الفن ! ٠٠ ثم اسمعوا هذه الفقرة :

« وأخذت ايما تضيق به ، كما بدأ «ليون» يضيق بها ، اذ أخذ يدب فى الخيانة الزوجية ما يدب عادة فى الزواج كله من فتور »

فتور الزواج ! وشاعرية الفسق ! ٠٠ احيانا لوثات الزواج واخرى فتوره ، ولكن فى الحالين : شاعرية الخيانة الزوجية ! تلك هى اللوحات التى يحب السيد « فلوبير » ان يرسمها ، وهو - لسوء الحظ - يرسمها فى براعة تامة !

حضرات القضاة ٠٠ لقد قصصت على حضراتكم ثلاثة فصول : فصل «رودولف» ، وقد رايتم فيه السقطة فى الغابة وزهو الزوجة العابثة بها ، ورايتم تمجيد الفسق وكيف ان الكاتب يضفى على الزوجة الفاسقة مزيدا من الجمال بعد السقطة ٠ ثم تحدثت عن عودة الوازع الدينى وكيف صاغ الكاتب صلاة المحتضرة فى كلمات مستعارة من لغة الخيانة الزوجية ٠ واخيرا تكلمت عن السقطة الثانية وسردت عليكم ما حدث مع ليون ٠ واطلعتكم على ما وقع فى العربة المقفلة ، وقد حذفته المجلة ٠ ورايتم حضراتكم ما جرى داخل الغرفة ٠ والآن ونحن نعتقد ان عقيدتنا قد تكونت ، ننتقل الى الفصل الاخير ، فصل العذاب ٠٠ ويلوح ان المجلة حذفت منه عبارات كثيرة ٠ واليكم العبارات التى يشكو بها السيد « فلوبير » من هذا الحذف :

« رات المجلة لأسباب لديها أن تتناول بالحذف بعض العبارات فى عدد أول ديسمبر والعدد الحالى ٠ وانى أبرىء نفسى من هذه التبعة وأرجو من القارىء الا يعتبر هذه الفصول أكثر من أجزاء متنافرة وأنها ليست بحال كلاما متماسكا »

★ ★ ★

◆ نمر اذن بهذه الاجزاء ونصل الى الموت ٠٠ فان « ايما » تتناول السم ٠٠ لماذا ؟ « الموت ٠٠ انه شىء بسيط ٠٠ سانام وينتهى كل شىء » ، ثم تطلب ان يصلى عليها صلاة الموتى ، دون اى اسف لما صدر منها او للانتحار ٠٠ ودون اعتراف باثامها او دمعة ندم تذرفها ٠٠ لماذا تطلب الصلاة وهى تعتقد انها انما تذهب الى العدم ؟ ٠٠ ثم ياتى مشهد الصلاة ، وما ادراكم ما مشهد الصلاة :

تعرفون حضراتكم ان هذه الصلاة تتلى مصحوبة بمسح الجبهة ، والاذنين ، والفم ، والقدمين، بزيت المسحة ، مع تلاوة عبارات معينة تنم عن وجود الخطايا والآثام فى ناحية ، والرحمة والغفران فى الناحية الاخرى ٠٠ فاذا لم تعن بايراد الكلمات بحروفها فلزام عليك فى القليل الا تمزجها بكلمات تاخذها من صور اللذائذ والشهوات الجنسية ٠ ومع ذلك ، فقد قال الكاتب بصددها :

« ادارت وجهها فى رفق ، وبدا كأن فرحة تغمرها لرؤية الكاهن فجأة بجوارها ٠ لا شك أنها وجدت فى هدوء النفس غير العادى السعادة المضيعة التى استشعرتها فى أيام تدينها الاولى ، ورؤى السعادة الابدية التى بدأت تستمتع بها ٠٠ وقف الكاهن ليقدم لها الصليب، فاقتربت منه فى تعطش،وطبعت - بكل قوتها المتداعية - على رمز الانسان الاله قبلة حب لم تعرفها من قبل ٠ وتلا الكاهن الصلاة ثم وضع ابهامه الأيمن فى الزيت واخذ فى أداء مراسم المسحة الاخيرة فدهن العينين اللتين طالما استمتعتا بمباهج الحياة الأرضية ، ثم الأنف الذى كثيرا ما طابت له عطور الحب ، ثم الفم الذى طالما تكلم بالكذب وتأوه صلفا وكبرياء ، ثم اليدين اللتين طالما أحستا بشتى الأحاسيس الآثمة ، والقدمين اللتين كثيرا ما سارعتا بها الى حيث تشبع شهواتها ، واللتين لن تتحركا بعد الآن ٠٠ »

واخذ الكاهن بعد هذه المراسم يتلو صلاة المحتضر ٠٠ « وكلما اشتدت الحشرجة أسرع الكاهن فى صلاته ٠٠ وكان يبدو أحيانا أن كل شىء صامت فيما عدا الكلمات اللاتينية التى كان ينطق بها الكاهن ٠ »

ثم اراد الكاتب أن يخلق ردا على هذه الكلمات ، فاستحدث شخصية رجل ضرير يسير على افريز البيت مترنما باغنية كما لو كانت جوابا لتلك الابتهالات :

« وفجأة سمع وقع أقدام ثقيلة على الافريز وصوت غليظ ينشد : « حمل دفء النهار الصبية على أجنحة الحب ، واشتدت الريح حتى أطاحت بالثوب» ٠

وفى هذه اللحظة فارقت مدام بوفارى الحياة ٠٠ واذن فالصورة تبدو هكذا : صلاة المسحة الأخيرة تتلى فى غرفة المحتضرة ، وفى الناحية المقابلة عازف يثير عند المحتضرة ضحكا قاسيا يائسا اذ تتخيل مرأى الرجل الدميم يبدو فى ظلمة الأبدية شبحا مخيفا ٠٠ ثم انتفضت وهمدت على فراشها ٠٠ وفارقت الحياة ٠

نحن امام الجثة الهامدة ٠٠ ويجىء الزوج منتحبا ويسدل الغطاء على وجه الراحلة ٠ فى هذه اللحظة التى يخشع فيها كل انسان امام رهبة الموت يخط السيد فلوبير آخر خطوط اللوحة : «يهبط غطاء الفراش من عند ثدييها حتى ركبتيها ثم يرتفع عند أخمص قدميها »

ذلكم هو مشهد الموت اختصرته لحضراتكم ، ولكم ان تحكموا فيما اذا كانت هذه الصورة مزجا للأشياء المقدسة بالأشياء المدنسة ، وللطهر باللذة الآثمة ٠٠ ام ان الأمر ليس كذلك ؟!

* * *

◆ والآن وقد رويت لكم القصة بحذافيرها ، وحللتها تحليلا وافيا ، واتهمتها اتهاما صريحا ، اليكم القسم الثانى من مرافعتى : فى جميع الصور التى عرضتها على حضراتكم ، والتى تصف عبث مدام بوفارى وعلاقاتها باشخاص لم يكن يحل لها الاتصال بهم ، فى كل هذه الصور وجدت ولمست خدشا للآداب العامة ومساسا بالدين ·· اما عن خدش الآداب العامة : فهلا ترونه يا حضرات القضاة فى السقطة مع رودولف ؟ الا ترونه فى تمجيد الخيانة الزوجية ؟ الا ترونه على الأخص فى ما جرى مع ليون ؟ ·· اما المساس بالدين فانى اجده فى السقطة الاولى ، وفى كلام الكاتب عن عودة الوازع الدينى ، واجده اخيرا فى مشهد الموت الذى تختتم به القصة ·

امامكم ـ يا حضرات القضاة ـ ثلاثة متهمين هم : السيد «فلوبير» ـ المؤلف ـ والسيد « بيشا » ، الذى قبل الكتاب ·· والسيد « بيليه » ـ الذى طبعه ـ وفى هذه القضية تنعدم الجنحة اذا لم يكن هناك نشر · ولهذا فكل من ساهم فى النشر يجب ان يلقى عقابه · وابادر فاقول ان المسئول الأول هو السيد « فلوبير » الكاتب الذى نبهوه الى حذف بعض العبارات من قصته فاحتج على هذا الحذف · ويليه فى المسئولية الناشر الذى سوف لا تسالونه عما حذف بل عما كان عليه ان يحذف · وياتى اخيرا الطابع وهو رجل فضل ليس لدى ما اقوله فى حقه · ولا اطلب منكم سوى امر واحد وهو تطبيق القانون عليه · ان الطابع يقسم اليمين القانونية ، وعليه ان يقرا ما يطبع ، فاذا لم يقرا فهو مسئول عما يطبع · انه اشبه شىء بالديدبان الأمامى ·· انهو اجاز مرور الجريمة فقد اجاز مرور العدو · خففوا العقاب ما شئتم عن الطابع وخففوه كذلك ما شئتم عن مدير المجلة · اما السيد « فلوبير » الذى يقع على كاهله اكثر عبء الجريمة فينبغى تشديد العقاب عليه الى اقصى حد ·

* * *

◆ اما وقد فرغت من مهمتى كممثل للاتهام ، فعلى ان اقدر ما ينتظر ان تدفع به التهمة وارد عليه من الآن · سيقال دون شك ان القصة اخلاقية بدليل ان الخيانة الزوجية قد عوقبت · واجيب على هذا القول اولا بانه اذا كانت خاتمة القصة اخلاقية فرضا فان هذا لا يعفى الكاتب من اثم الصور الداعرة التى حوتها القصة ، وثانيا ان القصة ليست اخلاقية فى موضوعها باى حال · ولا يمكن ان تبرر الخاتمة تفصيلات القصة · ليس الذين يقراون ما يكتبه السيد « فلوبير » هم رجال الاقتصاد السياسى ، وانما هم فتية سريعو التاثر بما يقراون ، وهم احيانا فتيات او نساء متزوجات ، واذا ما تاثر الخيال وتحدث القلب الى الشعور ، افتظنون حضراتكم ان التفكير العادى يمكن ان يقاوم هذا الانفعال؟

•• وعندى رد ثان : ان قصة « مدام بوفارى » ليست اخلاقية ، اذا نظرنا اليها من الزاوية الفلسفية •• حقيقة انها تموت بالسم ، وبعد أن تتألم كثيرا ، ولكن لا يفوتنا انها لم تمت لأنها كانت امرأة فاسقة ، وانما لأنها ارادت لنفسها ان تموت • وهى تموت فى شرخ شبابها واوج جمالها •• تموت بعد ان عبثت بالفضيلة مع رجلين ، تاركة زوجا يحبها ويعثر بعد موتها على خطابات عشاقها فيزداد حبا لها وهى فى عالم الغيب •• هل توجد فى القصة شخصية حكيمة تنهى مدام « بوفارى » عن فحشها وتذود عن حياض الفضيلة ؟ لا توجد مثل هذه الشخصية • والكتاب خلو تماما من كل مبدأ اخلاقى يؤثم الخيانة الزوجية •

* * *

◆ هل يدان الكتاب باسم الشرف الزوجى ؟•• ان الشرف الزوجى يمثله – فى الكتاب – زوج ضعيف الشخصية، مطواع لأهواء زوجته ،لم يثر فى اية لحظة على الفحشاء •• زوج يلقى « رودولف » بعد موت زوجته فيبحث فى قسمات وجهه عن صورة المرأة التى احبها !•• أم يدان الكتاب باسم الرأى العام؟ ان الرأى العام فى القصة يمثله ذلك الصيدلى واولئك الاشخاص المضحكون الذين يحيطون به والذين تسيطر عليهم جميعا مدام « بوفارى » •• اذن ، فهل يدان باسم الشعور الدينى ؟ ان الشعور الدينى تمثله فى الكتاب شخصية الكاهن ، وهو شخصية لا تفضل شخصية الصيدلى •• هل تدينونه باسم شعور المؤلف ؟ لست اعرف ما هو شعور المؤلف ، وانما اقرأ فى القسم الفلسفى الوحيد من الكتاب هذه العبارة : « تعترونا الدهشة دائما كلما مات أحد الناس ، ذلك لأنه يصعب علينا كثيرا فهم مجىء العدم والاقتناع بحقيقة ذلك »

انها ليست صرخة الحاد وانما هى صرخة شك •• لم هذه الدهشة التى تبدو عند الموت ؟ •• لأن الموت سر غامض يصعب فهمه والحكم عليه ومع هذا يجب التسليم به • وانا اقول انه اذا كان الموت هو مجىء العدم، وكان الزوج يزداد حبا لزوجته اذ يعلم بخياناتها ، وكان الرأى العام ممثلا باشخاص مضحكين، والفكرة الدينية ممثلة بذلك الكاهن المادى ، فان « ايما بوفارى » هى المحقة وحدها ، وهى الشخص الوحيد الذى يسود الموقف •

تلك هى النتيجة الفلسفية التى تستخلص من الكتاب • لا كما يستخلصها المؤلف بل كما يستخلصها رجل بحث وتعمق الامور ••

* * *

◆ لكل شىء تفسير فى الآداب المسيحية التى تسود الحضارة الحديثة •• هذه الآداب تؤثم الزنا ، لا لأنه سراب واوهام يصحو منها الانسان نادما آسفا ، وانما لأنه جريمة ترتكب ضد الاسرة •• ونحن ننبذ الانتحار لا لأنه عمل جنونى ، وانما ننبذه لما ينطوى عليه من جبن ومن امتهان للواجب ، ومن انكار لحقيقة الحياة بعد الموت

ان الآداب المسيحية تنبذ المؤلفات الواقعية ، لا لانها تصف شهوة البغض أو الانتقام أو الحب ، فان الحياة تدور حول هذه جميعا ، وينبغى للفن ان يصفها . ولكن عندما يصفها الفن غير ملتزم حدودا او قاعدة، لا يكون فنا وانما يكون اشبه شيء بامراة تتجرد من كل ملابسها !

مرافعة الدفاع

◆ حضرات القضاة : السيد جوستاف فلوبير متهم امام حضراتكم بانه الف كتابا فيه خدش للآداب العامة ، ومساس بالدين .. انه يقف الى جوارى مقررا ان الكتاب الذى الفه ينطوى على فكرة اخلاقية ودينية . لقد سمعتم منذ لحظات تشويها لهذا الكتاب، ولكنكم - عندما يزال هذا التشويه - ستلمسون الفكرة على حقيقتها كما لمسها الذين قراوا هذا الكتاب . وهى فكرة تقوم على تقديس الفضيلة عن طريق كشف سوءة الرذيلة ...

لقد تعمق السيد « فلوبير » فى دراسته ، فلم يقتصر على دراسة الأدب بل درس الحقوق ايضا .. انه ليس بالرجل الذى يقنع بملاحظة البيئة المحيطة به ، بل الرجل الذى يستجوب بيئات اخرى . لقد زار ايطاليا ، ومصر ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى . واغترف من مناهل هذه البلدان شاعرية كانت له غذاء روحيا ، ومنهلا لا ينضب من المعرفة . والصور التى تجمعت فى ذهنه من زيارته لتلك الأقطار هى التى صنع منها اللوحات الفنية التى ضمنها مؤلفه .. فقد عاد السيد « جوستاف فلوبير » من رحلته فى سنة ١٨٥٢ ، وعكف على تدوين النتائج التى حصل عليها من تلك الرحلة . ترى ما هو الاطار الذى اختاره ، وماذا كان موضوع بحثه ؟.. ان موكلى لا ينتمى الى اية مدرسة فلسفية من المدارس التى اشارت اليها النيابة . لا ... انه ينتمى الى المدرسة الواقعية، من حيث انه يتشبث بواقعية الأشياء . وقد يقال انه ينتمى الى المدرسة الروحانية ، من حيث انه قلما يعنى بالجانب المادى وانما يعنى اكثر ما يعنى بالشعور الانسانى وارتقاء الانفعالات عند البيئات التى مر بها . بل انه ينتمى على الأصح الى المدرسة العاطفية ..والذى قصده فى الواقع من مؤلفه هو ابراز صور حية ياخذها من البيئات الوسطى . فهو يختار بضع شخصيات يصف بها اشياء من واقع الحياة . قالت النيابة عند تلخيصها لموضوع الكتاب انه يمكن اعطاؤه عنوانا يطابقه هو « قصة خيانات زوجة من الأقاليم » ، وانى احتج احتجاجا صارخا على هذا العنوان . والصحيح اذا اردنا ايجاد عنوان آخر ان نقول انه قصة التربية التى كثيرا ما تلقن فى الاقاليم .. قصة الاخطاء التى يمكن

ان تؤدى اليها هذه التربية .. او قصة الانتحار كثمرة لزلة اولى .. زلة ترتبت على اخطاء تسبقها ، من تلك الاخطاء التى كثيرا ما تنزلق اليها اية فتاة .. هذا ما اراده السيد « فلوبير » ، كما سنرى عندما نقلب معا صفحات الكتاب المطعون فيه .

★ ★ ★

◆ انصرف هم ممثل الاتهام الى ابراز ما اسماه باللوحات الداعرة فى القصة . ولو انى احصيت العبارات التى اقتطفها من القصة بالقياس الى السطور التى تركها ، لكانت النسبة واحدا الى خمسمائة

والآن ، ما الذى اراد مسيو فلوبير ان يصفه ؟ .. لقد اراد ان يتحدث عن امراة تلقت ثقافة اعلى من مستواها ، فلما جاء الزواج ، لم يراع ان يكون ملائما للثقافة ، وانما روعيت ملاءمته للظروف التى ولدت فيها الفتاة .. وشرح الكاتب كل ما يترتب على هذا الوضع .. وماذا يعرض ايضا ؟ انه يصور امراة تنساق – نتيجة عدم التكافؤ فى الزواج – الى الرذيلة .. رذيلة من احط واتعس درجة . ولسوف اسالكم عندما افرغ من تعريفكم بالكتاب : هل هذا الكتاب ، اذا ما قراته فتاة ، يدفعها الى الرذيلة ام يحذرها ويبصرها فلا تقدم على اية خطوة قد تودى بها الى مثل المصير الذى لقيته « مدام بوفارى » ؟!

اراد المسيو فلوبير ان يروى قصة امراة كان عليها ان توائم بين حالتها وحال زوجها الطبيب الريفى وان تطرح ظهريا ثقافتها التى تعلو ثقافة زوجها . ولكنها بدلا من هذا اطلقت لخيالها العنان وانساقت وراء الاوهام ، فراحت تنشد حياة ارقى فى امكنة اخرى غير بيت الزوجية .. لقيت شابا واتصلت به وكان الاثنان من حداثة السن بحيث لم يتوفر لهما من الخبرة بالحياة ما يقيهما الفتنة .. وهى اذ ترجع الى تربيتها الدينية فى الصغر لا تجد فيها ما يقوى روحها ويرتفع بها عن الدرك الذى هوت اليه .. وتلتقى هذه المراة بعد سقطة اولى ، برجل آخر من هؤلاء الرجال الذين نصادفهم بكثرة فى المجتمع فيعبث بها ويغرسها على صنوف الرذيلة .

اشتد غضب النيابة مما ذكره الكاتب عن انطلاق المراة من سجنها ، وعن الغبطة التى استشعرتها عقب السقطة الاولى . والواقع ان هذا احساس طبيعى لم يكن للمؤلف بد من ان يصفه كما هو . وهو بعد هذا الوصف بسطور قلائل ، يصف رد فعل هذا الاحساس فيقول : « انها تبدو فى نظر نفسها مهينة ذليلة » .

اجل انها تستشعر على الفور خيبة الأمل والألم ، ووخز الضمير . ان الرجل الذى استسلمت اليه انما استحوذ عليها لاشباع شهوة عارضة .. لقد صدمتكم عبارة « الصحوة من الفسق » وانتم تؤثرون عليها عبارة « لوثة الفسق » ولكن الكاتب الذى يريد ان يصف امراة تخون عهد الزواج ، وتنشد النعيم بعيدا عنه ، يكون محقا اذا عبر عن هذا المعنى بعبارة « لوثة الزواج » .

وهناك ايضا نقطة اود ان اوجه اليها انظاركم بنوع خاص وهى ان السيد « فلوبير » يتبع دائما خطوات الخيانة الزوجية بالالم وتبكيت الضمير ، وهو يجعل العقاب سريعا لا يطول انتظاره . فليس ثمة اوقات تستمتع فيها المراة طويلا بالمتع المحرمة .. وانما هناك جزاء صارم يتبع السقطة . وقد قال احد المعقبين انه اذا كان هناك ما يلام عليه مسيو فلوبير فهو انه جعل العقاب غاية فى الصرامة .. لقد كتب هذا الكتاب بمقدرة فائقة ، مبنية على الملاحظة .. مقدرة شهد بها ممثل الاتهام وهى بادية فى كل سطر من سطوره ... فابرز ما فى الكتاب هو الامانة التى توخاها الكاتب فى وصف ما يفتعل فى القلب . ولو ان الكاتب لم يتوخ هذه الامانة لجاز القول بانه استطاب وصف مشاهد الانحطاط ببراعته المبنية على الملاحظة والوصف .. لكنه عنى بحياة « ايما » فى مختلف مراحلها . عنى بطفولتها وتربيتها فى الدير ولم يترك شيئا .. ان الذين قراوا الكتاب من اوله الى آخره يقولون : ان السيد فلوبير عندما يصل الى المشاهد الصعبة لا ينحو منحى كتابنا الاعلام الذين يصفون الصلات الجنسية وصفا مفصلا ، بل يكتفى بكلمات عابرة . ولعل هذا جدير باقصائه تماما عن مواطن الاتهام . هنا تختفى كل براعته فى الوصف ويحتجب سحر اسلوبه لان فكرته بريئة . فهو يتورع عن الاطالة والتبسط .. وعندما اطلعكم على ما كتبه فى مثل هذه الموضوعات فلاسفة عظام نجلهم .. فسوف ترون ان الاتهام لا يقوم على اى اساس . لقد وصف السيد « فلوبير » « ايما » فى طفولتها فتحدث عن مرحها ولعبها .. فهل اذا وصف ما جرى لها فيما بعد من تلوث ، يقال له قف ولا تخض فى هذا . ان الصورة تفقد كل واقعيتها اذا اقتصرت على وصف الجانب الاخلاقى من القصة .. اذا حذف منها حديث الخطا والخطر والتردى وما يعقبه من عقاب

* * *

◆ ومن عبارات التقدير العديدة التى ابداها بعض كتابنا ، تقدير من شخصية عظيمة نجلها لآثارها الادبية الرائعة ولعفة اسلوبها ونقاء مؤلفاتها جميعا . هذه الشخصية هى .. « لامارتين » . ان « لامارتين » لا يعرف موكلى . ولكنه قرا القصة فى اعداد المجلة التى نشرتها .. وقد حضر منذ بضعة ايام الى باريس قادما من منزله الريفى ، فكان اول ما عمله ان اوفد سكرتيره الى ادارة المجلة ليحصل على عنوان السيد « فلوبير » ، ثم عهد اليه ان يبلغه صادق تقديره لعمله الرائع واعجابه به كمؤلف ناشىء ، ورغبته فى ان يراه . ذهب اليه موكلى ، فلم يلق منه الثناء والتشجيع فقط ، بل قال له : « لقد اتحت لى تحفة ادبية لم يقع فى يدى مثيل لها منذ عشرين عاما » . وقال « لامارتين » للسيد فلوبير : « اننى الومك على الصفحات الاخيرة ، فقد جعلت عقاب الخيانة الزوجية شديدا أكثر مما ينبغى . لا شك ان المراة التى تدنس فراش الزوجية يجب

أن تلقى عقابا صارما ، ولكن العقاب الذى جئت به كان مرعبا حقا • لقد أساءت الى أعصابى فقد كانت آلام الساعة الأخيرة فوق ما يطاق سماعه »• وعندما ساله مسيو فلوبير عما يرى فى امر تقديمه للمحاكمة بتهمة خدش الآداب العامة والمساس بالدين قال : « أظن أنى فى كل مؤلفاتى قد أدركت ما هى الآداب العامة والدين ، كما لم يدركها رجل آخر • وانى اعتقد يا بنى انه لا توجد فى فرنسا محكمة يمكن ان تدينك » • هذا ما حدث بالأمس بين « لامارتين » و « فلوبير » ،ومن حقى ان اقول لكم ان هذا التقدير يستحق ان تزنوه وان تكون له عندكم قيمته الحقة ••

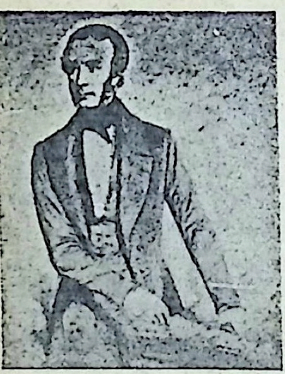

مسيو « سينار » ، المحامى الذى تولى الدفاع عن «جوستاف فلوبير»

★ ★ ★

◆ والآن ، كيف كان هذا الكتاب موضع محاكمة ؟ كانت لجنة القراءة فى المجلة التى نشرته تباعا ، قد تسلمت نسخة مخطوطة من الكتاب قبل نشره بزمن ، فلم تجد فيه مطعنا • وعندما وصلت ادارة المجلة الى القسم الذى كان مقررا نشره فى عدد اول ديسمبر سنة ١٨٥٦ ، ثار أحد مديريها على مشهد اجتماع « ايما » بـ «ليون» فى العربة المقفلة ، وقرر حذفه • واعتبر « فلوبير » ان فى هذا الحذف اساءة له ، واشترط اثبات ذلك الحذف فى الهامش ، حفظا لكرامته كمؤلف وحرصا منه على الا يشوه كتابه •

كانت الفقرات التى يراد حذفها تتحدث عن ذلك اللقاء الذى تم عند الكاتدرائية ، وصعود « ايما » بشبه ضغط من « ليون » الى العربة المقفلة ، واسدال استار العربة ، والنزهة التى طال امدها •• وذلك الصوت من داخل العربة يامر السائق ـ كلما توقف ـ بان يواصل السير • وكان السائق لا يفهم لماذا يريد الراكبان مواصلة السير ••• وانما كانت تطرق سمعه بين حين وآخر صيحات غضب ولكنه لم يكن يلقى باله لما يحدث ، اذ أعياه التعب والعطش والضيق •• وهكذا ، حتى يصل السياق الى وصف مبارحة «ايما» للعربة وقد استشعرت فى نفسها ذلة الخضوع الذى تستشعره كثير من النساء كعقاب وثمن فى وقت معا للخيانة الزوجية ••

ولم تكن ادارة المجلة موفقة أى توفيق فى حذف هذه العبارات .. فقد كان يجب ان يتناول الحذف كل حديث عن العربة والا فهو بغير معنى .. وكل ما نتج عنه هو تنبيه المختصين فى مكتب مراقبة النشر الى احتمال وجود امر محظور . ومن هنا كانت القضية . فلست اغالى اذن اذا قلت ان القضية انما نشأت من هذا الحذف غير الموفق .

قالوا فى مكتب مراقبة النشر : يجب التحرز مما سينشر فى الأعداد التالية . ان هؤلاء الموظفين لم يعنوا بقراءة كل شىء ، فلما عرفوا ان شيئا كتب عن امرأة تجردت من كل ملابسها ، ثاروا دون ان يطلعوا على ما يلى هذه العبارة .. لم يقل « فلوبير » شيئا مما يقوله شعراؤنا وكتابنا الآخرون فى وصف الذراع الرخامى والبشرة الناعمة وفى وصف المخدع وما اليها – على انه قال : « انها استسلمت .. فسقطت ملابسها »

هذه العبارة من العبارات التى يستند اليها الاتهام . أفيريد الاتهام ان يحظر كل وصف ؟ ثم ان العبارة لا تقف عند النقطة التى وقف عندها ، بل هناك بقية تكملها : « على انه كان فوق هذا الجبين المغطى بقطرات باردة ، وعلى هاتين الشفتين المتلعثمتين ، وفى هاتين العينين الغائرتين ، وهاتين الذراعين المشدودتين احداهما الى الاخرى ، شىء غامض ، محزن ، خيل للمرء انه ينساب بينهما فى رفق ليباعد بينهما » .. هذه العبارات لم تقرأ فى مكتب مراقبة النشر ، والنيابة فى مرافعتها لم تلق اليها بالا ..

* * *

◆ تقول النيابة اننا وصفنا هذه المرأة بالدعارة فى مختلف ادوار حياتها ، والواقع اننا قلنا عنها انها ولدت فى الريف ونشأت فى مزرعة ابيها حيث كانت تعنى بكل شىء . لقد صورناها فى المكان الذى شاء ابوها ان يضعها فيه ، وهو الدير الذى تولى تثقيفها كفتاة ريفية .. كان مصيرها ان تظل ريفية وان تتزوج من ريفى . تحدثتم ياسيدى النائب عن هفواتها الصغيرة التى كانت تذكرها للكاهن عندما تذهب لكرسى الاعتراف ، ونسبتم الينا الخطأ فيما قلناه بهذا الصدد . والحقيقة ان الخطأ من جانبكم انتم . لقد ادخلت الفتاة الدير .. وهذا نقطة هامة اراد الكاتب ان يبرزها وهى تتصل بالدين . ان للنشء دينا خاصا بهم يلقن لهم وهو فى رأيى اسمى الأديان . انى اؤمن بانه لا شىء يمكن ان يشد من ازر الانسان فى الضائقات والشدائد ويرتفع به فى الملمات سوى الدين . واريد ابنائى ان يعرفوا الله .. الله فى بساطته ، يتوجهون اليه بالصلاة ويفضون اليه بحاجاتهم . وهذا ما يفعله الدين المسيحى . وهو ايضا يجعل بين الناس والخالق وسطاء ، تيسيرا للتواصل بينهم وبينه ، كالعذراء . ولست ارى فى هذا ضيرا على الطهر والقداسة . وانما الذى اراه

ضارا هو تلك الصور وتلك الايقونات والتماثيل الصغيرة التى كثيرا ماتكلف بها عقول الصبية ، والصبيات على الخصوص ، فتحدد بها فكره الدين وتنحصر فيها • وبذلك يستحدثون لانفسهم دينا ضيقا • وبدلا من التوجه الى الله بالصلاة يألفون العبادات الصغيرة وتوافه الافكار الدينية التى تجعلهم يعيشون فى عالم من احلام ايقظة ، ثم تاتى شاعرية الدين فيسمع الاحداث احديث عن العشق واسب وتتاثر عقليتهم الغضة بمثل هذه المشاعر ويرون الدين وكانه طائفة من الاحاسيس •

والذى اراد مسيو فلوبير ان ينبه اليه ويحذر منه هو تلك الصغائر التى يالفها الاحداث من التربيه الدينية السائدة :

« كانت الصبية قد قرأت بعض الكتب واستمعت الى شتى الأحاديث الدينية التى كانت تلقى فى الدير على مدى الأسبوع وتأثرت بها • وكانت تريد ان تخلص منها بفوائد شخصية لها » •• ترون الآن كيف احتاط الكاتب فى ادخال تلك الفتاة الى الدير •• « •• كانت تعرف بعض الأغنيات القديمة وترددها بصوت خافت وهى تغرس ابرتها •• وكانت تحمل دائما بعض الروايات تقرأ منها فقرات فى أوقات الراحة التى تتخلل عملها » ••والحق ان هذا بديع من الكاتب الذى يريد ان يكشف عن اخطر مثل هذه التربية •

« ••• ولما بلغت الخامسة عشرة كلفت بقراءة عدة مؤلفات فى التاريخ •• وعرفت منها الكثير عن سلوك بعض الشخصيات التاريخية وانحرافاتها ••وفى فصل الموسيقى عرفت الموسيقى الملهبة » •

★ ★ ★

◆ كيف لم تذكروا كل هذا عندما تعود هذه الفتاة الريفية الى المزرعة ويتفق لها ان تتزوج من طبيب قرية وان تدعى لحفلة ساهرة قصيرة ؟ ورحتم تعودون ان الرقص الذى رقصته فى السهرة هو احدى الصور الداعرة !•• ليس اللوم على الوصف ، وانما لوموا اذا شئتم رقصة «الفالس» التى يرقصها الناس فى مراقصنا الحديثة •• هذه الرقصة فى الواقع ليس بيننا من لا يريد ان يصد زوجه او بناته عنها ، لما فيها من دواعى اسق على العفة والطهر • فهل تلومون مسيو فلوبير اذا وصفها وصفا صحيحا لتنبيه الآباء والأمهات الى مافيها من خطر خلقى ؟

ثم هذه فتاتنا قد اصبحت زوجة • يقول السيد النائب : ترى هل حاولت ان تحب زوجها ؟•• انت ياسيدى لم تقرأ الكتاب ولو انك قرانه ما ابديت هذا الاعتراض • ان الكاتب يقول فى صفحة ٣٤ ان هذه المراة كانت اول الأمر حالمة شاردة الفكر • وهناك ايضا ماهو اكثر دلالة على هذا المعنى وانى ارجوكم هنا ان تتابعوا معى القراءة فى صفحة ٣٣

« لقد برح بها الحزن والألم لموت أمها .. وطلبت فى رسالة لها الى (برتو) - مليئة بالانفعالات الحزينة - أن تدفن بعد موتها الى جوار أمها ..واستشعرت « ايما » الرضى عن نفسها لوصولها بهذه السرعةالى الشعوربتفاهتها،واسترسلت فى آلامها متأملة فى موت الطيور وسقوط أوراق الشجر ، وفى أولئك العذارى الصاعدات الى السماء .. وأخيرا أدهشها أن تجد نفسها مطمئنة وأن ترى الكآبة تفارقها » .. بهذه العبارات ارد على ماقاله الاتهام من ان بطلة القصة لم تبذل اى جهد لكى تحب زوجها .

النيابة : لم أقل هذا وانما قلت انها لم تفلح فى ذلك .

الدفاع : انى آسف يا سيدى .. لقد حسبت انك قلت هذا ، واذ لم تكن اديت هذا النقد فهذا خير جواب يمكن الاجابة به ، ومهما يكن من امر فهذا ماأقرأ فى نهاية صفحة ٣٦ « ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بانها تحبه وفقا للنظريات التى كانت تؤمن بها .. كانت تردد على مسمعه - فى الحديقة ، وفى ضوء القمر - ماكانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب وتغنى له - وهى تتنهد - بعض الالحان المشجية .. بيد أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما أن « شارل » لم يكن يبدو أكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء .. واقتنعت فى النهاية بان عاطفة زوجها لا تتأجج فى نفسه »

* * *

◆ والآن يبدأ الخطر . تعرفون حضراتكم كيف تربت وكيف تثقفت .وانى ارجوكم بالحاح ان تذكروا ذلك الآن والا تغفلوا لحظة عن تذكره .

ما من احد قرأ الكتاب الا وقال ان السيد فلوبيرفنان بارع ورجل ذو قلب كبير فى وقت معا ، اذ أنزل فى الصفحات الست الاخيرة كل السخط والاحتقار على المراة ، ووجه كل الاهتمام الى الزوج . انه فنان ايضا لانه ترك الزوج الى آخر القصة كما هو : رجل طيب تافه يؤدى واجبات مهنته ويحب زوجته حبا جما ولكنه قليل الثقافة مجرد من كل سمو فى التفكير . وهو عند سرير زوجته المحتضرة، الرجل نفسه الذى كانه من قبل . لماذا ؟ لأنه الرجل الذى ادى واجبه بينما خانت الزوجة العهد واخلت بالواجب . كان موته جميلا ومؤثرا ، قدر ما كان موت الزوجة كريها وبشعا . لقد عنى المؤلف بان يترك على جثة الزوجة آثار القىء الذى سببه السم والذى لطخ الاكفان البيضاء التى ستلف فيها ، واراد ان يجعل من هذا المشهد امرا تقشعر له النفس .

ان السيد « فلوبير » يبرز دائما سمو الزوج الى جانب تردى الزوجة . سمو الرجل الذى يؤدى واجبه كاملا وتردى المراة التى تخون العهد وتخل بالواجب .

ينعى السيد النائب على المؤلف ان وخز الضمير فى القصة لا يلى السقطة

مباشرة • فالبطلة تردد بعد السقطة فى زهو وخيلاء : « ان لى عاشقا •• ان لى عاشقا ! » • والواقع انه لو سار المؤلف على النهج الذى تريده النيابة لجانب الحقيقة • فالكاس ما تزال على الشفتين ، ولم يبلغ شاربها الثمالة ، فكيف تريدونه أن يستشعر مرارتها ؟•• قد يكون من الاخلاق ان يتبع الكاتب اسلوب النيابة ، ولكنه فى هذه الحال يجافى طبيعة الامور •• لأن الشعور لا يتنبه فى أعقاب الزلة الاولى والا ما ارتكبت • اجل انها لحظة النشوة التى تنحدر فيها المشاعر الانسانية • على ان هذه النشوة لا تدوم طويلا • فهل راجعتم الصفحتين ٤٢٤ و٤٢٥ ؟ ارجو ان تراجعوا ايضا صفحة ٤٢٨ •• « لم يبد بعد على العاشق شعور الضجر ومع هذا فهى منذ الآن تشعر بالخوف والضجر • انها تفحص وتنظر ولا تريد بحال ترك « رودولف » •• ان شيئا أقوى منها كان يدفعها نحوه الى حد أنها حينما ذهبت اليه فجاة فى أحد الأيام عبس كانما هو يضيق بها » •• « زادت مخاوفها من ناحية « رودولف » وملكت عليها مشاعرها •• ولكن رودولف قد أصبح ضرورة من ضرورات حياتها وهى تخشى أن تفقد منه شيئا •• وعندما كانت تعود من عنده كانت تلقى على كل ماحولها نظرات قلقة » •

ترون حضراتكم انها لم تكن مخدوعة ، وانها تشعر بان فى الجو شيئا مما لم تكن تحلم به •• اقراوا هذه الفقرة :

« وبدا لها كان حب رودولف يتلاشى كما يتلاشى ماء النهر يمتصه مجراه شيئا فشيئا • انها الآن ترى الوحل غير أنها لا تصدق عينيها •• ضاعفت علائم حبها له ، ولكن كلفه بها كان يقل أكثر فأكثر •• انقلب الشعور بمذلة الضعف شعورا بالضغينة نحو رودولف ، ولم يكن يخفف من غلواء هذا الشعور سوى ما بقى بينهما من لذائذ الهوى • لم يعد ثمة تعلق يربطها به وانما غدا الأمر مجرد اغراء وخداع دائم • كان يخضعها لسيطرته وكانت هى فى خوف ووجل من ذلك » •

وانت تخشى ياسيدى النائب ان تقرا الفتيات هذا • اما انا فلا اخشاه • ان الذى يخلص من هذه الفقرات يمكن تلخيصه فى نصح يسديه اب الى فتاته فيقول لها : انظرى يابنيتى • اذا لم يكن لك من تربيتك وخلقك ودينك مايدرا عنك غائلة الغواية ، فتبصرى وتاملى ذلك الازدراء والاحتقار ، وتلك الآلام وخيبة الرجاء التى تنتظر المراة حين تنشد السعادة خارج بيتها • تلك هى الصورة التى افرغ فيها مسيو فلوبير نصحه للفتيات • افيضيركم هذا ؟

★ ★ ★

◆ لنواصل السير فى طريقنا • هانحن نبلغ الصحو من الأوهام وما يصحبه من احداث • انكم تعترضون على صلاتها بليون ، ولكن هذه الصلات

ستكلف مدام « بوفارى » عما قليل ثمنا غاليا . لقد نشدت سعادتها بعيدا عن الواجب الزوجى ، فلم تجد سوى المهانة والذل واليقظة من الأوهام .. ترى هل من مزيد لهذه الاهانة ؟ لا ، بل انها مهانة تفوق كل وصف !

وتقول لرودولف انها تختنق وانها لم تعد تطيق البقاء فى منزل الزوجية الذى لوثته بعارها وتهيب به ان ينتزعها من زوجها . ولكنه يقيم لها دليلا جديدا على أنانيته . فيرفض ما تعرضه عليه . ثم تلحف فى الرجاء فيقبل ، ثم يابى من جديد ويرسل لها فى اليوم التالى بخطاب يصدمها بل يصعقها .

هل يمكن ان تعيدها هذه الآلام الى صوابها فتتنبه الى واجبها ؟ ولكنها فى هذه الآونة تلقى الفتى الذى عبثت معه وقت ان كانت تعوزها التجـربة والاختبار .

★ ★ ★

◆ انتقل الآن الى الكلام عن تهمة المساس بالدين . المساس بالدين ، فى اى شىء ؟ لقد حسب السيد النائب مسيو « فلوبير » من اهل الالحاد ، ولسنا هنا فى مقام التحدث عن العقيدة الدينية ، وانما امامنا كتاب نتفحصه لنرى هل من مطعن يوجه اليه ام هو كتاب اخلاقى مفيد .. وانى اتحدى الاتهام ان يدلنى على شىء بين دفتيه فيه مساس بالدين . رايتم حضراتكم كيف دخل الدين فى تربية « ايما » ، وكيف شوهت الآراء الدينية التى كانت تدرس لها بحيث لم تسعفها ، ولم تسندها ، ولم تمنعها من التردى فى الرذيلة . اتريدون ان تعرفوا باية لغة يتكلم السيد « فلوبير » عن الدين ؟ اليكم هذه السطور القلائل التى ساتلوها عليكم ماخوذة من الكتاب فى الموضع الذى يتحدث فيه المؤلف عن السقطة الأولى :

« فى احدى الأمسيات ، كانت « ايما » جالسة قرب نافذتها تطل منها على المرج المجاور ، حين سمعت فجاة جرس الكنيسة ينبه الى صلاة المساء . كنا فى اوائل شهر أبريل حيث تتفتح الازهار ، وتبدو الحدائق أشبه بالنساء اذ يتزين تأهبا لاستقبال مباهج الصـيف .. وحملتها هذه المشاهد عـلى أجنحة الخيال فاستغرقت فى لجة من الذكريات . ذكريات الطفولة ، وذكريات اقامتها فى الدير . تذكرت الثريات الضخمة فى صحن الكنيسة ، وأوانى الزهر تنتثر فى شتى ارجائها . كانت تود لو ظلت بين رفيقاتها المحجبات بالأقنعة البيضاء .. وتذكرت الراهبات جاثيات على ركبهن يتعبدن الى الله »

هذه هى اللغة التى عبر بها عن الشعور الدينى . ومع هذا تقول النيابة ان فكرة الالحاد تسود الكتاب من الفه الى يائه . اين ؟ .. هذا هو الكتاب بكامله لتقضى فيه المحكمة . وستجده من غير شك مطبوعا بالطابع الدينى بحيث يبين فى وضوح ان الصاق تهمة الالحاد بكاتبه فرية فاضحة . اليكم ايضا هذه

العبارات ، عندما خالت « ايما » عقب الحمى المخية انها تحتضر ، فطلبت الكاهن لتتناول القربان المقدس : « احست كان شيئا أقوى منها يسيطر عليها ويزيل كل آلامها ويجردها من كل وعى وكل شعور . رق جسمها ولم يعد له ثقل ودخلت فى حياة جديدة وبدا لها كان كيانها يصعد الى الله . انها ستفنى فى هذا الحب كالبخور المحترق يتبدد فى الهواء .. »

★ ★ ★

◆ ولعل فيما قلته ما يدفع تهمة المساس بالدين من اساسها . بيد ان النيابة تقول : « ان الذى مسستموه ليس الدين وانما هو الأخلاق التى توارثتها الأجيال، مسستموها اذ مسستم الموت » ..فبأى صورة مسسنا الموت؟ .. تقول النيابة : مسستموه بشخصية ذلك الضرير الذى جعلتموه يسير بخطواته الثقال على الافريز تحت نافذة المراة المحتضرة ، وذلك الضرير المتسول الذى كانت « ايما » تدس فى يده بعض النقود وهى عائدة من زياراتها العابثة ، والذى طالما انشدها اغنيته الماجنة ، ينشدها لها فى اللحظة التى كانت تستمطر فيها الرحمة من السماء .. انتم ترون فى هذا مساسا بالموت .والحال ان السيد « فلوبير » لم يفعل سوى ما فعله « شكسبير » وما فعله « جوته » .. فقد درج هذان الروائيان - فى رواياتهما - على ان يقرنا مشهد الاحتضار باغنية تطرق سمع المحتضر ، تذكيرا له وهو على ابواب الابدية ببعض المباهج الدنيوية التى لن يستمتع بها بعد الآن ، او ببعض الخطايا التى ينبغى له ان يكفر عنها .. وتمضى قصتنا بعد ذلك تصف مشهد اللحظات الأخيرة من الاحتضار وصفا مؤثرا للغاية ، وصفا قال فيه « لامارتين » انه لم يقو على المضى فى قراءته . وانى اجتزىء منه هنا بسرد العبارات التى تنعاها النيابة علينا :

« كان شارل فى الجانب الآخر من سرير المحتضرة ، وكان الكاهن كلما اشتدت الحشرجة ، أسرع فى ابتهالاته التى كانت تختلط بانتحابات بوفارى .. وكان يبدو أحيانا أن كل شىء يتلاشى فى تلاوة العبارات اللاتينية يرددها الكاهن فيسمع لها رنين كرنين الجرس .. وفجاة سمع وقع أقدام فى حذاء غليظ تخطو على الافريز ، يختلط بقرقعة عصا ، وارتفع صوت خشن ينشد : « كثيرا ما يحمل دفء النهار الصبية على أجنحة الحب » .. ونهضت « ايما » كجثة بين يدى محنطها ، وقد تشعث شعرها وتصلبت عيناها .. وجعلت تضحك فى قسوة ويأس ، وقد تخيلت وجه الرجل البائس الدميم ، يقوم فى ظلمة الأبد كشبح مخيف .. وشهقت شهقة اردتها على الفراش . واقترب الجميع منها .. لقد فارقت الحياة ! » .

تأملوا ، ياحضرات القضاة ، هذا المشهد الذى افرغ فيه المؤلف كل فنه

ليصور تذكر الأخطاء الماضية ، ووخز الضمير . انه ليس مقارنة عديمة الجدوى والمغزى الأخلاقى .. ها هو ذا الرجل الضرير الذى يردد فى الطريق تلك الاغنية التى طالما طرقت سمعها وهى عائدة بعد زياراتها الآثمة ، الضرير الذى يتعقبها حتى اللحظة الأخيرة التى تهبط فيها رحمة السماء ، فيتمثل فيه الغضب البشرى يلاحقها فى لحظة الموت الرهيبة . والنيابة تسمى هذا خدشا للآداب العامة !.. ويمكننى القول بانه تمجيد للآداب العامة !!

ان المؤلف يسالنا فى كل صورة من الصور التى رسمها لنا : هل فعلتم فى تربية بناتكم ما يجب ان يعمل ؟ هل الدين الذى علمتموهن هو الدين الذى يسندهن وسط عواصف الحياة ، أو هو حشد من الخرافات الحسية يتركهن بلا سند عندما تعصف العاصفة ؟ هل علمتموهن أن الحياة ليست تحقيقاللأوهام والأخيلة وانما هى وضع واقعى ينبغى لنا ان نوائم بينه وبين ذواتنا ؟ .. هل قلتم لهن : يابناتنا المسكينات ..لن تجدن فى الملذات التى تنشدنهاسوىالسآمة التى تنتظركن ، وترك البيت،والتقلقل،والاضطراب،والمهانة،والذل،وما اليها ؟

تقول النيابة : ولكن هذه المراة تموت فى اليوم والساعة اللذين تحددهما لنفسها ، وهى تموت لأنها تريد أن تموت ، وتقول : اكان يمكنها ان تبقى على قيد الحياة بعد كل هذا الذى حل بها من المصائب والويلات ؟ هناك كتاب اعلام ، ياسيدى النائب ، صوروا نساء عابثات ينعمن فى الثراء ويخالطن ارقى شخصيات المجتمع . افعندما نصور امراة تلقى هذا المصير المحزن الذى لقيته مدام بوفارى ، يقال اننا خدشنا الآداب العامة ؟وقالت النيابةايضا:انكماستحدثتم شخصية كاهن مادى . وارد على هذا القول باننا اخذنا هذه الشخصية كما اخذنا شخصية الزوج من واقع الحياة .. ولم ننح منحى كتاب آخرين صوروا شخصية رجل الدين فى مؤلفاتهم تصويرا غير لائق .. انكم تجدون صورا من هذا النوع فى مؤلفات «بلزاك» و « فيكتور هوجو » . ولم نقل انالكاهن رجل اباحى او جشع وانما قلنا انه رجل على قدر متواضع من الثقافة يؤدى واجبه ككاهن فى القرية على الوجه العادى المالوف . وفضلا عن هذا وضعنا امام هذه الشخصية شخصية الصيدلى . ذلك الرجل الملحد الذى كثيرا ماكان يختصم الكاهن ويجادله وينهزم دائما فى هذا الجدل ويهزا منه الحاضرون

★ ★ ★

◆ لستم ، يا حضرات القضاة ، ممن يحكمون على الكتب استنادا الى بعض السطور ، وانما انتم ممن يحكمون اولا وقبل كل شيء على الفكرة والاخراج ، ويسالون انفسهم هذا السؤال الذى بدات واختتم به مرافعتى وهو : هل

قراءة مثل هذا الكتاب تدفع القارىء الى حب الرذيلة او تحفزه الى التخوف من بشاعتها ؟ الا يدعو هذا العقاب الصارم - الذى جلبه الاندفاع فى طريق الاثم - الى الاستمساك باهداب الفضيلة ؟٠٠ ان الادب الكلاسيكى جميعه كان يسمح لنا برسم صور ومشاهد غير التى رسمناها تماما ٠ كان فى وسعنا ان نتخذ منه اسوة لنا ، ولكننا لم نفعل وانما التزمنا قناعة ستحمدوها لنا ٠ انى لا اذكركم فقط بان هذا الكتاب هو اول كتاب يضعه المؤلف ، بل اذكركم بانه ، حتى اذا كان قد زل فيه زلة ما فهى زلة لا ضير منها على الآداب العامة ولا تستوجب أن يقدم الى المحاكمة ٠٠

« الحكم »

خصصت المحكمة جانبا من جلسات الاسبوع الماضى لسماع الدعوى العمومية المقامة ضد كل من السيد « ليون لوران بيشا » والسيد « اوجست الكسى بيليه » ، بصفة ان الاول مدير والثانى طابع مجلة « لاريفو دى بارى » ٠٠ والسيد « جوستاف فلوبير » من رجال الادب ، وثلاثتهم متهمون :

الاول : بانه نشر فى عددى مجلته الصادرين فى يومى واحد وخمسة عشر ديسمبر عام ١٨٥٦ حلقات من رواية بعنوان « مدام بوفارى » وعلى الاخص الحلقات التى تضمنتها الصفحات ٧٣ - ٧٧ - ٧٨ - ٢٧٢ - ٢٧٣ فارتكب بهذا النشر جنحة خدش الآداب والعادات العامة والمساس بالدين ٠

والثانى : بانه طبع واعد للنشر الحلقات المشار اليها ٠

والثالث : بانه كتب هذه الحلقات وقدمها الى الاول للنشر وبذلك ساعد الاول وسهل له ارتكاب الجنحة المنصوص عليها فى المادتين ١ و٨ من القانون الصادر فى ١٧ مايو عام ١٨١٩ والمادتين ٥٩ و٦٠ من قانون العقوبات ٠٠

(ثم استعرضت المحكمة الحيثيات التى بنت عليها آراءها ، ونقتطف منها الفقرات التالية)

« ٠٠ وحيث ان فقرات الرواية التى تناولها الاتهام بنوع خاص ٠٠ اذا نظر اليها مجردة ومنعزلة ، فانها تحتوى فعلا على تعبيرات او صور او لوحات لا يقرها الذوق السليم ومن شانها المساس بالاخلاق الفاضلة ٠

« وحيث ان الكتاب المحال الى هذه المحكمة يستحق من هذه النواحى ان يلام لوما شديدا ، اذ ان مهمة الادب ينبغى أن تتجه الى تثقيف ورياضة الذهن، بانماء العقل وتنقية الاخلاق ، اكثر من اتجاهها الى اذكاء الشعور بكراهية الرذيلة عن طريق رسم صور الانحراف التى قد تشاهد فى المجتمع ٠

« وحيث ان المتهمين وبخاصة « جوستاف فلوبير » دفعوا التهمة الموجهة

اليهم بقولهم ان الكتاب المعروض على المحكمة ينطوى على غرض احسنى سام ، وان المؤلف انما قصد به اول ما قصد ، بسط الاخطار التى تنجم عن تثقيف النشء ثقافة لا تلائم البيئة التى يتعين عليهم ان يعيشوا فيها ، وانه مضى فى عرض هذه الفكرة فاظهر المرأة - التى جعل منها الشخصية الاولى فى قصته - فى ثوب امرأة التى تصبو نحو عالم ومجتمع لم تخلق لهما ، فتهمل أولا واجباتها كأم ، ثم واجباتها كزوجة ، وتدخل الى بيتها الفحشاء ثم الخراب ، ويسمو بها الامر اخيرا الى الانتحار ، بعد اجتيازها كافة مراحل الانهيار الخلقى ، حتى انها لم تتورع عن السرقة !

« وحيث انه لا يجوز ، بحجة تصوير الاخلاق والاوضاع ، الاسراف فى سرد الافعال والاقوال والحركات التى تصدر عن الشخصيات التى يلتزم الكاتب تصويرها ، وانه اذا طبق هذا المبدأ على الآثار العقلية والصنع الفنية ، فانه يؤدى الى الواقعية ينتفى بها الجمال والجودة ، فتظهر آثار تسيء الى النظر والى العقل فى وقت واحد ، وتمس بلا انقطاع الآداب والاخلاق العامة

« وحيث ان هناك حدودا ينبغى للادب - حتى ما كان منه رخيصا مبتذلا - الا يجاوزها • وحيث ان « جوستاف فلوبير » والمتهمين معه لا يبدو انهم تنبهوا بالقدر الكافى الى تلك الحدود •• وحيث ان المؤلف الذى وضعه السيد «فلوبير» ينم عن انه استنفد كثيرا من الوقت والجهد من الناحية الادبية وناحية الدراسة الاخلاقية ، وحيث أن الفقرات التى اشار اليها قرار الاحالة بالغة ما بلغت من العيب ، قليلة بالقياس الى حجم الكتاب ، وان هذه العبارات سواء بالنسبة للآراء التى تبسطها ، أو بالنسبة للاوضاع التى تصفها ، انما تدخل فى نطاق الاخلاق التى اراد الكاتب ان يحللها •

« وحيث ان السيد « فلوبير » ابدى احترامه للدين والآداب العامة، وان كتابه لم ينح منحى غيره من المؤلفات التى وضعت « بقصد » اثارة الغرائز الحسية فحسب • وأنه أخطأ فقط فى انه تجاهل احيانا الحدود التى ينبغى لكل كاتب يحترم نفسه أن يلتزمها ، وانه نسى ان الادب كالفن يجب ان يكون عف التعبير نقى التصوير •• وحيث انه لهذه الاعتبارات لم يثبت ثبوتا كافيا ان المتهمين الثلاثة قد ارتكبوا الجنحة المسندة اليهم •

« لهذا ، حكمت المحكمة ببراءتهم من الاتهام الموجه اليهم مع اعفائهم من المصاريف »

ادخل فى هذه المعركة !

هل أنت من أنصار إدانة هذا المؤلف ، أم تبرئته ؟

عزيزى القارئ ..

كان الجزء الأول من هذه القصة - الذى قرأته فى الشهر الماضى - بمثابة المقدمة أو التمهيد لحوادثها الرئيسية التى هزت المجتمع الفرنسى عند نشرها ، وأدت إلى محاكمة مؤلفها أمام محكمة جنح باريس بتهمة «خدش الآداب العامة وإفساد الأخلاق» !.. وقد وقفت بك فى نهاية الجزء الأول وبطلة القصة «إيما بوفارى» تترنح على حافة الهاوية التى فغرت فاها تحت قدميها !

وفى هذا الجزء - الثانى والأخير - من القصة ، يدخل بنا المؤلف فى صميم الصراع الحقيقى ، فنرى «إيما» تنزلق إلى الهاوية ، فى تردد - أول الأمر - ثم تتردى فيها بجماع قلبها وجسدها .. حتى تغوص فى أوحالها إلى هامة رأسها !.. وهى كلما تقدمت فى مستنقع شهواتها خطوة ، غارت الأرض تحت قدميها فغاصت إلى أسفل ، أكثر فأكثر .. حتى تدركها نهايتها المفجعة !

وسترى حين تفرغ من قراءة القصة ، ومن متابعة مرافعات الاتهام والدفاع الشائقة فى جلسات محاكمة مؤلفها - التى ذيلت لك بها هذا الجزء الأخير منها - أن القصة إنما هى فى الواقع دفاع عن الأخلاق .. وليست إفسادًا لها !..

وإذن فقد كان القضاء الفرنسى على حق حين برأ المؤلف ..

وإن جافى الحق حين «وبخه» ! والآن أتركك لتقرأ القصة والمحاكمة .. وتحكم بنفسك !

مركز فن الطباعات ٥٨١٤٩